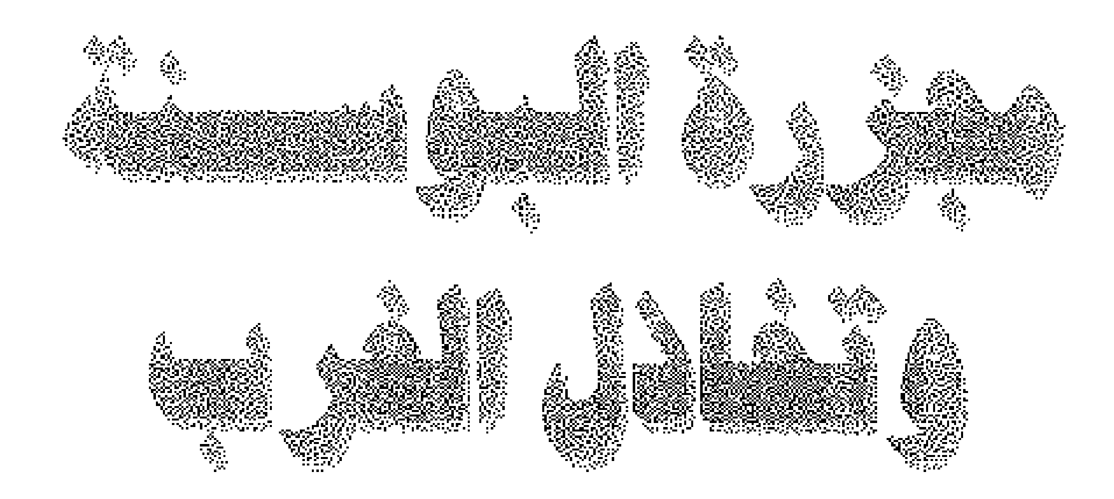


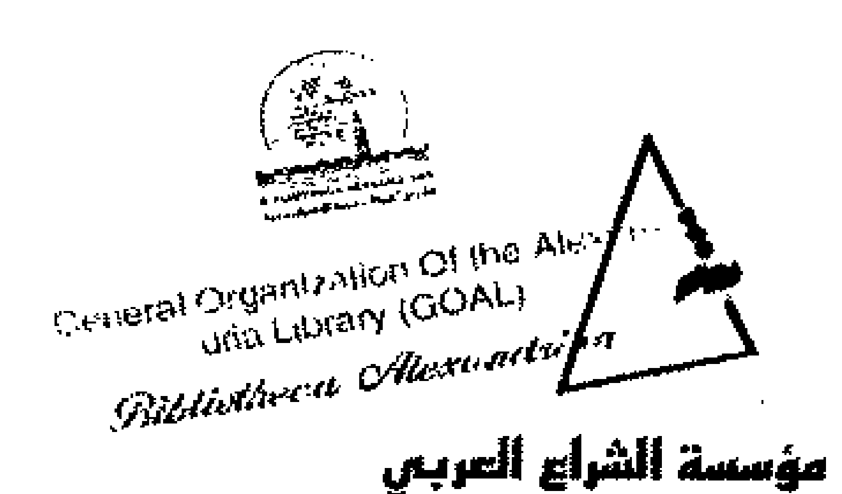
تأليف: دافيد ريف

ترجمة : عبدالسلام رضوان
محمد الصاوي الديب

مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب

تأليف: دافيد ريف

ترجمة: عبدالسلام رضوان
محمد الصاوي الديب



مؤسسة الشراع العربي

العنوان الاصلي للكتاب :

Slaughterhouse:

Bosnia and the failure of the West,

Vintage,London,1995.

ـ الطبعة الأولى/ نوفمبر ١٩٩٥

ـ الناشر: مؤسسة الشراع العربي

الكويت ـ ص.ب ١٠٠٥ حولي

الرمز البريدي 32011 الكويت

فاكس : ٢٥٢٥٠٧١ (٩٦٥)

مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب

الفصل الأول

المجـــزرة

عندما ذهبت إلى البوسنة لأول مرة، في سبتمبر ١٩٩٢، كان انتصار القومية العرقية الفاشية قد أصبح أمراً محتملاً لكنه لم يكن قد تأكد بعد. وبفضل الجهود البطولية لعدد محدود من العاملين في الإغاثة ومن الصحفيين، كانت قد تسربت تقارير عن عمليات الإبادة الجماعية التي قام بها الصرب ضد مسلمي البوسنة. لكن بدأ معظم الناس في الغرب غير قادرين على مواجهة الأخبار السيئة. ولقد وصلت الى البلقان بعد شهر من كشف روى جوكمان، من صحيفة نيوزداي، عن وجود معسكرات اعتقال أقامها صرب البوسنة في شمال البوسنة، وبعد أن نجح «إدفو ليامي»، من صحيفة الجارديان، وطاقم سينمائي بريطاني من ITN في ان يكونوا أول أجانب يدخلوا إليها. وعندما وصلت الى شمال البوسنة كان قد تم نقل بعض المعسكرات كما كان يجرى إغلاق المعسكرات الأخرى بما فيها المعسكرات الأكثر سوءاً– أومارسكا، ماناكا، ترونوبولي – لكن بدا، من نواح اخرى، ان الأمور في المنطقة تسير نحو الأسوأ. فما أصبح معروفا للعالم من عمليات التطهير العرقي لغير الصربيين من السكان صار يحدث في المدن الصغيرة والكبيرة كما في القرى وأصبح أكثر تشعبا ودناءة.

لقد جئت الى أرض البوسنة لأكتب تقريرا صحفيا لمجلة أمريكية «حول التطهير العرقي» دون أن أفهم جيدا حتى المعنى المقصود من هذا التعبير. وانتهى بي الأمر الى العودة الى المنطقة مرات ومرات. ولقد قيل ان السلك الصحفي أصبح منغمسا أكثر مما ينبغي فيما يجري في البوسنة، وأنه كان على الصحافة أن تكون أقل انفعالا. والواقع

ان في هذا القـول جانباً من الحقيقـة فحسب . فمن الصعب أن يحتفظ المرء بهدوئه أو يسيطر على انفعالـه عندمـا يتعلق الأمر بـالتطهير العرقي والإبـادة الجماعية . وبعـد زيارات قليلة للبوسنة ، لم أعد أرغب في أن أكون في مكـان آخر. و أوقفت منذ وقت طويل اى عمل أو نشـاط آخر لي ، وعزمت أن أكتب بأكبر قـدر ممكن من الصراحة الملتهبة قصـة الرحلات التي قمت بها الى « المجزرة» التي حلت بجمهورية البـوسنة والهرسك في ربيع عام ١٩٩٢ . ولقد كنت اتصور وأنا أكتب روايتي لتلك الأحداث أنه إذا ما نقلت الأخبـار السيئة عن البوسنة الى الناس في بلدي - الـولايات المتحدة- فسيؤدي ذلك على الفور الى وضع حد للمجزرة الدائرة .

وعندما استعيد الآن تطور الأحـداث ، أجد أنه كان علي أن أتخلى عن الايمان بقوة الحقائق العـزلاء . ان السماء لم تظلم فوق «أوسكيفتش» ولـن تظلم أيضا فـوق تلال البـوسنة . ذلك هـو أحد الأشيـاء التي تعلمتهـا خلال العـامين المنصرمين . لكنني عندما بدأت رحلتي الأولى إلى البوسنـة ، كان أملي هو أن أضيف صوتي الى الأصوات الأخرى الأكثر شجاعـة مني والذي كانـوا يخاطرون بحياتهم ليكـونوا شـاهدين على مايحدث هنـاك . وحتى شتاء عـام ١٩٩٤ ، وحيث بدا أن الفـرصة مـاتزال سـانحة بألاتطفيء قضيـة البوسنـة ، بدا من المهم أيضـا أن أصور لماذا ظل عـزمنا قـائما- أنا والعديد من الصحفيين والمصورين ومـراسلي شبكات التلفزيون - على إمضاء وقت آخر في الجانب البـوسني (على الرغم من اعتراضـات الأصدقاء والـرؤساء) . لم يكن تفكيرنا منحصرا في مجرد ان مـايجرى هو بمثابـة مأسـاة- فكل الحروب مأسـاوية- بل كنا نرى أيضا أن القيم التي تمثلها جمهورية البوسنة والهرسك هي قيـم جديرة بالحفاظ عليها . ان هـذه المثل المتعلقة بمجتمـع ملتزم بالتعـددية الثقـافية (بـالمعنى الحقيقي والجليـر بـالاحترام وليـس بـالمعنى الاميركـي والـوعظـي لهذا التعبير الـذي ابتـذل استخدامه) وبالتسامح ، وبفهـم للهوية القوميـة يراها نابعة من المواطنة المشتركة لامن الهوية العرقيـة ، هذه المثل هي على وجه التحديد المثل نفسهـا التي دأبنا على المناداة بها في الغـرب . وقبل أن يمر على وجـودي بالبـوسنة وقت طـويل أصبحت مؤمنـا ، ومازلت مؤمنا حتى اليوم ، بأننا في العالم الغني لسنا ملزمين أخلاقيا فحسب بالدفاع عن استقلال البوسنة بل إن لنا مصلحة ملحة في القيام بذلك .

على أن تلك الحملة انتهت بالخسارة. ومابقى هو الالتزام بدور الشهادة على مايحدث، وهو التزام نحو الأموات والأحياء على حد سواء.

إن قضية البوسنة كانت وستظل دائما قضية عادلة. وكان يتعين أن تكون قضية الغرب كله. ولو كان الغرب تدخل الى جانب البوسنة لكان هذا التدخل بمثابة دفاع عن النفس، وليس إحسانا. إن أمريكا، ورغم كل انشقاقاتها الداخلية، ماتزال مجتمع التعددية الثقافية الأكثر نجاحاً عبر التاريخ. والبلدان الأوروبية نفسها تصبح الآن بصورة متزايدة مجتمعات تعددية عنصرية وعرقية، واذا ماحالفها الحظ ستصبح مجتمعات تعددية ثقافية أيضا. ولم يعد كافيا، في هذا الوقت من الدم والنار الذي تمثل المجزرة الجارية على أرض البوسنة الموجة المتقدمة من موجاته، ان ننادى بهذه القيم بوصفها قيمنا. فالحرية لايكفي التوكيد عليها، بل ينبغي الدفاع عنها. ولايمكن لها أن تأمل في البقاء على قيد الحياة اذا لم توجد سوى في نواح مرفهة محدودة من العالم، تماما مثلما تشعر أنواع الكائنات الحية بأنها معرضة للخطر اذا ماكان المكان الوحيد المأمون بالنسبة لها هو حديقة الحيوان. أو كما قال السينمائي البوسني «أدمير كينوفيك» – الذي اختار، بالرغم من أنه كان بامكانه بسهولة ان يخرج من سارايفو، أن يبقى من أجل أن يوثق الحصار – «لمجرد أن النار تضطرم في الدور الأرضي، فان ذلك لايعني أن ساكني الأدوار الأعلى لن يشعروا بلهيبهما في النهاية».

واذا كنت أومن بأن البوسنيين ليسوا فقط ضحايا القتال الدائر بل هم أيضا الشعب الذي يقف الحق الى جانبه، فانني لا أقصد بذلك القول ان على المرء أن يتجاهل ما اقترفوه من جرائم وغباوات أو أن أعفيهم من مسؤوليتهم فيما يتعلق بتفجير القتال أو استمراره، أو أن ماحدث في البوسنة بسيط في أبعاده. فالحرب تجربة مفسدة ومضيعة انسانيا، وهي غالبا ماتظهر الأسوأ في البشر، أيا كان الجانب الذي يقفون فيه، ونادرا ماتترك جوانب ضعفهم دون كشفها. وتندلع الحرب دائما بسبب المال والسلطة ربما بأكبر مما تندلع بسبب الأفكار والمثل. كما تقوم الحرب بدافع الثأر، والجريمة، والتغطية على الجرائم. وهي تعلمك أن أكثر شكوكك تشاؤماً حتى فيمن تعجب بهم من المرجح أن تكون مبررة، على الأقل لبعض الوقت. ومن أوضح

الأمثلة على ما أقول حقيقة أن المدافعين البطوليين عن ساراييفو كانوا يدافعون عن السوق السوداء بنفس قوة دفاعهم عن المدينة . ومع ذلك فان هذا لا يجعل مايقومون به أقل إتصافاً بالبطولية . فالبوسنيون ، شأننا جميعا ، بشر وليسوا ملائكة .

وعلى المستوى السياسي ، كانت القصة على نفس الدرجة من التعقيد . فكما كان يعلم من يعرف شيئا منا عن سلوك الحكومة البوسنية قبل أن يندلع القتال ، فان التزام قادة مثل رئيس الجمهورية على عزت بيجوفيتش ورئيس الوزراء حارس سيلاذريتش بقيم التعددية الثقافية بالمجتمع المدني كان أقل صلابة في وقت السلم عنه بعد ان بدأت عملية إبادة بلادهم تجري أمام أعينهم .

وقبل عام ١٩٩٢ ، كان عزت بيجوفيتش زعيما لحزب اسلامي قومي ، وكان يتحدث عن حقوق ومطالب المسلمين في البوسنة بأكثر مما يتحدث حول الشعب البوسني ككل . وبعد عامين ، أصبح بيجوفيتش زعيما بوسنيا ، وأصبحت الأفكار التي ربما لم يكن يوليها في البداية سوى اهتماما ظاهريا هي الافكار التي تبنى عليها السياسات التي يتبعها .

وقد يكون صحيحا ان هذا الالتزام بدأ بوصفه نتيجة لاضطرار ومثلما كان نتيجة لاقتناع ، وأن هذا الالتزام بدأ يخفت عام ١٩٩٤ ، بعد ان أصبح واضحا أن الدول الكبرى ليست عازمة على القيام بأى إجراء آخر لمساعدة البوسنة على البقاء . فمنذ بداية القتال ، كانت استراتيجية حكومة بيجوفيتش تتمثل في محاولة اقناع الغرب بالتدخل عسكريا . ولقد كان صحيحا أيضا أنه في داخل حزب بيجوفيتش (حزب الحركة الديمقراطية) ، وخاصة في وسط البوسنة ، أصبح الأصوليون الاسلاميون أكثر أهمية بصورة متزايدة مع تزايد حدة الصراع ، وخاصة بعد أن أصبح الجيش البوسني يعتمد أكثر فأكثر على إيران ، والسعودية ، وتركيا فيما يتعلق بالامدادات العسكرية . لكن الأمر اللافت للنظر ، بالنسبة لأى فرد أمضي بعض الوقت في البوسنة ، هو المدى الذي بلغه عمق وثبات التزام أغلب الجماهير البوسنية المؤيدة للحكومة بالتعددية الثقافية .

وإذا ماكان الناس في البوسنة قد بدأوا ، بحلول خريف ١٩٩٤ ، يعرفون أنفسهم

بوصفهم مسلمين وأداروا ظهورهم للتعددية الثقافية التي قاتلوا بضراوة طوال ثلاثة أعوام من أجل الحفاظ عليها ، فليس في ذلك مايدهش . فقد كانوا يقتلون بوصفهم مسلمين ، ويطردون من بيوتهم بوصفهم مسلمين . ولقد قال لي صديق من سارايفو ذات مرة : « في البداية ، كنت يوغوسلافياً . ثم أصبحت بوسنيا . والآن أصبحت مسلما . ولم يكن الخيار خياري . انني لم أكن ذات يوم متدينا . ولكن بعد مقتل مائتي ألف ، ما الذي تريدني أن افعله؟ إن على كل انسان أن يكون له بلد ينتمي إليه » .

وعلى أية حال لم تكن الأخطاء التي ارتكبها كل من عزت بيجوفتش وحارس سيلادزتش قبل الحرب هي السبب في اندلاع الحرب . فمنذ اللحظة التي بدأت فيها يوغسلافيا تتفكك ، كان واضحا أن كلا من القوميين الكروات والصرب أقل اهتماما بالحدود منهم بتكوين دولة ذات تركيب عرقي نوعي . وكان البوسنيون وحدهم ، رغم اختلاط أصولهم العرقية يؤيدون دولة المواطنة في حين كان الأمر بالنسبة للصرب ، من خلال وضعهم المتفوق قوميا ، غاية في البساطة ، فإذا لم يكن ممكنا أن توجد يوغسلافيا . فلا يجب أن توجد البوسنة من حيث أنها ستشكل ، مع نسبة للسكان الصرب لاتتجاوز ٣٢٪ من مجمل سكان البوسنة ، إنهاء لحلم أن يحيا جميع الصرب في دولتهم الخاصة بهم . قال لي محام من بلجراد : « حتى لو كان عزت بيجوفيتش ملاكاً ، وهو ليس كذلك ، لظلت له حربه . » وأيا كانت دوافع عزت بيجوفيتش الحقيقية وفشله قبل بدء القتال في بذل جهد أكبر من أجل طمأنة صرب وكروات البوسنة ، فسرعان ما أصبحت البوسنة التي كافح من أجل الدفاع عنها ، برغم جميع اخطائها ، إدانة حية للتعصب الديني والعصبية العمياء . وهذا هو السبب ، وليس الفكرة المتمثلة في انه كان يؤمل أو أن بالأمكان أن تصبح البوسنة دولة مثالية يسكنها شعب يتميز بالتقوى والتسامح ، في أهمية الشأن البوسني . لقد كان من الواجب انقاذها وكان من الممكن انقاذها .

ولم يكن مثل هذا التدخل هينا أو سهلاً . وتصور ذلك لايزيد عن كونه نوعا من التمني تماما مثل اضفاء الطبع المثالي على البوسنيين . ولو ان ذلك حدث لكان قد حدث من جانب حلف شمال الاطلنطي الذي كانت له وحده القدرة العسكرية

الكافية والسلطة السياسية لاجبار الصرب على وقف الحرب. على أن الحرب التي كان يمكن للناتو شنها كانت ستكون مكلفة في الارواح والأموال والأوهام الضائعة. لقد كان غباء من كثير ممن دعوا إلى أشكال مختلفة من التدخل أن يتظاهروا بغير ذلك.

كانوا يريدون نتيجة لابد من حرب للوصول إليها ولكنهم لم يكونوا يريدون مواجهة حقيقة انه حتى الحرب العادلة تجلب أكثر أشكال المعاناة فظاعة. ان الحرب يمكن أن تسفر عن أشياء كثيرة مختلفة ولكن الشيء الثابت في كل الحروب هو ذبح الأبرياء. وكل الكلام الفضفاض الذي دار أثناء القتال في البوسنة حول كيف ان كل مايحتاجه الغرب هو رفع حظر السلاح المفروض من قبل الأمم المتحدة ضد الحكومة البوسنية والقيام بقليل من «الضربات الجوية الجراحية»، ذلك الحديث الذي صدر عن بقايا اليسار الاوروبي والأمريكي الشمالي والذي كان يسخر- وبالغرابة - من مفهوم التدخلات السابقة من فيتنام حتى الكويت -يجب ان ينظر إليه كله كممارسة يائسة. وهؤلاء الذين يدافعون عنه يمكن وصمهم بحق، بالميل إلى التعامل مع مأساة تاريخية كبرى من منظور مبتذل.

وربما كانت النداءات المتكررة لرفع حظر السلاح عن البوسنة هي الأكثر نشازاً رغم كون مثل هذا العمل ذا أهمية رمزية فكل الذين لم يساندوه فقط بل تصوروا أنه سيغير الأوضاع كانوا يتكلمون وكأن السلاح سيأتي بطريقة التناضح إلى الحدود المغلقة التي مازالت تحت سيطرة الحكومة البوسنية أو كأن الأعداء الصرب والكروات في البوسنة كانوا سيكتفون بالوقوف وكأن ميزان القوى في ميدان القتال قد تحول بشكل جذري. ولعلهم ظنّوا أنه بسبب الجرائم الفظيعة التي إرتكبها جيش صرب البوسنة فإن هذا الجيش غبي أيضا وغير كفؤ. والواقع أنه لم يكن هذا ولاذاك، وأنه كان على جنود الناتو إما القتل أو الموت لكي يتمكنوا من إدخال الأسلحة. ويجب ان يذكر في جانبهم أن معظم الذين عارضوا التدخل أدركوا على أقل تقدير مدى خطورته بشكل لم يدركه الذين أيدوا هذا التدخل.

وعلى أي حال، لقد فات أوان هذا الجدل الآن فقد اختار الغرب - وهو تعبير لطيف لايعني سوى القوى العظمى لأوروبا وأمريكا الشمالية - أن يفعل أي شيء

هذا التدخل . وفي المقابل فقد تبنوا أحد أضخم الجهود الإنسانية في التاريخ الحديث للإغاثة وأكثرها بطولة تحت مظلة اللجنة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة مع المثابرة على المفاوضات الدبلوماسية غير البطولية . وسرعان ما اتضح أن الغرض من ذلك ليس إنقاذ البوسنة ولكن كما يقول السياسيون « إحتواء الأزمة» . وكان العامل المشترك بين كل ماسمي بخطط السلام هو أن الحل الوحيد للنزاع يكمن في شكل ما من التقسيم على طول الخطوط العرقية .

في البداية لم تكتمل الإهانة للسيادة البوسنية . فقد قام المفاوضان الدوليان - سايروس فانس ممثلا للأمم المتحدة وديفيد أوين ممثلاً للجماعة الأوروبية - برسم خريطة تتسم بقدر من العدالة تصورا أنهما يستطيعان بها حث الصرب - الذين كانوا قد استولوا على سبعين في المائة من الاراضي البوسنية - على قبوله ، وذلك بتقسيم البوسنة والهرسك الى عشر كانتونات ذات حكم شبه ذاتي تكون ثلاث منها تحت سيطرة الصرب وثلاث للكروات وثلاث للمسلمين . أما العاشر، والذي يشمل قطاع مدينة سراييفو فيحكمه ممثلون عن الجماعات الوطنية الثلاث في البوسنة . وتمثلت الفكرة الأساسية لهذه الخريطة ، إسمياعلى الأقل، في حفظ السيادة البوسنية في كل أراضي الجمهورية ، رغم ضعف السيطرة التي يمكن ان تمارسها فعليا الحكومة المركزية .

وعندما رفضت خطة فانس / أوين للسلام- بصفة رئيسية نتيجة لاحجام إدارة كلينتون عن تأييدها -تهيأ المسرح تماماً لفكرة التقسيم . وكان السؤال الوحيد المتبقي - ولأنه لم يكن من الممكن حله فقد بدأت الحرب - هو ما الأراضي التي يحتفظ بها الصرب والأراضي التي يمكن أن يعيدوها للحكومة البوسنية؟

وإلى حد كبير كان تصرف الدبلوماسيين على النحوالذي تصرفوا به راجعا لحقيقة أنهم أدركوا منذ البداية ، حتى وإن لم ندرك ذلك في الصحافة ، أنه لن يكون هناك تدخل عسكري . وعندما قرّرت الحكومات على رأيها الجماعي فقد كان تأثير الإعلام ، الذي سمي «بتأثير CNN»، امراً بولغ في تقديره .

لقد عقدت الحكومات الأوروبية عزمها على أنها لن تفعل أي شيء للبوسنة أكثر

من توفير الإغاثة الإنسانية. والواقع أن شجاعة العاملين في الإغاثة، سواء من الأمم المتحدة أو المنظمات غير الحكومية، وإخلاص كثير من الدبلوماسيين - الذين، بعد كل مايقال ويحدث، لم يتمكنوا من فرض التدخل بأكثر مما فعل الصحفيون وعمال الإغاثة- كل ذلك ربما سهل على الصرب مواصلة حملتهم في البوسنة. وذلك لأن حقيقة أن هناك شيئاً يجري خلف الكواليس بدا- على نحو ينطوي على المفارقة- كما لو كان ذريعة يمكن أن تتخفى وراءها القوى الكبرى وكذلك المجتمع الدولي. وفي كل مرة يرتفع صوت الدعوة للتدخل في فرنسا أو انجلترا او الولايات المتحدة فإن الوزراء في حكومات الدول المعنية وممثليها في الأمم المتحدة الذين يفترض موضوعيتهم حول البوسنة (والذين بدأ كثير منا ممن يغطون الحرب يقتنعون بأنهم في الواقع لايملكون هذه الموضوعية) يسارعون بالتأكيد على وجه السرعة على أن سبب عدم امكانية التدخل - كما استوعبنا العبارة- هو أنها « يمكن أن تعرّض للخطر الجهود الانسانية». وعلى أية حال، فإن أيا من الانجليز أو الفرنسيين أو الأمريكان لم يظهر، منذ بداية القتال في يوغسلافيا السابقة، اي رغبة في التدخل عسكرياً. وقد أكد مسئولو الولايات المتحدة، بخاصة مراراً، تأييدهم لبقاء الإتحاد اليوغسلافي. ففي ٢١ يونيو ١٩٩١ زار جيمس بيكر وزير الخارجية وقتها بلجراد وحذر قادة كرواتيا وسلوفينيا بأن الولايات المتحدة لن تعترف باستقلال الدولتين. كما أصدر مسئولو الجماعة الأوروبية تحذيراً مماثلا بعد يومين. لكن وكما إستنتج تقرير من وكالة الاستخبارات الامريكية في اول ذلك العام فإن تقسيم يوغسلافيا كان قد بدأ بالفعل. وبعد أربعة أيام من خطاب بيكر أعلنت كل من كرواتيا وسلوفينيا نفسها «دولة مستقلة ذات سيادة». وبعد يومين، في ٢٧ يونيو، تحركت وحدات من JNA (الجيش الوطني اليوغسلافي) من قواعد في كرواتيا نحو سلوفينيا. ورغم وجود تحرشات طوال العام السابق، فقد كانت تلك هي بداية القتال الحقيقي في يوغسلافيا.

واستمر الصراع في سلوفينيا أياما قليلة، ولدهشة قادة الجيش اليوغسلافي (سابقا) فقد قاتلت قوات دفاع الحدود السلوفينية ببسالة.

وقرر وزير الدفاع اليوغسلافي الجنرال فيلكو كاديجيفتش سحب قواته بدلا من

استمرار القتال. وكان ذلك في واقع الأمر إعترافاً واقعياً باستقلال سلوفينيا من جانب السلطات في بلجراد. على أن ما لم يكونوا راغبين في قبوله هو استقلال كرواتيا، والسبب في ذلك هو القومية العرقية للصرب.

فلم يكن هناك وجود للصرب تقريبا في سلوفينيا، وفي المقابل هناك أقلية كبيرة في كرواتيا. وبإسم الدفاع عن هذه الأقلية الصربية، وليس بإسم الحفاظ على يوغسلافيا، بدأ الجيش الوطني اليوغسلافي العمليات الهجومية في كرواتيا في منتصف يوليو ١٩٩١. وأسفرت هذه الحملة عن وضع أيديهم على ثلث كرواتيا ومعظمه على الحدود البوسنية. وعندها ادعى الصرب ان هذه المنطقة لم تعد جزءاً من كرواتيا بل «جمهورية كرايينا الصربية». وبدا للكثيرين ان هناك صربيا كبرى آخذة في التشكل مع تفكك يوغسلافيا.

واستمر القتال في كرواتيا حتى بداية ١٩٩٢. ومرارا قصفت بروفينك، فينيسيا الكروات الصغيرة، كما سويت بالأرض المدينة الكرواتية الشرقية «فاكوفار». وتحت ضغط شديد من المانيا قررت الجماعة الأوروبية الاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا وقام سايروس فانس، الذي كان يتفاوض على وقف إطلاق النار بين الصرب والكروات طوال النصف الثاني من ١٩٩١، بتحذير وزير الخارجية الألماني هانز ديتريش جينشر ورئيس الجماعة الاوروبية وقتها السياسي الهولندي هانز فان دربروك من ان مثل هذا الاعتراف يجعل الحرب حتمية في البوسنة. وقد ردا على تحذيره بازدراء وأصرا على الاعتراف. وقد أشار هيلموت كول، في ١٥ يناير ١٩٩٢، الى أنه سرعان ما سيعرف كل شخص ان هذه السياسة (الاعتراف) صحيحة، فمن دون قرارنا لن تنتهي هذه الحرب الأهلية.

وفي اوائل ١٩٩٢ نجح فانس بالفعل في اقناع الصرب والكروات بالموافقة على وقف إطلاق النار في كرواتيا الذي وإن كان قد أوقف القتال فانه لم يسترجع، رغم إنتشار نحو ١٤ الف من قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، ما كسبه الصرب من أراضي. ووجدت قوات الأمم المتحدة في كرواتيا نفسها في موقف الإشراف على خط ترسيم يبدو دائما بصورة متزايدة بين الأراضي التي يسيطر عليها الصرب والكروات. ومن الناحية النظرية كانت خطة فانس تهدف الى التوصل إلى تسوية سياسية. وكان

من المفترض نزع سلاح الصرب وأن تحل قوات الأمم المتحدة محلهم. ولكن كانت هناك ثغرة. فقد سمحت خطة فانس، بسذاجة بالغة، باستمرار عمل وحدات الشرطة. وما فعله الصرب ببساطة هو استبدال جنودهم لزيهم الأخضر بزي الشرطة الأزرق ولم يحدث شيء آخر في المناطق التي احتلها الصرب في كرايينا الكرواتية وشرق سلوفانيا. وكما تنبأ فانس بدأ القتال في البوسنة في ذلك الربيع.

وقبل ذلك، في أغسطس ١٩٩١، كان علي عزت بيجوفيتش قد حذر من أن سلوبودان ميلوسيفيتش رئيس صربيا «يريد كل البوسنة، يريدها كلها». وبعد أن أصبح اتحاد يوغسلافيا بصورة متزايدة هو صربيا الكبرى تحت اسم آخر، بذل عزت بيجوفيتش مع رئيس مقدونيا كيروجليجوروف محاولات يائسة للخروج بحل دستوري للأزمة. وفي ديسمبر ١٩٩١، وقد رأى أنه لايمكن إحياء يوغسلافيا مرة ثانية، طلب عزت بيغوفيتش اعتراف الجماعة الأوروبية كما طالب بقوات الامم المتحدة لحفظ السلام، ورفض الطلب الاخير رغم أن مقر قيادة قوات الامم المتحدة المشرفة على وقف اطلاق النار في كرواتيا كان متمركزا في ذلك الوقت في سراييفو. لكن الجماعة الاوروبية استجابت بالفعل لطلب عزت بيجوفيتش بالاعتراف مع الاصرار على وجوب إجراء السلطات البوسنية إستفتاء حول استقلال البوسنة، وهو ما حدث في ٢٩ فبراير ١٩٩٢. وقد وافق مسلمو وكروات البوسنة، الذين يمثلون ٦٣ في المئة من سكان الجمهورية، على استقلال البوسنة بالاجماع. لكن قيادة صرب البوسنة طالبت شعبها بمقاطعة الإستفتاء ودعمت طلبها في القرى المتاخمة لمناطق مسلمي البوسنة بمنع اقامة مراكز الإنتخاب. وفيما عدا المدن نجحت المقاطعة الصربية تماما. وكان بدء القتال مسألة وقت.

وفي أوائل مارس قامت ميليشيات صرب البوسنة بإقامة الحواجز على الطرق. وكانت تلك هي الطريقة التي بدأ بها القتال مع الكروات. وبنهاية الشهر كانت الميليشيات الصربية، بمساندة مكشوفة من قوات الجيش الوطني اليوغسلافي تستولي على الاراضي في كل انحاء البوسنة. وفي ٦ إبريل ١٩٩٢ بدأ حصار سراييفو وفي نفس الشهر سقطت بانيالوكا، المدينة الثانية في البوسنة، في أيدي قوات الصرب. وبدأت المذبحة البوسنية.

أقول أنها مـذبحة لان الإشارة الى ما كـان يحدث على أنه حرب يعـد تشويها ، بل والاكثر فـداحة من ذلك ، تجميلا للطبيعـة الحقيقية لما حدث . قبل بدء القتـال أكد عزت بيجوفيتش أنه لايمكن نشوب حرب لأن جانبا واحدا ـ وهو جانبه ـ لن يقاتل . والـواقع ان تصـور امكـانية تفـادي تلك المجـزرة لمثل هـذا السبب كـان واحـدا من الافتراضات السـاذجة العديدة الجديرة بـاللوم التي وقعت فيها الرئاسة البوسنية . على ان الكلام عن «حرب بوسنية» لن يكون اقل سذاجة فالحرب في واقع الامر وبرغم كل وحشيتهـا لها قوانينهـا وشرفهـا الخاص ، ويحق للجنود ، على الاقل عنـدمـا يكونـون مخلصين لأعرافهم ، ان يروا فيها داعيا مشرفا ومضنيا أيضا للقتال . والتفكير بغير ذلك معناه ان لايوجد ما يضحي من أجله ، واذا كانت البوسنة قد أكدت شيئا فهو ان مثل هذه العبارة ليست سـوى كذبة مخجلة . على أن ما فعلـه الصرب في البوسنة لايمكن ولايجب على الاطلاق ان نطلق بشأنه مثل هذه الادعاءات . لقد كان هناك الكثير من المعـاناة ولكن لم يكن هنـاك «صراع» فيما حـدث في البـوسنـة . لقـد أتى الصرب ، وذبحـوا ، وغزوا ، والعـالم يتفرج . وكما قـال حارس سيلازتش وزير الخارجية ، ثم رئيس الوزراء ، مرارا وتكرارا : «ان مـا يحدث هو إبادة جماعية . لقـد اختار كثير من النـاس في أوروبا أن يسموها حربا . ولكنهـا ليست بالحرب ، إنها مجزرة» . وخـلال كتابتي لصفحات هذا الكتاب ، تكاد فصول هذه المجزرة الجماعية أن تكتمل . ولقد حطمت هـذه النتيجـة أي أمل في أن يـؤدي صـدور كتـاب ، أو شريط فيـديـو ، أو خطاب علني مؤيد للبوسنة الى اي شيء مفيـد عمليا . لقد فات أوان كل ذلك . فلا يمكن للكلمات أو النـوايا الحسنـة أن تغير الآن ما أنجـزتـه الوقـائع الوحشيـة للقتل والتشريد والدمار وتهجير السكان بالقوة ـ وهي «الحقائق الجديدة على أرض الواقع» كما يسميها التعبير السيـاسي . لقد كـان تدمير البوسنة والهرسك هـو الثمن المدفوع لذلك ولايعني هذا ان ما حدث في البوسنـة (من المهم ان نلاحظ ان الهزيمة لا تجعل المرء عاطفيا حتى مع تصور الكارثة) لم يكن ليصير إلى الاسـوأ . إن ابرز شيء يتعلمه المرء من رحلـة الى الحرب هو أنه يمكـن للاشيـاء دائما أن تصير الى الاسوأ . في اوائل شتاء ١٩٩٣ ، وفي حفل عشـاء خاص في زغـرب ، اشار السفير الامبركي في كـرواتيا بيتر كالبريث في يأس الى انه لن يندهش إذا استمر القتـال الى ما لا نهاية وقال « لقد

استمر القتال في بيروت سبع عشرة سنة».

وقبل قليل من سقوط الصاروخ في سوق سرايفو في أوائل فبراير ١٩٩٤ ــ وهو الحادث الذي، ولصدمة كل من أهل سرايفو وقاطني المدينة الأجانب، دفع أخيرا القوى الكبرى للتداول حول أول وقف لإطلاق النار في الصراع، وهو ما كانوا راغبين في فرضه وأدرك المحاصرون الصرب أنه لا يمكن تجاهله ــ كان يبدو لي أن قصف العاصمة البوسنية قد يستمر للأبد. فأي شيء آخر جديد؟ في اليوم السابق سقطت قذيفة على منطقة دوبرينيا المعزولة في ضواحي سرايفو ولم يتغير شيء. وقبل عشرة أيام سقطت قذيفة على منطقة مأهولة في سرايفو الجديدة وقتلت ستة تلاميذ كانوا يتزلجون ولم يتغير شيء. فما الأمر السحري بشأن مصرع ثمانية وستين إنساناً اذا قورنوا بمائتي الف قتيل سقطوا قبلهم؟

بدا هناك شيء ما في الأفق برغم أن الأقرب منا للوضع ربما كانوا أقل استعدادا لفهم طبيعة ذلك الشيء. وعند عودتي إلى نيويورك، في أعقاب مذبحة السوق وموجات الأثير تزخر بمناظر وأصوات ذلك الإنفجار، تلقيت مكالمة من صديقة سابقة، وهي سيدة رقيقة لا تهتم بالسياسة وليست معنية كثيرا بما يحدث في البوسنة، قالت لي: «انني أشعر بالرعب» وكان واضحا أنها تعني ما تقول. ورغم ذلك فقد تعجبت لسبب ذلك. لماذا يثير في النهاية هؤلاء الموتى دموع الناس العاديين وكذلك الأقوياء إلى فورة قصيرة نحو القرار؟ لكن الحقيقة أنهم فعلوا ذلك. فالنقلة في الإدراك الشعبي أدت بحلف الناتو لأن يصر على أن يوقف الصرب على الأقل قصفهم لسرايفو نهائيا حتى لو لم يمتد هذا الحزم، كما أثبتت الأحداث بعد ذلك، إلى غوراجدي أو أي من المناطق الآمنة الأخرى في وادي درينا شرق البوسنة. وبرغم الحديث المفعم بلهجة الإنتصار، ومعظمه كان صادرا عن واشنطن حيث سارعت إدارة كلينتون بإدعاء الفضل في وقف إطلاق النار، فإن المأساة لم تتوقف، بل غيرت فقط مسرح أحداثها.

ومع ذلك فقد سعد كل شخص يهتم بشعب البوسنة بالسلام الهش الذي تهيأ لسرايفو رغم أن صموده غير محتمل. ولكن فلندع الأوهام جانبا. فحتى لو تغاضينا عن مصير غوراجده وزيبا، فان رفع الحصار عن سرايفو وموستار واثنتي عشرة

مدينة صغيرة أخرى غير مشهورة، وكذلك الترتيبات لإقامة اتحاد فيدرالي بين الحكومة البوسنية والسلطات الكرواتية، والأكثر أهمية من ذلك تخفيض معدل القتل ـ حقيقة أنه لم يتم حتى الآن إضافة عشرات الآلاف من الأسماء إلى الربع مليون الذين لاقوا مصرعهم بين ربيع ١٩٩٢ وربيع ١٩٩٤ ـ كل ذلك لايجعل ما حدث في البوسنة أقل من الهزيمة، لنا جميعا وليس للبوسنيين وحدهم. فإيقاف التقتيل هو الغطاء الآن أو «ورقة التوت» التي يجري خلفها تقسيم البوسنة، هذا لو كان البوسنيون محظوظين.

وإذا لم يكن الاسوأ قد حدث بالمفهوم الإنساني ـ على المرء أن يفكر في المذبحة الجماعية للتوتسي في رواندا ١٩٩٤ ليفهم ذلك ـ فإن الأسوأ قد حدث بالمفهوم السياسي والأخلاقي. فقد نجحت مجموعة من قوميي صرب البوسنة المتشددين، ممولين من حلفائهم وموجهيهم في صربيا، نجحوا من خلال مزيج من الدعاية الماهرة والترويع في حشد غالبية صرب البوسنة حول قضية صربيا الكبرى. ودمروا البوسنة كما وصفوا بذلك. ويتمثل اللغز هنا، ومع سيطرة الصرب على ٧٢٪ من البوسنة ومع احتمال استعادة الحكومة البوسنية سيطرتها على ٥٣٪ من أراضي الدولة لو طبقت الخطة التقسيم، في أن يدعي أي شخص الدهشة من أن ذلك أدى، على جانب حكومة البوسنة، إلى البزوغ المتوقع إن لم يكن أصولية إسلامية بالمفهوم المغاربي أو الايراني فعلى الأقل لنزعة قومية اسلامية. ومهما كانت الاحتمالات بعيدة الأمد فيما يتعلق بالتقسيم الذي تصورته القوى العظمى، وبخاصة فرنسا وانجلترا، مقبولا غالبا منذ بداية أزمة يوغسلافيا وأخيرا في أعقاب مذبحة السوق مرورا بوقف اطلاق النار الملزم الذي نجح تطبيقه بالمساعدة الروسية الأمريكية، فإن البوسنة لن تعود متماسكة كما كانت قبل بدء القتال.

ستكون هناك بوسنة بالطبع كما كانت في شكل أو آخر لأكثر من ألف عام، لكنها لن تكون الدولة متعددة الأعراق المكونة من الصرب والكروات والمسلمين، التي كانت قبل بدء المجزرة. ذلك ما أفلحت في إنجازه المحاولة المنظمة من جانب الصرب لإبادة مسلمي البوسنة. وذلك ما فعلته حملة الصرب لاستئصال جيرانهم المسلمين من أرضهم ولتدمير الآثار، وبخاصة الدينية والمعمارية، لتاريخهم هناك.

وهو حدث يمثل ثـالث أضخم محاولة إبادة لأقلية أوروبية في القرن العشرين، وهو ما يعترف به حتى نقـاد مسلمي البوسنة في الأمم المتحدة ودوائر الحكومات الغربية. وبدلا مـن التعددية الثقـافية، رغم كـل نقائصهـا ونفاقها وعـداواتها المستترة، التي تواجدت بالفعل في المناطق الحضرية البوسنية في توزلا وبانيالوكا وموستار وفوق ذلك في العـاصمة سراييفو، قبل بدء القتـال في ابريل ١٩٩٢، فـان الدمـار لم يطل فقط أرواح مائتي ألف انسان بل طال أيضا تـاريخا من التعدديـة والتسامح وذلك المزيج غير العـادي الذي مثلته البوسنـة، وهو مـا لابد أن يسفر عن مستقبل لا يخبىء في جعبتـه سـوى العصبية العـرقيـة والتصلب ثم، آجـلا أو عاجـلا، إنتقـام مسلمي البوسنة.

وليست هناك مغالاة في مثل هذا التنبؤ. فـأي شخص قضى وقتا في البوسنة لابد أنه سمع التهديـدات الشرسة بالانتقام، فجميع الضبـاط البوسنيين في مواقعهم على خطوط المواجهة والسيـاسيون في مكـاتبهـم نصف المضاءة والبوسنيون المنفيـون على المقـاهي في دوسلدروف وفـرانكفورت يتكلمـون بصوت واحـد حول تلك المسألـة: «ستدفع أوروبا ثمن مـا جرى لنا»: هذا ما قاله لي مسؤول بوسني بعد أن اتضح أن وقف النـار الـذي أعلن في سراييفو في فبراير ١٩٩٤ سيصمـد بـالفعل. ففي ذلك الـوقت بدا أن الـسلام كان حـافـزا أقوى على المرارة من الحرب، فبعـد أن تحرروا من الضرورات الملحـة، كمحـاولـة الحصول على الماء وهم ينحنـون لتجنب رصـاص القنـاصة، أصبح لـديهم أخيرا الـوقت للتفكير. وبشكل متـزايد بـدأ أهل سراييفـو العاديون، فضلا عن أعضاء المؤسسة السيـاسية، يستوعبون أخيرا لا مبـالاة أوروبا والولايات المتحدة بما حدث للبوسنة. قال لي ذلك المسؤول: «لن يـساعدنا كلينتون. انه يهتم بأمور صحته وليس ببقائنا أحياء».

كـان البوسنيـون قـد استوعبـوا بعـد سنتين من التعـرض «لحفظ السلام» لـلأمم المتحـدة، خـواء وعقم نظام عـالمي يفترض أن قـدسيتـه قد كـرّست في ميثـاق الأمم المتحدة. لقد تعلموا أنه ليس هناك نظام عـالمي، قديم أو جديد. كذلك تعلموا أنه حتى المبادىء التي تبلورت قبل نصف قرن عند تأسيس الأمم المتحدة في محاولة لربط العالم قانونيا لمنع الإعتداءات في المستقبل كتلك التي شنها صرب بلجراد على دولتهم

والقتل الجماعي التالي الذي عاناه مسلمو بالبوسنة ، كانت في الواقع مجرد مزحة . وقد يتكلم المدافعون عن البوسنة في الخارج من أمثال سيناتور نيويورك ، دانيال باتريك موينهان ، عن «تمزيق» النظام العالمي والمناداة بإجراءات جديدة وأن يتخذ عند الضرورة عمل عسكري ضد الصرب . على أرض البوسنة لم يكن هناك أي نظام لتمزيقه . لقد طالب البوسنيون بالمساعدة وردت الأمم المتحدة على ذلك قائلة : «لسنا مخولين بالمساعدة» وقال الأوروبيون «اذا ساعدنا فإننا فقط سنسوّى بالأرض ميدان القتل ونحن لا نريد ذلك»وقال الاميركان : «إننا نريد المساعدة ولكننا لا نستطيع» . وهكذا إستمر إفناء البوسنيين بعد رفض الدفاع عنهم وحرمانهم من الدفاع عن أنفسهم .

وقد سمى الدبلوماسيون هذه الكارثة انتصارا . وتفاخرت الأمم المتحدة بأنها تنفذ «تفويضها» تحت ظروف قاسية . وهنأ الأوربيون أنفسهم على أنه رغم مأساوية الوضع في البوسنة فقد «إحتوت» دبلوماسيتهم الأزمة البوسنية بنجاح . أما الرئيس كلينتون ، الذي وعد في حملته الانتخابية بأنه إذا أنتخب فسيتوقف التطهير العرقي ثم أمضى الثمانية عشر شهرا الأولى من ولايته في حالة تأهب والتطهير مستمر ، فقد وبخ في غضب كريستين أمانبور مراسلة CNN في سراييفو ، عندما شككت في وصفه للسياسة الأميركية بأنها ثابتة وناجحة ، وقال لها مكذبا : «سيدتي ، لم تكن هناك تذبذبات» .

لا عجب إذن أن بذور مشكلة فلسطين الأوروبية كانت قد بدأت تظهر قبل وقت طويل من توقف النار في البوسنة . وأيا كان المدى الذي بلغته محاولات أوروبا وأميركا لنسيان أمر البوسنة ، وما حدث فيها ــ فبعد شهرين من وقف إطلاق النار في سراييفو كان انتباه الصحفيين والسياسيين قد تحول بالفعل إلى كوريا وأميركا الجنوبية ، وكان من الممكن أن تصبح سراييفو أخبارا قديمة ــ فإن البوسنة لم تنس أبدا موقف أوروبا ولن تغفره .

لقد بدا لي ذلك ، ومازال يبدو ، صحيحا ، مهما كان ذلك الشعور مدمراً للنفس موضوعيا ، وأيا كانت الدرجة التي يؤدي بها ذلك إلى دمار حياة البوسنيين تماما مثلما أدت الذكريات الماثلة للأحداث الدامية في فلسطين إلى دمار مماثل لحياة

الفلسطينيين، وأيا كانت درجة الخوف التي تسببه لي فيما يتعلق بمستقبل القارة القديمة . فقد كان بإمكان أوروبا والولايات المتحدة أن توقفا الإبادة الجماعية ولكنهما تخاذلتا عن فعل ذلك . وكان بإمكان الأمم المتحدة تفسير تخويلها على أنه يتطلب منها فعل شيء لوقف التطهير العرقي . وكان بإمكان الأمين العام بطرس غالي، بدلا من الإصرار على أنه موظف مدني دولي تنحصر مهمته في تنفيذ أوامر الدول الأعضاء، أن يجعل الدفاع عن البوسنة أولويته الأولى . ولقد كانت له كذلك مصلحة في فعل ذلك من حيث أن الأمم المتحدة إما أن تكون كيانا متعدد العرقية ومتعدد الثقافة أو لا تكون شيئا على الإطلاق . وربما يكون الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن هم الذي رسموا دور الأمم المتحدة في البوسنة ولكن السبب في ذلك يكمن مثل أي شيء آخر في أن بطرس غالي أتاح لهم ذلك . إنه حتى لم يدافع عن البوسنة أو مفهوم الدولة متعددة العرقيات ولو بالكلام . بل على عكس ذلك يتمثل أحد الأنشطة الرئيسية لبطرس غالي وممثليه في أن يفعلوا كل ما في طاقاتهم لإحباط أي مساعدة عسكرية خارجية يستطيع البوسنيون توفيرها . تلك هي الحقائق التي تجعل المرارة لدى البوسنيين أنفسهم ومن يهتم بالبوسنة متأصلة ومتأججة . وتلك هي النقطة التي تتحول فيها قصة هزيمة البوسنة لتصبح قصة العار الذي لحق بأوروبا الغربية وأميركا الشمالية . لقد كشف ما حدث في البوسنة إفلاس كل مؤسسات الأمن الأوروبي، من الناتو حتى مجلس الأمن والتعاون في أوروبا، وفضح حقيقة أنه لم يكن هناك في اي مكان داخل تلك الكيانات الكبرى لا الاستعداد الذهني ولا الجلد الاخلاقي للتعامل مع أزمات عالم ما بعد الحرب الباردة أو لمواجهة إحتمال أنه قد تنشب في المستقبل حروب كثيرة ليس بين الدول بل داخل الدول . ان اقناع النفس بتحليل الهزيمة بمفردها يقودنا الى الطريق الخاطيء . فهزيمة الحق أمام القوة هي في النهاية أمر شائع في التاريخ البشري وحقيقة موجودة وجود الفضيلة الفردية، ولو كانت غير مستساغة . ولكن الهزيمة بلا ضرورة، الهزيمة التي كان من الممكن تجنبها، والابادة الجماعية التي ما كانت لتحدث أو كان يمكن وقفها في بدايتها كلها أشياء من البشاعة بحيث لا يمكن إصلاحها .

ذلك ما حدث : لقي مائتا ألف مسلم بوسني مصرعهم على مشهد من

الكاميرات التلفزيونية العالمية، وتم طرد أكثر من مليونين أخرين من ديارهم بالقوة.
لقد تم السماح بتدمير دولة إعترفت بها رسميا الجماعة الأوروبيـة والولايات المتحدة في ٧ إبريل ١٩٩٢ والأمم المتحـدة في ٢٢ مايو ١٩٩٢. وبينما يجري تدميرهـا كانت القوات العسكرية للأمم المتحدة ومسؤولوهـا يراقبون ما يحدث ويقدمون المساعدات «الانسانية» ويحتجـون ـ ويجب أن يقال هنا، وإلى حـد كبير بحق، من حيث أنه لو كـان للأمم المتحـدة أن تتصرف بشكل مختلف لكـان على القـوى العظمى اعطاءهـا تفويضـا مختلفا. إن الأمـم المتحدة «نفذت» العـار ولم تخلقه ــ على انه لم يكـن لدى المجتمع الدولي الإرادة لفعل المزيد. لقد أعلن رئيسان امـريكيان متعاقبان، أحدهما جمهوري والآخر ديمقراطي، مرارا وتكرارا أنهما يمثـلان آخر القوى العظمى الباقية ومع ذلك كانـا يصران في الوقت ذاتـه على أنهما عاجـزان عن تنفيذ التـدخل العسكري أو حتى رفع حظـر السـلاح عن مسلمي البوسنـة. وليس ذلك، كما إدعى كثيرون، بسبب قانون للتاريخ مخيف ومبهم بل هو شـهادة على اختيارات محدودة قام بها اؤلئك الذين يحكمون العالم الغني والموظفون المدنيون الـذين يديرون لهم النظام الدولي الذي وضعوه. في رسالة إلى صديق يصف لورد بايرون إعـداما علنيا لثلاثة لصوص شاهده أثناء مكـوثه في رومـا ـ وربما كـان مدركـا ان روايته لما شـاهده أعطت الانطباع بـأنه استمتع بما رآه ــ يضيف قـولـه: «كنت سأنقـذهم لو كـان ذلك في مقـدوري» أمـا المتحدثون بإسم القوى العظمى فقد أخذوا الاتجاه المعاكس. فعلى مدى ما يزيد على ستين نجدهم يحتجـون على مدى الفـزع مما رأوه ولكنهم يصرون في الـوقت ذاته على انعدام حيلتهم وعجـزهم. ولاشك أنهم كانـوا كذلك فـرديا وعلى مستوى شعورهم الشخصي لكن الأمم والمؤسسات التي يمثلونها كانت لا مبالية بإعدام البوسنة. كان الأمر بالنسبة لهم أشبه بـالقول: «كان من الممكن أن أنقذهـم ولكني اخترت الا أفعل ذلك». وفي غضون ذلك، وكما قـال النـاس في سراييفو، كانت الأمم المتحـدة تتفرج «مثل الخصي في ليلة عربدة».

تلك هي الحيـاة في عـالم مـا بعـد الحرب البـاردة. (يبـدو أننـا لا نملك أسماء لعصـورنا، بـاستثنـاء استخـدامنا لتعبيرات مثل مـا بعـد الحرب البـاردة و« ما بعـد الحديث» كعلامـات توضح المسـافة التي تفصلنا عن مراحل سابقـة). لقد ظللت

لأكثر من عـامين أتردد بين نيويورك وكـرواتيا والبوسنة . وكنت كلما عـدت وحاولت إعادة الارتبـاط بحياتي في وطني أسمع الاصـدقاء يقـولون في جـدية أنـه لم تكن هناك بدائل أخرى فـ «نحن» لدينا جداول أعمال أخرى ومعوقات أخرى للعمل واعتبارات أخرى لابـد من أخـذها في الحسبان . ويكـرر أتباع المرشح كلينـتون مقولتهـم : «انه الاقتصاد» وهو ما قد يضيف إليه اليساريون ، الذين لا يبدون رغبة في التفكير في أي استخدام للقوة الامريكية لانقاذ البوسنة ، «إنها الامبريالية الأمريكية» . أما الأمريكان العاديون الوديعـون فربما يضيفون«إن الأمـر يخص أولادنا أما البوسنة فهي مشكلة أوروبـا» . أمـا الملمسـون بكل المآسي التي تحدث على كـوكبنـا فسـوف يصرون على التسـاؤل : «وماذا عن انجـولا والسـودان وشرق تيمور والتبت وهايتي وروانـدا؟» . وأتذكر هنـا أحد معارفي الذي أخذ يسترجع عـبارة هيجل(ليست تلك التي أعلنها فرانسيس فوكو يـاما حول «نهاية التاريخ» بل كانت استحضـارا أقل مغـالاة لـ «طاولة ذبح التاريخ») ليـدعم دعواه بأن مـا يحدث في البوسنة ما هو الا مثـال أكثر ذيـوعا للأهوال التي تحدث طول الوقت في كل انحاء العالم .

وقبل ذهابي الى البوسنة ربما كان من الممكـن أن أتفق مع بطرس غالي الذي أبدى ملاحظـة أثناء زيـارته اليتيمة لسراييفـو في ٣١ ديسمبر ١٩٩٢ مفادهـا أن ما يحدث هناك هو «حـرب الرجل الغني» . وكأحد رجال العالم الثالث الجيـدين كان السكرتير العام يعني أن البوسنة هي حرب الـرجل الأبيض . لقد وبخ أهل سراييفو المدهوشين قـائلا «أنني أتفهم خيبة أملكم ولكنكم في وضـع أفضـل من عشرة أماكن أخـرى من العالم . . وأستطيع أن أعدد لكم القائمة» ، ثم غادر المدينة . وما أن بدأت أقيم لوقت طو يل في البوسنة حتى ادركت ان الامر لا يتعلق أسـاسا بالموافقة أو عدم الموافقة على كلام كهذا بل هـو الشعور بأن هذا السجل المقارن للشهـداء وكل تلك الاحصاءات لاعداد أجسـاد القتلى غير ذات صلة بالموضـوع ، تماما مثلما كـان التنافس على أفضـل وضع للضحيـة والـذي أصبح بـدعـة سائدة في المدن الجامعيـة الأمـريكيـة في أوائل التسعينات . بعـد تواجدي في البـوسنة ، لم أستطع أن أجد معنى لعمليـة التميز بين آلام شعب وآلام شعب آخر . فهي عملية غير ذات موضوع سواء بـالمعنى الأكاديمي أو السياسي : «رتب أفضـل شعراء العصر الفيكتوري حسب أهميتهـم» ، «رتب أسوأ

المآسي في العالم».

لم أعد من جانبي آخذ بجدية ذلك الجدل حول ما اذا كان حصار سراييفو أسوأ أم حصار مدينة كويتو الانجولية أو ما إذا كانت معاناة مسلمي البوسنة أسوأ أم معاناة المسيحيين في السودان. إنني أعرف فقط ما رأيته، أعرف ما يحدث في البوسنة، وأعرف أن التغاضي عن تلك الأحداث بدعوى أن هناك أحداثا أكثر فظاعة لن يعني، بالمفهوم الأخلاقي، سوى خلق عدو شرس للمخير. كذلك عرفت أن ما يحدث في البوسنة لم يكن هناك مدعاة لحدوثه، وأن الغرب كان يستطيع تجنب المجزرة. والكلام عن جميع المجازر الأخرى التي كان يجب الانتباه إليه ليس أكثر من تبرير متفلسف من أجل الشعور بالراحة لعدم فعل شيء: «سأرى بوسنتك وأريك شرق تيمور».

***

إذا ما عدت إلى الحياة التي كنت تعيشها قبل أن تشاهد منظر الذبح وسفك الدماء، على الأقل إن كنت أحد مواطني العالم الغني، فسوف تصطدم بالنفاق وبالشعور الزائف بالرضا عن كل شيء تعودت أن يكون مألوفا ومبهجا لك. سوف تبدأ بالشعور بأنك غريب في الحياة التي رسمتها لنفسك. وبالرغم من أنه يتعين على جميع الكتاب، بدرجة أو بأخرى، أن يكيفوا أنفسهم ليكونوا غرباء محترفين، ورغم كل ألفتي بهذا الأسلوب في رؤية الأشياء فقد كان سفري جيئة وذهابا من مكان مثل سراييفو أو بانيالوكا إلى مكان مثل مانهاتن يبعدني عن أصدقائي وماضي بدرجة لم أكن أحلم بإمكان حدوثها. لم أشعر فقط وكأنني عدت من أرض الأموات بل كأنني أيضا أصبحت كمن بعث بعد الموت.

وإني لأشعر أنني لست وحدي الذي يراودني هذا الاحساس. فحتى المراسلين الحربيين المتمرسين كان صعبا عليهم أن يستعيدوا أنفسهم بعدما مروا به في البوسنة. وإذا كنت اكتب الآن دفاعا عن القضية البوسنية... هذا برغم أنني أميل إلى الإعتقاد بخسارة هذه القضية - واعتراضا على اللامبالاة القاسية، والتشاؤم الضحل والنفاق الذي أحاط بجريمة ذبح البوسنة، فإنني أشك في أنني أكثر دهشة من حالتي هذه

عن أي شخص آخر. لقد تعودت في حياتي السابقة، قبل البوسنة، على إمتداح نفسي لأن الغضب انفعال كنت محصنا ضده. ومثلما لم أكن أتوقع أن ينتهي ذلك في البوسنة، كذلك لم أكن اتوقع أن اشعر بأنني لن أشفى بعد ذلك منه أبدا.

ولادخل لذلك بالشعور بالراحة هناك، ناهيك عن التصور بأنني بشكل ما «منتمي» كما يفعل الناس عندما يحبون دولا أو قضايا. فطوال الوقت الذي قضيته في البوسنة لا أتذكر لحظة واحدة لم أكن فيها على الاقل خائفا، وأتذكر لحظات كثيرة كنت فيها مرتعبا. ولقد كنت وقتها ومازلت شديد الانتقاد للحكومة البوسنية في سياساتها وفي مذاجتها، وكنت غالبا أضيج وأغضب من أسلوب كلام البوسنيين بمثل هذه الخليط من استيعاب الذات وقلة الواقعية عن أنفسهم وعن بقية العالم. وبرغم ذلك فقد بدا أن الأسهل بالنسبة لي أن أكون في البوسنة، مهما بدت الأمور فيها ميئوسا منها ومثيرة للسخط من أن أستمع إلى الطريقة التي اعتاد الغرب عادة أن يتحدث بها عن البوسنة أو، وهو الأسوأ، التي لا يتكلمون بها عنها أصلا.

وسرعان ما تعودت على ندرة ما يعرفه الناس عن البوسنة في دول قريبة مثل ألمانيا وإيطاليا. لكن اللحظة المميزة عندي (بعد عام من المجزرة وبعد فترة من بدء حصار سراييفو وبعد أن قامت قوات صرب البوسنة بطرد الغالبية من السكان المسلمين من الوديان الواقعة شرق البوسنة وبعد نسف الغالبية العظمى من المساجد في شمال البوسنة و إزالة آثار إسلام أوروبا التي دامت في المنطقة لخمس قرون)كانت عند قيام الرئيس كلينتون بافتتاح متحف «الهولوكوس في واشنطون. لقد كان يوما للتبجيح، مفعما بالأفواه المطبقة والملابس الكئيبة وأسراب الطنطنات البلاغية. وكان من بين الحضور رئيس كرواتيا، فرانكو توديهان، الذي أعرب ذات يوم عن شكه في وقوع كل تلك الفظائع في الهولوكوست. كذلك تواجد كثير ممن نجوا منها بمن فيهم «إيلي ويزل» الذي وبخ كلينتون على سياسة أمريكا تجاه البوسنة، وهي نقطة في صالحة. ومن ناحيته أراد الرئيس أن يحصر الحديث في العموميات. وبرغم ذلك فقد كان له بالفعل إقتراح. فلكي لا تتكرر ثانية الإبادة الجماعية التي حلت بيهود أوروبا خلال فترة النازي شدد بيل كليتون على ضرورة اليقظة غير العادية وقال «علينا أن نحيي الذاكرة».

لقد كان أقل ما يقال في هذا الصدد هو ما صدر عن الرئيس كلينتون من حديث عن الذاكرة وكأنها شيء شبيه بصاروخ باليستي أخلاقي. لكن الخطأ الاخلاقي الحقيقي كان في أنه يتكلم بتفاؤل عن المستقبل في الوقت الذي تجري فيه ـ وكما يدرك هو تمام الادراك، كما كان بإمكان ويزل أن يذكره على المنصة ـ عملية إبادة جماعية أخرى في أوروبا. ولم تكن الإبادة الجماعية البوسنية مماثلة لما حدث لليهود بأكثر مما كانت إبادة يهود أوروبا مشابهة للإبادة الجماعية للأمريكان عام ١٩١٥. لقد مثلت الإبادة الجماعية لليهود حافزا لتبني المباديء التي قام عليها النظام الدولي في أعقاب الحرب العالمية الثانية مثل معاهدات جينيف الأربعة، ومعاهدة الإبادة الجماعية عام ١٩٤٩، وفوق هذا كله ميثاق الأمم المتحدة. وكل هذه القوانين تم انتهاكها بشكل منتظم في البوسنة.

لقد مثل حصار سراييفو نفسه جريمة حرب. فعلى أرض المعركة كانت الأمثلة على عدم إرتكاب جرائم حرب أندر من الأمثلة على إرتكابها. ولم يكن التطهير العرقي، بطبيعة الحال، مجرد جريمة حرب، لقد كان إبادة جماعية صرفة. وقول كلمات مثل «لن يحدث ثانية»، التي قالها كلينتون في افتتاح متحف الهولوكوست، لن يعني شيئا آخر سوى الانتقال من موقف إدعاء البلاهة إلى التبجح الكامل، طالما أن الإبادة الجماعية مستمرة في البوسنة وطالما لم يفعل كلينتون شيئا لوقفها. لقد كانت كلماته، حرفيا، بلا معنى. فإذا لم يكن هناك نية للتدخل لوقف الإبادة الجماعية الجارية فإن عبارة «لن يحدث ثانية» لن تعني أكثر من «لن يحدث ثانية أن يقتل الألمان اليهود في أوروبا في الأربعينات»، وكأن كلينتون يقول: «لن تحدث ثانية مجاعة البطاطس» أو «لن تحدث ثانية مجزرة البيجنز». والآن، وفي ضوء معدل سير الأحداث، هل يتوقع المرء أن يقوم رئيس أمريكي قادم، عام ٢٠٥٠، بافتتاح متحف للتطهير العرقي؟

خلال الحملة الانتخابية عام١٩٩٢ وعد المرشح كلينتون باستخدام نفوذ أمريكا في إنهاء هذه الإبادة الجماعية الجارية في البوسنة وبعد مضي كل هذا الوقت قد يصيح أحد أعوان كلينتون في وجهي في غضب: «لماذا يأخذ الناس الآن وعود الحملات الإنتخابية بمثل هذه الجدية؟)أو على الأقل، إعطاء الحكومة البوسنية وسيلة

الدفاع . وبعد عامين ، يبرر تشارلز ريدمان ، مسئول الخارجية الأمريكية المكلف من الرئيس كلينتون بوضع خطة سلام في البوسنة ، قبول أمريكا بمبدأ التقسيم قائلا : « كان علينا أن نقفز فوق الجسر الأخلاقي » للحصول على السلام . لكن على أقل تقدير ظل الأمريكان ملتزمين كلاميا بفكرة السماح للحكومة البوسنية بالدفاع عن نفسها أمام العدوان الصربي ، وفي أواخر ١٩٩٤ قرروا أنهم لن يستمروا في تطبيق حظر السلاح . أما الأوروبيون فقد أنكروا أصلا وجود أي عدوان وتحدثوا بدلا من ذلك عن حرب أهلية في البوسنة . وعارضوا بإصرار رفع حظر السلاح الذي مررته الأمم المتحدة قبل أكثر من عام كجزء من مجموعة عقوبات قصد منها عقاب الصرب على الحرب التي كانوا يشنونها ضد كرواتيا المنسحبة من الاتحاد اليوغسلافي . وظلوا متمسكين بتلك السياسة رغم أن الحرب في كرواتيا إنتهت وبرغم أن هذه السياسة لا تؤدي الآن الا إلى تعزيز موقف الصرب في البوسنة . فالصرب ووكلاؤهم في البوسنة لديهم أكثر من كفايتهم من السلاح ، فقد ورثوا مخازن الجيش الوطني اليوغسلافي وحصلوا على القليل الذي لا يتوافر لديهم من الروس واليونانيين . أما موقف الكروات فكان أكثر تعقيدا فقد تحالفوا مبدئيا مع الحكومة البوسنية عندما بدأ القتال في ابريل ١٩٩٢ ومع ذلك فعندما صار واضحا أنه حتى وفق خطة فانس ـ أوين فان البوسنة بعد عام سيتم تقسيمها على أساس الغلبة العرقية في المناطق المقسمة ، بدأ الكروات حملة التطهير العرقي الخاصة بهم ضد المسلمين . وقد تفجر هذا الموقف عندما لم تتمكن قوات الكروات من الإستيلاء على القسم المسلم من مدينة موستار وعندما قامت قوات الحكومة البوسنية بهجوم مضاد ناجح في وسط البوسنة . وأخيرا ، في عام ١٩٩٤ ، وبعد هزيمتهم على أرض المعركة وتحت ضغط امريكي وألماني ، عاد الكروات ثانية إلى العمل المشترك مع حكومة سراييفو بل وحاربوا معهم في هجوم الحكومة الذي طرد قوات الصرب خارج مدينة كوبريس في أواخر اكتوبر ١٩٩٤ . ولم يتمكن الكروات فحسب من شراء كمية كبيرة من السلاح من السوق المفتوحة بل إن إحياء تحالفهم مع حكومة البوسنة ضمن لهم نصيبا من أي عتاد تمكن الجيش البوسني من تهريبه للداخل . وبعد هذا كله فالبوسنة محصورة ولابد أن يمر كل شيء عبر الحدود الكرواتية .

وبطبيعة الحال فإن الغرض الحقيقي من الإبقاء على الحظر تمثل طوال الوقت في ضمان وصول أقل عدد من السلاح إلى الجانب الحكومي . ورغم أن الحظر قرره مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في ٢٥ سبتمبر ١٩٩١ قبل أن تعلن البوسنة استقلالها فإن حقيقة أن حكومة البوسنة فقط هي التي تضررت لم تزعج أحدا . بل ان وزير الخارجية البريطانية دوجلاس هيرد رأى أن عدم التوازن العسكري الذي أطال الحظر أمده أكد في الواقع أهمية أن يظل الحظر ساري المفعول : «إننا لا نريد أن يتساوى طرفا القتال» ، هذه العبارة كررها هيرد أكثر من مرة . لقد بدا وكأن ماكان يخشاه هيرد ، في واقع الأمر ، أنه إذا تحسن تسليح قوات حكومة البوسنة فسوف يلقنون الصرب درسا . ومن يدري ما كان سيحدث عندئذ؟ لقد كان هذا الاختيار أفضل كثيرا ، برغم كآبته ، من أن نتمنى النصر للصرب . فعلى أقل تقدير سيتوقف القتال .

لقد كان هناك مسئولون داخل الحكومة البريطانية راغبين في مثل هذا التنازل : «لم يكن يجب علينا الموافقة على تقطيع أوصال يوغسلافيا دون أن نسوى أولا مشكلة الأقليات والحدود وربما ليس قبل أن يكون في أيدينا برنامج إنساني لمبادلة السكان . إن الإعتراف بالبوسنة وتحريض مسلمي البوسنة على إعلان استقلالهم كان أعلى مراتب العمل الأخرق» ، ذلك ما كتبه السيد ر. د. ويلكينسون من مكتب تخطيط السياسة الخارجية التابع لوزارة الخارجية البريطانية . أما بالنسبة للموقف الأمريكي فإن ما بدا نقطة جوهرية فيه هو الاحجام عن إنفاق رأس المال السياسي اللازم لإنقاذ البوسنة . فقد ذكر أن تيم ويرث ، سناتور كلورادو السابق ومستشار كلينتون ، أبدى تلك الملاحظة : «إننا لا نستطيع ان ندع البوسنة تعرض للخطر أفضل أمل ليبرالي لجيل كامل» . وذكر مساعدو كلينتون الساخطون أن موقفا حرجا قد نشأ عندما كانت الإدارة تفكر في إرسال وزير الدفاع إلى سراييفو فعارضت هيلاري رودهام كلينتون بانفعال هذا التحرك على أساس أن ذلك سيخفي برنامج الرعاية الصحية من الصفحات الأولى خلال زيارة وزير الدفاع للبوسنة . وعندما سمعت بهذه القصص فإن كل ما استطعت أن أفكر فيه هو الموتى وكيف كانوا في حاجة إلى ألا يموتوا . ومازال يراودني هذا التفكير البسيط أيا كانت آثاره على المستقبل السياسي «لأفضل

أمل لجيل كامل».

لقد التحمت آثار كل من العداوة الأنجلو فرنسية للبوسنة مع المراوغة الأمريكية لكفالة أن يكون للحكومة البوسنية، طوال عامين، حصة الأسد من القتل. فقبل بدء القتال كان لدى الصرب كل السلاح (وبعكس سلوفينيا، فإن البوسنة لم تقم أبدا قوة دفاعية حدودية وإنما أنشأتها بعد بدء القتال) وبعد أن بدأت المعارك جديا، تمكن الصرب من أن يقيموا خطوط إمداد من صربيا مباشرة عبر البوسنة إلى كرواتيا. ولقد كان التطهير العرقي يهدف في جزء منه إلى جعل هذه الطرق آمنة من هجوم العصابات. كما أن الصرب استولوا كذلك على معظم التلال ـ وهي أولى بديهية في إستراتيجية الحرب. وسواء تعلق الأمر بالمرتفعات المحيطة بسراييفو أو جبل فلاسيك في وسط البوسنة مع هيمنته على مدن المسلمين والكروات الممتدة أسفله، فإن الذين أمضوا الحرب منا متنقلين مع قوات الحكومة البوسنية كانوا يقضون الوقت منكمشين تحت وطأة القصف مع شظايا في أعناقنا بسبب رفع رؤسنا لرؤية مواقع البنادق على الجانب الآخر.

ورغم الدعاية عن الجنود غير النظاميين الملتحين «التشتنيك» الذين يعلقون شعار النسر الأبيض الصربي والدبابيس برأس الموت مع صناديق ذخيرة مدافعهم الثقيلة ليبدوا مثل التشتنيك الأصليين ـ وهم الجنود الملكيين غير النظاميين بقيادة الجنرال ميها يلوفيتش الذي قاتل ضد جنود. تيتو غير النظاميين أثناء الحرب العالمية الثانية ـ فإن معظم المحاربين الصرب في البوسنة كانوا يشبهون ويتصرفون (وغالبا ماكانوا) كأفراد في الجيش النظامي: الجيش الوطني اليوغسلافي. قبل بدء القتال في البوسنة كان قائدهم راتكو ميلاديتش قد قاد فيلقا خلال الحرب الكرواتية. وفقط بعد أن احتل الصرب ثلث كرواتيا تحرك إلى «بالي» ضاحية سراييفو التي أعلنت عاصمة لجمهورية صرب البوسنة التي أعلنها صرب البوسنة من جانب واحد. وقد استولى ميلاديتش على مخلفات الجيش اليوغسلافي في البوسنة وعلى مخازنه ومعسكراته بالاضافة إلى معظم ضباطه النظاميين وأفراده. وظهر ذلك جليا فيما قاله لي ضابط كندي يعمل مع قوات الأمم المتحدة في سراييفو من أن «الصرب جنود حقيقيون، وأيا كان رأيك فيما يفعلونه، فإنهم بالنسبة لي نوعية متميزة كمقاتلين».

إن كون إنجازهم الرئيسي تمثل في القتـل في واقع الأمر، وإن كان القتل ذا أهداف سياسيـة وعسـكريـة دقيقة التخطيط (لم يكن التطهير العـرقي مجرد جريمـة حرب بل مثل تكتيكا للسيطـرة على الاراضي المحتلة دون قلق من وجود سكان منـاوئين)، قد بدا، في ضوء الاحباط المتزايد للصحفيين الذين يغطون القتال ودور الأمم المتحدة في تخفيف آثاره دون التوسط فيـه لا يصنع فرقا على الاطلاق. وفي نظـر الضابط العادي في «قوات الحماية» التابعـة للأمم المتحـدة ـ وهـذه التسمية، والمكـروهة من جـانب المسلمين البوسنيين، كانـت تعني في الواقع قوات الحماية الذاتية (أي حماية نفسها)ـ لم يكن الجو في ميس الضبـاط في بـالي، مع بعـض التجـاوز نتيجـة لظـروف الحرب وخصوصيـات البلقان، يختلف كثيرا عن أي قاعـة ميـس تعود فيها تناول الـوجبات والإستراحة.

وعلى الوجـه الآخر ، كان جنـود الحكومة البـوسنية أقـرب ما يكونـون إلى مدنيين يتدربون على كيفيـة أن يكونوا جنودا. كانوا يستلقـون على كراسيهم ويسيرون بمشية غير عسكرية بالتأكيد مثيرين الإنطباع بأنهم بعيدون تمامـا عن الطقوس والتقـاليد التي هي صلب العسكـريـة في كل دولـة تقـريبـا. فكثير منهم إن لم يكن معظمهم مدنيـون والباقـون ضباط صغار. ومن المؤكـد أنه من النادر أن تقـابل ضابطـا ذا رتبة عالية في قوات الحكومة البوسنية كان قبل الحرب يحمل رتبة تفوق رتبة الرائد في الجيش الوطني اليوغسلافي.

إن ما كان يملكه البوسنيين بالفعل هو أوهامهم، وبخاصة إعتقادهم أن ما كان يحدث لهم منذ بـدء القتل مثّل بشكل ما نـوعا من الخطأ الفئوي المروع. كـان الأمر، كصورة معكـوسة لـوصف بطرس غالي لـورطتهم، وكأن البوسنيين تصوروا أن كونهم أوربيين سيحميهم من أهوال الحرب. فأوروبا، بـالنسبة لهم ،هي قارة أصبحت فيها القيـم العالمية التي يدافعون هم عنها عرفا متبعا .

وفي سرايفو، بصفـة خاصة، وحتى لحظة إنـدلاع القتال، كان متوقعـا أن تكون الحياة في المستقبل لا تختلف في شيء عن الحياة في «مدن الأقاليم» الأوروبية الاخرى، مثل تريستا او غراز. وحتى عندما أدركـوا أنهم وقعوا في خطأ مريع حول ما يخبؤه لهم القدر في المستقبل لم يستطع، سوى عدد قليل منهم ، أن ينبذ تماما تلك التوقعات.

فلم يكن يفترض أن تندلع حروب في غابات أوروبا كثيفة الخضرة في التسعينات، بين أناس أصبحت ملكية أكواخ على شواطيء البحر والسيارات المستعملة والتعليم الجامعي أمرا شائعا لديهم. . فالحروب تندلع في العالم الفقير. وفي دولة غنية مثل يوغسلافيا السابقة، كان من المفترض أن يسود سلام راسخ الأسس ومتحضر، برغم تاريخها الدموي.

وعندما جاءت الحرب، أدرك سكان البوسنة من الطبقة الوسطى، وبخاصة في مدن سرايبفو وموستار وتوزلا وبانيالوكا، في ألم أنه رغم استماعهم لخطابات القوميين الصرب من أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش، رئيس صربيا، ورادوفان كارادزيتش، زعيم صرب البوسنة، فإنهم في الحقيقة لم يسمعوا شيئا. إن المقارنات بين ميلوسيفيتش وبين هتلر غبية ولا تعني شيئا(ـ تلك الرغبة الجامحة لعهد ملطخ بالشطط البلاغي الذي يصر على أن أي شيء جيد هو الاعظم وأي شيء رديء هو الأسوأ ـ ولكن عجز سرايبفو هذا عن السماع يذكرنا برد فعل كارل كراوس الممثل النموذجي للتيار العالمي النزعة في وسط أوربا خلال فترة ما بين الحربين ـ الذي كتب يقول: «عندما أفكر في هتلر لا يرد شيء في عقلي». كذلك لا يستطيع كثير من مواطني سرايبفو العالمي النزعة، وحتى هذه اللحظة، إستيعاب ما حدث لهم. والواقع ان ذلك الخلط الادراكي وسوء الفهم لوضعهم التاريخي هو الذي يميز رد الفعل البوسني على الحرب التي أحاطت بهم عن رد فعل الافغان أو الأنجوليين. ففي البوسنة، اكتسى الألم العالمي الذي تثيره الحرب بتلك المسحة من الدهشة لدى أولئك الذين اعتقدوا أن حياتهم المادية ستكون دائما سعيدة.

فلقد قيل الكثير عن أن «نهاية التاريخ»، ذلك المفهوم الذي لم يكن يعني أكثر من «نهاية الشيوعية»، سيتبعها عصر الاستهلاك الذي تسوده البلادة والهدوء.

وأتصور الآن أنني إعتقدت ذلك أيضا، متخيلا أنه قد ولّت بشكل حاسم عهود الدموية، بالنسبة للأوربيين البيض على الاقل. كنت أعرف أن أوروبا لم تكن، تاريخيا، مكانا لطيفا بشكل خاص، وأنها كانت في فترات معينة ـ مثل الخمسين عاما الأولى من القرن العشرين وهي التي يجب أن أوليها إهتمامي ـ مكانا «وحشيا» بصورة خاصة. ولكن رغم أنني كنت أعرف ذلك، فإنني لم أعتقده بعمق أيا كانت مشاعر

الأسف والاشفاق التي كنت أحس بها إزاء هيروشيما وأوزويتش وخراب افـريقيا وأرخبيل الجولاج. فهذه الأحداث كـان من الممكن أن تقع أيضا في حقبة جيولوجية أخرى.

لقد ظننت قبل بداية ذهابي إلى البوسنة أن الأزمة التي تلوح في أوروبا يمكن أن تتمحور حول الأزمة الدولية العامة التي بدا أن العالم الغني سيمر بها.

لقد كانت أعداد متزايدة من الناس من العالم الفقير غير الأوروبي تهاجر بنجاح إلى دول الإتحاد الأوروبي وأمريكا الشمالية ليقوموا بالأعمال التي لم يعد المواطنون راغبين في القيام بها. كان وجود هؤلاء المهاجرين والتحديات ـ الثقافية والعنصرية واللغوية ـ التي فرضوها هي التي بدا أنها الورطة الكبيرة والعتيدة التي يخبؤها المستقبل للعالم الغني. فلم يكن لأوروبا تقاليد للهجرة. وبعكس الولايات المتحدة ، التي مرت بتحولاتها الخاصة المرتبطة بالهجرة، ولم يكن هناك سياق معرفي قوي لما كان يجري. ولكن الأزمة لا تعني الحرب، رغم أنني في لحظاتي الأكثر كآبة وجدت انه من السهل تصور مستقبل أوروبا وقد أصبح القمع والنزعة المناهضة للديمقراطية هو القاعدة. وستتألف أوروبا تلك من مواطنين ومهاجرين أو بعبارة أخرى، ستكون كمجتمع أقرب إلى أثينا جامعة العبيد منها إلى العالم الإجتماعي الديمقراطي فيما بعد عام ١٩٩٥ وقبل الإجماع الأوروبي الغربي عام ١٩٨٩ . ولكن ما لم أستطع تصوره هو صوت رصاص الدبابات وصفير طلقات القناصة وهو يدوي عبر نوافذ المباني العالية وعبر الحدائق الأنيقة والمتاجر والمقاهي المتلألئة ومعارض الفن التشكيلي ومعارض السيارات والمراكز التاريخية في مدينة مثل سراييفو. لم أستطع أن أتصور هذه الأشياء بأكثر مما تصورها البوسنيون أنفسهم قبل أن يغمرهم ما لم يخطر لهم قط على بال.

الفصل الثاني

أتيت إلى البوسنة بمحض الصدفة تقريباً، دون خبرة في الحرب، مدفوعاً بفكرة أن القتال الدائر في أوروبا لم يكن نذيراً للمستقبل بل مفارقة تاريخية مرعبة وممزقة لنياط القلب. وربما كان هذا هو السبب في أنه حتى في ذلك الوقت من صيف ١٩٩٢ ظلت مذبحة البوسنة لاتزيد عندي عن كونها فكرة مجردة كما كانت، في اعتقادي، بالنسبة لكثير من الأوروبيين والغربيين والأمريكيين الشماليين. فرغم المعلومات الكثيرة التي تسربت عما كان يحدث هناك لم أجد سياقاً أتفاعل معه، لقد تعاطفت تلميحاً ـ وأعني بذلك في ألم ـ عندما كانت الصورة المرئية للمذبحة أقوى ما تكون ولكن التعاطف كان يختفي عندما تغيب القصة عن إذاعات الأخبار المسائية، ولكنني لم أفهم. وفي ذلك الصيف، وبعد ان انتهت حرب الكروات وبدا أن تدمير البوسنة قد أصبح وشيكا، صار من الشائع ان تسمع أناسا لطفاء ذوي مصادر وثيقة من كلا جانبي الأطلنطي يتكلمون باستغراب عما كان يحدث، كما كان شائعا بنفس القدر ان تسمعهم يمزجون تعبيراتهم عن التضامن الأخلاقي بتعبيرات عن انعدام الحيلة والتي كانت معرفية بقدر ما كانت عملية. وبوجه عام، بدا انهم أقل صدمة إزاء وقائع «التطهير العرقي» ـ وكانت في ذلك الوقت عبارة جديدة ـ أو بحصار سراييفو عن صدمتهم إزاء حقيقة أن تلك الأحداث كانت دائرة في أوروبا في التسعينات.

لقد بدت لي العبارات التي أخذت تبرز بشكل متواتر عندما ظهر موضوع البوسنة بمثابة التأكيد على أن الحيرة التي أصابت الناس عندما أجبروا على مواجهة أي حادثة رهيبة ارتبطت، في حالة البوسنة، بذهول حقيقي بأن ما كان يحدث يجري في أوروبا. ظل الناس يتساءلون كيف يمكن أن يحدث ذلك هنا، (و«هنا» هذه تمتد لتشمل جزيرة مانهاتن وجورج تاون وكامبردج وماساشوستس إلى جانب فرنكفورت وميلانو وباريس)، ويهزون رؤوسهم متعجبين من فكرة أن سراييفو، وهي مدينة

أوروبيـة ، كـانت بطريقـة تتحـول منظمـة إلى أنقـاض على يد عسـاكـر الصرب على المرتفعات المحيطـة . لم يكن هناك مجال للدهشـة في أن أوروبا ، في هذا السيـاق ، قد أصبحت تصنيفاً أخلاقياً بقدر ما هي تصنيف جغرافي .

وبالرغم من أزمةالثقة المفترضة في أوروبا فإن الصيحات ضد «المركزية الأوروبية» التي أدت إفتراضاً ، بعبارة الكـاتب الفرنسي باسكال بروكنر، إلى «التحلل الأخلاقي غير المبرر في نصف الكرة الغـربي» فإن المفهوم القـائل إن أوروبا أكثر تحضراً أخـلاقيا كان مترسخاً بأكثر مما يزعم عادة . وإذا كان ما يحدث في البلقان يوحي بأنه لا يمكن رسم خط واضح بين قيم أوروبا وقيم الأجزاء الأخرى من العـالم ـ أو بين الغرب وبقية العـالم كما يرى أصحـاب النزعـة المحافظـة ـ فإن الأخبـار السيئة ظلت منفصلـة عن التجربة اليومية للحياة في الغرب التي ظلت فكرة الحرب غريبة تماما عنها .

كان على الحضور إلى أوروبا للذهاب إلى حرب ، وكنت قد بدأت العمل في كتاب عن أثر تلك المجموعات الجديدة والمنبوذة مـن اللاجئين والمهاجرين الذين وصلوا إلى القـارة القـديمة من كل مـن تلك المناطق مـن العالم التي يميل معظمنـا إلى تسميته بالعـالم الثالث تعبير ـ وهو تعبير فضفـاض بحيث لم يعد له معنى سـوى أنه يعكس نيتنـا السيئة ــ ومن العـالم الثالث «الأشقـر» الجديـد المكون مـن المناطق المدمـرة من الامبراطـورية السوفيتيـة السـابقـة التي تحصنت منهـا أوروبـا الغربيـة منـذ ١٩٨٩ بالأسلاك الشائكـة والنزعة الاستبـدادية . لقد انجـذبت لوقت طويل إلى الحدود سواء في ذلك الحدود الفعلية أو النفسية وبعد توحيد ألمانيـا فقد أصبح لنهر الأودر جاذبية لا تقل عن جاذبية نهر ريو جراند أو مضيق فلوريدا . وربما لأنني في سن مكنتني من معرفة كثير من المدن الأوروبية الكبيرة على عهـدها قبل عصر الهجرة الجماعية فإنني لم أكن أغـالب الصدمـة ، كلما رجعت إليهـا ، من التشـابه المتزايد بين لـوس انجلـوس بالغالبيـة الجديدة المكونة من اللاجئين من شرق آسيـا والمكسيك ووسط أمريكا وبين مدينة بروكسل التي ، وعلى نقيض التجانس النسبي عـرقياً وجنسياً التي تميزت به منذ جيل واحد فقط ، أصبح أكثـر من ربع سكانها من تركيا والمغـرب وأفريقيا . ولكن ان تصبح لـوس أنجلوس نمـوذجاً لأمريكـا المتحضرة في القرن الحادي والعشريـن فهذا شيء محتمل أمـا أن تمر بروكسل ، المدينـة التي أصبحت العـاصمـة الإدارية لـلاتحاد

الأوروبي الجديد، بتحول ديمغرافي مواز، فإن الأمر يصبح أكثر غرابة ويعني في النهاية أن أوروبا بسبب الديمغرافيا، سرعان ما ستكون كذلك متعددة الثقافات والأجناس.

وفي أوروبا كان مثل هذا التحول أصعب بكثير من أن يصبح متصوراً، فقد كان مفترضا أن يتمثل النموذج الأمريكي أساساً في التغير، أيا كان حجم السخط الذي يبديه كل جيل من أجيال الأمريكان «الأرثوذكس» والذين يتأقلمون في النهاية مع الموجات المتعاقبة من الوافدين الغرباء. وكان المفترض أن تكون أوروبا، إن لم تكن غير قابلة للتغير، فعلى الأقل تكون مستقرة. لقد مثلت ظاهرة أن يكون ميدان بيرشنج وسط لوس أنجلوس غير مألوف في التسعينات لمن كان يرتاده قبل نصف قرن، المأزق الأمريكي في نموذجه الأصلي تماماً عندما تتفاخر في الشوارع الجانبية من «جراند بليس» بمطاعمها التي تبيع الكباب الدسم وعندما تمشي السيدات التركيات وعليهن غطاء الرأس والملابس الأناضولية الطويلة يتجولن في مركز المدينة التاريخي ببوتيكاته الجميلة التي تخدم رجال الأعمال البلجيكيين ومسئولي الجماعة الأوروبية فهو أمر مختلف تماما. لم يكن السائحون الأمريكان فقط هم الذين تخيلوا أن الشخصية الأوروبية كانت بشكل ما أكثر ثباتاً وأقل تمثيلاً لبلدانها وأن أوروبا مهما صارت «أمريكية» في أمور أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فإنها لم تصبح بعد، فيما يتعلق بهذه المسألة، بمثل هذا التأمرك. فمع انحسار الحرب الباردة أصبحت الهجرة الموضوع الرئيسي الذي يؤرق الأوروبيين.

على أنه بالنسبة لشخص أمريكي، بدا ما كان يحدث مألوفاً وقد جئت إلى أوروبا، بعد أعمال طويلة على الحدود الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية للولايات المتحدة، بحثاً عن تلك «الأمركة» لمستقبل أوروبا، وهو مشروع دفعتني إليه الرغبة في التوصل إلى إجابة بمثل ما دفعني إليه الاعتقاد الأكثر إنشائية القائل إننا إما أن نكون متعددي اللغات في القرن الحادي والعشرين وإما نقتل بعضنا بعضا.

ولشهور، كنت أتسكع في المناطق التي أعتبرها المهاجرون ملكاً لهم في عدد من مدن القارة الكبيرة ولكن بخاصة في ألمانيا، محاولاً لهم في عدد من مدن القارة الكبيرة ولكن بخاصة في ألمانيا، محاولاً جمع المعلومات عما كان في الواقع متشابها من الطرق

التي تأثرت بالهجرة في أوروبا وأمريكا وتلك التي لم يحدث لها ذلك. وخلال تلك الرحلات، حاولت أيضاً أن أزور أكبر عدد من مخيمات ومراكز اللاجئين الجدد التي أقامتها مختلف الحكومات الأوروبية القومية والمحلية، وطول الوقت أكتب الملاحظات متمنياً، كما يفعل أي كاتب عند البدء في موضوع جديد، أن تتضح في النهاية ملامح كتاب أقوم بكتابته.

كنت أقضي أيامي مع الباحثين عن ملاجيء والشبان حليقي الرؤوس، والأخصائيين الاجتماعيين ولكن ظلت الحرب في يوغوسلافيا مادة للأخبار المسائية أينما سافرت. ولكن من منظور روستوك ليختنهاجن، حيث أشعل النازيون الجدد بيتاً مخصصا للباحثين عن اللجوء السياسي، أو في مولن حيث أحرقوا عائلة تركية أحياء داخل متجرها، أو في الجانب البولندي لنهر أودر حيث يتجمع العمال غير الشرعيين من وارسو القريبة أو من الصومال كل ليلة ليعبروا المياه الضحلة إلى الجانب الألماني، فقد بدا لي إنهيار يوغوسلافيا مسألة ثانوية أيا كانت مأساويته ليس فقط مقارنة بالموضوع الذي بدأته بل كذلك مقارنة بانهيار الاتحاد السوفياتي قبل ثلاث سنوات. كانت الحرب الباردة هي التي حددت فهمي للعالم، وإذا لم يكن لسبب آخر، فقد جعلت أيضاً نهاية فكرة الفناء النووي التي صاحبت ذلك الصراع ومنذ مولدي، يبدو عام ١٩٩٢، رغم أنه لم يكن وقتا مفعماً مثل ١٩٨٩، فترة يكون فيها أي شخص عاقل على ثقة تامة من تحققها بفعل السير العام للأحداث.

وبعد كل ما كان يقال ويحدث، ماذا يمثل سقوط يوغوسلافيها إذا ما قورن بالدمار النهائي والذي طال انتظاره للنظام الشيوعي؟ بالتأكيد كانت يوغسلافيا دولة مثيرة للاهتمام، وإذا كنا قد ضللنا بالشعور الكاذب بما صارت إليه يوغسلافيا من خلال الدعاية الموالية لتيتو التي أبرزتها وسائل الإعلام المضادة للشيوعية في الغرب ، فإن الغرباء مثلي لم يكونوا أكثر إرتياحاً لإدانتها كما فعلنا مع بلغاريا وبولندا بل حتى المجر الأكثر تحرراً تحت شيوعية «الجولاش» في عهد كادار. ولقد بدا تيتو نفسه، أيا كان خطؤنا عند استرجاع الأحداث، شخصية أبعد كثيراً عن الملامة من أي شخص آخر في الكتلة الشرقية ــ كان طاغية كما هو واضح ولكنه كان أشبه ما يكون بكاسترو أو «هوشي منه» الذي لم تكن لها جاذبية «كارزمية» هائلة بل كان كل منهما

يبدو أيضاً أكبر بكثير من البلد الذي يقوده. وبعكس كاسترو أو هو، وأقرب إلى فرانكو، كان تيتو شخصية يمكن أن تنهي حياتها، ربما رغماً عنها، بإدخال نظام أكثر ديمقراطية مما توحي به أيدولوجيته أو تاريخه.

ومع ذلك ومن منظور العالم اللا مبالي، هل يهم الأمر؟ ألم تبدو يوغوسلافيا دائما، بموقعها بين الشرق والغرب، والتي تحيا على المساعدات الأمريكية في الأربعينات ثم على التحويلات المالية لعمالها الوافدين إلى أوروبا الغربية في فترة الازدهارالاقتصادي لألمانيا ثم في الشرق الأوسط في عهد البترودولار وفي نهاية حكم تيتو على القروض وامويلات غير الناجعة من المعونات الدولية والبنك الدولي ـ ألم تبدو يوغسلافيا على الدوام مسألة ثانوية؟

في عام ١٩٨٠، عندما ذاعت الأخبار عن حرب الإبادة الدائرة على يد نظام بول بوت في كمبوديا لم يدع أحد أن المأساة مهمة بسبب أهمية كمبوديا من ناحية الجغرافية السياسية. فإذا استنتج الناس أن حرب الإبادة هناك غير محتملة فقد كانوا يفعلون ذلك على أساس أخلاقي معتقدين أن هناك حالات شاذة ـ من حرب الإبادة بشكل خاص ـ العالم ملزم على أساس أخلاقي وربما شرعي كذلك إذا صدق المرء أن اتفاقية حرب الإبادة ١٩٤٩ ملزمة لكل من وقوعها، بالتدخل لوقف استمرارها. وحتى على أيام كمبوديا، كان هناك من أشاروا إلى أي عدد آخر من الكوارث المستعصية التي كانت تحدث في كل أنحاء العالم في ذلك الوقت. أو كما ذكر مدير اليونيسيف جيمس جرانيت للكاتب الانجليزي وليم شوكروس «انها بالتأكيد مزعجة»، ولكن برويتها بعيداً عن العاطفة ستجدها واحدة من كوارث كثيرة ولكنها ليست أسوأها بكل المعايير. هل ما جعل يوغسلافيا جديرة بالملاحظة عام ١٩٩٢ هو أنها كانت تحدث في أوروبا، في تلك القارة السعيدة والموهوبة حيث لا يفترض للحروب، بعكس الكوارث الطبيعية والجرائم، أن تنشب؟

هل يعني ذلك أن ما كان يحدث هناك كان جديراً بالاهتمام بشكل خاص؟ لماذا البوسنة؟ لم لا تكون . . . . ؟ يبدو أن القائمة تطول وتطول.

لعل هذا كان السبب في أنه كان أسهل كثيراً على أناس مثل مارجريت تاتشر والمحافظين الآخرين ـ والذين لم تكن لديهم شكوك في الحضارة الأوروبية بوصفها لا

تمنح فقط الامتيازات بل تتطلب مستوى أعلى من السلوك السياسي لمن هم في فلكها ـ أن ينادوا بالدفاع أولاً عن كرواتيا ثم عن البوسنة . بالنسبة لهم فإن العدوان الصربي ، الذي عرفوه بشكل سليم ـ مستنكرين كل الإدعاءات حول الحروب الأهلية والأصولية الإسلامية والعنف الكامن في شخصية البلقان ـ كان ببساطة خطأً وشيئاً غير مقبول يجب تصحيحه . أما بالنسبة لليبراليين ، الذين كانوا قد تحرروا من وهم فكرة الحضارة الأوروبية (أيا كان تأصلإقرارهم لها في أعماق أعماقهم) فقد كان الوضع أصعب بكثير ، فعلى مدى جيل حاولوا أن يزيحوا عن أنفسهم وحاولوا أن يروا العالم ليس من منظور زاويتهم الضيقة داخله بل بكليته . وقد جعل ذلك مواجهة موضوع يوغسلافيا ، وحتى الاهتمام بيوغسلافيا ، أصعب بغير حد حيث تعودوا على التفكير بأن أوروبا إحدى مناطق العالم التي لا يجب على أحد الاهتمام بها كثيراً ، في الواقع ، التي من الخطأ الاهتمام بها بمثل هذا القدر . والذين كانوا مهتمين بالفعل كانوا متأكدين أن شخصا ما ، سواء كان بطرس بطرس غالي في الأمم المتحدة أو كاتب العمود المحلي اليساري ، يمكن أن يتهمهم بالتأثر على نحو خاص بمعاناة الأوروبيين البيض . ولقد شعر السكرتير العام بالحرية في إبداء ملاحظته الشهيرة عن كيف أن البوسنيين أفضل بكثير من ضحايا العديد من المجازر الأخرى القائمة في العالم وذلك خلال زيارته لسراييفو عشية السنة الجديدة ١٩٩٢ .

كان تأثير ما حدث كابحاً ، على أقل تقدير ، فقد أضاف كبحا أخلاقياً إلى الفوضى التي أفرزتها الحرب عند الكثيرين . وحتى بين أنصار قضية البوسنة كان من الشائع أن تسمع عبارات مندهشة آسفة حول الوقوف في صف واحد مع السيدة تاتشر أو كبار المسؤولين السابقين في إدارة ريجان . أضف إلى ذلك حقيقة أنه طوال الحرب الكرواتية ، أياً كانت صدمة العديد من الليبراليين في فرنسا وبريطانيا وبخاصة أمريكا الشمالية بما كان يفعله الصرب ، فقد استولت عليهم أيضاً ذكرى فظائع الفاشيين الكروات أثناء الحرب العالمية الثانية . ولم يكن الأمر يتمثل فقط في تذكرهم أن كرواتيا كانت تحت إمرة آنتي بافيليتش وحزب أوستاشا الفاشستي الذي تعاون مع النازيين وكان مسؤولاً عن قتل مئات الآلاف من الصرب واليهود . بل في أن هذه الذكرى جعلتهم يتشككون ، بصورة غير منطقية ، في أن جميع الكروات ظلوا في

أعماقهم فاشيين ومعادين للسامية حتى الآن . وقد عززت فكرة ان المانيا والنمسا هما أكبر مساندين لكرواتيا التحفظات لدى الناس في دول الناتو الأخرى . كما أن الكروات لم يفعلوا شيئاً لمساندة قضيتهم في الخارج . فقد ألف الرئيس فرانكو توديمان الذي كان في السلك الشيوعي وجنرالا في الجيش الوطني اليوغسلافي قبل تحوله إلى القومية كتابا يتشكك فيه في حقيقة كارثة اليهود ورغم أنه أنكر بشدة أنه معاد للسامية فقد كان يولي أهمية لربط التحالف الحاكم أكثر من شجب هؤلاء الأعضاء داخل حزبه (الاتحاد الكرواتي الديمقراطي) من ذوي الميول الواضحة المؤيدة لحزب «الأوستاشا» . وكان الأكثر جوهرية أن الصرب في التصور الشعبي الغربي كانوا الأولاد الطيبين أثناء الحرب العالمية الثانية . ولم يكن سهلاً وبخاصة على الناس العاديين أن يقفوا إلى جانب أعدائهم السابقين وأن ينسوا بسهولة تحفظاتهم تلك تجاههم حتى بعد تدمير مدينة فوكوفار الكرواتية . وفي فرنسا على وجه الخصوص ، حيث كان الشعور لصالح الصرب قوياً ، كان من الصعب حتى أن تدافع عن الكروات ، وكان من أوائل الكتاب الفرنسيين الذين قاموا بذلك آلين فينكلكروت بكتابه المثير للجدل «كيف يمكن للمرء أن يكون كرواتياً»؟

ومع كل تلك الإدعاءات والمحاذير المتعارضة التي تتدخل في فهم المرء ، فليس من المدهش ، باسترجاع الأحداث ، أن تكون الأخبار من البلقان على CNN والقناة الثانية ومكاي نيوزالبريطانية و ZDF الألمانية في بعض الأوقات منتشرة في كل القنوات ومنطوية في الوقت ذاته على تأثير أقل قوة بكثير من تأثير الأحداث التي تدور على مسافات جغرافية أبعد بكثير.

ولا أظن أنني كنت وحيداً في تعجبي ، عند مشاهدة حصار فوكوفار عند انتهائه واستيلاء الصرب على المدينة ، من كيفية دمارها الكامل على الطريقة القرطاجية ، وفي تساؤلي أيضاً إن كان الكروات قد فعلوا شيئاً يستحقون عليه ما أصابهم وحتى في أوضح حالة ، وهي القصف الوحشي لدوبروفنيك التاريخية ، وأنا أجفُل لرؤية الصور التلفزيونية التي عرضت قذائف البحرية تفجر حوائط القلعة القديمة وتشعل النيران في المباني الفخمة للمدينة القديمة ، ظللت أفكر أنه كان على الكروات المدافعين عن المدينة الاستسلام وإنقاذ المدينة . فحتى بالنسبة ليهودي مقتلع الجذور مثلي ، فإن

فكرة أن القومية الكرواتية تمثل قضيـة تستحق الموت من أجلها ـ وهو أمر يبدو لي الآن عادياً بذاته ـ كانت لاتزال تبدو لي عشية قصف دوبروفنيك أمراً يصعب قبوله .

ولقـد مرت عمليـة تـدمير دوبـروفنيك بسهـولـة ، على الأقل كما عرضت على التلفزيون . لقـد كانت محاولة تدميرها تخريباً متعمـداً وليس حرباً ، حتى وإن اتضح أن الدمار الحقيقي للمدينة كان مبالغاً فيه في التقارير الأوليـة للسلطات الكرواتية ـ كما كانت شاهداً أيضاً على الطريقة التي كان يتم بها استقبال الأحداث في يوغسلافيا السابقة ـ حيث تستقبل غالباً بدون تحليل سياسي أو سياق تـاريخي . كان المراسلون في المواقع يعرفون أكثر بـالطبع وحاولوا نقل ما يعرفون بأفضل مـا يستطيعون . وعندما أسترجع الأحـداث الآن أوقن أن الصيغ الـتي يعملـون في إطـارهـا كـانت تخذلهم في أغلب الأحيان . فما كانوا يكتبونه في تقـاريرهم ، ما لم يكن للشخص سياق يضع فيه المعلومـات التي تقدم إليـه ، كان قـراءات عاطفية عما كـان يدور في المدينـة الشهيدة والأسرة الـلاجئـة ورجـال الميليشيـا قسـاة القلب . بـالطبع كـانت كل هـذه الأنماط موجودة ، . لم يكن لأحد ان يمضي أسبوعاً في البـوسنة أثناء القتال دون أن يواجهها . ورغم الابتذال دون شك في قـول هذا فإنني أعتقد أن الصرب كـانوا المدانين في الحرب أكثر ممـا كنت أعتقد عندما كـان كل ما أعرفه عن «التشتنيك» هـو صورة على CNN وما ذكره لي المراسلون مثل كريستين أمانبور عن وحشيتهم .

لقد جعلتني مشاهد الحرب المتلفزة سريع التصديق ـ فلا أذكر مثلا مجرد التفكير فيما إذا كان هناك المزيد في القصة عما كان يعرض ، وكان هناك بالفعل المزيد حتى في حالـة واضحة مثل دوبروفنيك ـ ولكن وللمفارقة ، فبرغم وربما بسبب عـاطفية ردود فعلي أو ضحـالة احكـامي ، فقـد كان مـن السهل علي أيضا ان انتقل الى اهتمامـات أخرى : الهجرة الكبيرة وانهيار الشيوعية وقيام رأسمالية كونفوشية جديدة في شرق آسيا ـ رغم علمي بأن القتال كـان يدور عن قرب . إن زغرب ، العاصمة الكرواتية ، تبعد ساعتين بالطائرة عن فرانكفورت . أما سراييفو فتبعد فقط بخمس وأربعين دقيقة ، أو كان يمكن ان تكون كذلك لـو ان المجال الجوي البوسني لم يغلق أمام كل الطيران عدا رحـلات إغاثة الأمم المتحدة وغـزو طائرات الهليوكبتر التابعـة للصرب وطائراتهم الحربية ذات الأجنحة الثابتة .

وعلى أية حال فالمعرفة ليست القوة، ان وعملية سقوط يوغسلافيا متلفزة بكل تفاصيلها تثبت هذه الحقيقة. فعندما ذهبت أخيراً إلى البوسنة كانت لدي معلومات كثيرة ربما أكثر مما كان لدى معظم من ذهبوا إلى معظم الحروب لدرجة أنني كنت أعرف موقع الأرض في أماكن لم أطأها مطلقاً. وعندما ذهبت إلى سراييفو للمرة الأولى، كنت أعرف مسبقاً أنه لكي أنتقل من المطار إلى هوليداي إن، حيث يقيم الصحافيون، كان علي أن أتحايل للحصول على تصريح لركوب سيارة مصفحة تنقل الموظفين إلى رئاسة الأمم المتحدة في مبنى الاتصالات القديم في المدينة، الـ PTT حيث أن ركوب سيارة «مرفهة» على طريق المطار كان عملاً طائشاً بسبب وجود القناصة، كما عرفت أنه للوصول من الـPTT إلى فندق هوليداي إن، كان علي أن أحتال لأركب ثانية، أما إذا اضطررت لركوب سيارة مرفهة، وليس في سيارة مصفحة للأمم المتحدة أو في لاندروفر مصفحة خاصة بالمراسلين، فآخذ الطريق الخلفي وراء PTT فهو أسلم من الطريق الرئيسي الذي كان يسلكه الناس قبل الحرب والذي عرف بزقاق القناصة منذ بدء إطلاق الرصاص. بالطبع عرفت كل ذلك لأنني قد رأيت مثل هذه الطرق على شبكة CNN وكان يمكن أن تكون سراييفو مليئة بالمفاجآت عندما بدأت أخيراً في قضاء وقت هناك ولكن على الطبيعة كانت بالضبط كما توقعتها. ومع ذلك فلم أكن أعرف شيئاً.

يتحدث الناس بشكل روتيني عن المعلومات والمعرفة وكأنها نفس الشيء والأسوأ أنهم يواسون أنفسهم بفكرة أنه طالما حصلوا على المعلومات ذات الصلة فإنهم سيبدأون العمل وهذا وهم قديم. ويقول الناس: لو أن العالم علم بالهولوكوست لكان قد فعل شيئاً ما ـ ربما ليس الألمان «السيئين» بل بقية العالم «الطيب» ـ وبعد عامين في البوسنة فإنني أميل إلى التفكير أنه لو كان هناك كاميرات في «أوسكوفتش»، لكان العالم قد فعل القليل كما فعل في عصر ما قبل التلفزيون، ما لم يكن مناسباً، بالطبع لأصحاب القوة في العالم القيام بعمل، صحيح أن منظر ثمان وستين من الموتى وحوالي مائتين من الجرحى في السوق المركزي في سراييفو ولّد استجابة أخيراً وأرجو على أي حال أن أكون مخطئاً. ولكن كان هناك الكثير من أمثال تلك الصور من قبل وسيكون هناك الكثير في المستقبل. فإلى متى ستستمر اهتمامات الناس

العاطفية؟ شهر؟ سنة؟ بالتأكيد، ليس أطول من ذلك، سواء في البوسنة أو في أي من المجازر في الامبراطورية السوفييتية السابقة، والتي تمثل البوسنة تمهيداً لها فحسب.

كانت العاطفة دليلاً سيئاً خلال الحرب الكرواتية وكانت كذلك خلال مذبحة البوسنة. لقد كانت مثل المنشار السوطي. ففي لحظة، يذرف الناس الطيبون الدمع على فوكوفار ودوبروفنيك، ويطلبون في غرب أوروبا بالذات من حكوماتهم أن تعترف بكرواتيا وسلوفينيا الإنفصاليتين. وفي اللحظة التالية، وبعد أن يكتشفوا (أو يتصورون أنهم اكتشفوا) أن هذا الإعتراف لم ينه المذبحة والخراب بل على العكس بدا أنه أدى إلى قتال جديد في البوسنة والهرسك التي كانت في سلم من قبل يسارع الكثيرون برفع أيديهم في استسلام مقرّين بالفكرة التي يروج لها كثير من الأوروبيين الغربيين ومسؤولو الأمم المتحدة من أن الاعتراف كان خاطئاً على طول الخط. ويصرون بعد هذا الإدراك المتأخر أنه فقط من خلال الاتحاد اليوغسلافي يمكن احتواء العنف العرقي الذي تعرض له السلاف في الجنوب.

لقد وجدوا أن الفكرة، التي كانت متأصلة في الوعي الأوروبي على أية حال، القائلة إن البلقان كانت دوما موطن عنف، فكرة معقولة جداً. كان الكاتب والسياسي الأيرلندي كونر كروز أوبراين يعبر عن رأي الكثيرين عندما كتب عام ١٩٩٢ : «هناك أماكن حيث بفضل الكثيرون الحرب وكذلك النهب والاغتصاب والاستبداد المصاحبين لها عن أي لون من الاحتلال مع السلام. ومن بين هذه الأماكن أفغانستان ويوغسلافيا بعد إنهيار النظام الشيوعي المركزي». لقد تمثل الدرس التاريخي المستخلص من تلك النظرة في، أنه القدر المأساوي والتاريخي للصرب والكروات ومسلمي البوسنة أن يحاول كل منهم تذبيح الآخر مرة كل جيل أو نحو ذلك. وتكون النتيجة السياسية المباشرة لذلك هي القول إن البوسنة والهرسك لا يمكن اعتبارها دولة خارج إطار الاتحاد اليوغسلافي بأي شكل. قد تجلس في الأمم المتحدة، ولكن كان ذلك خطأ أوروبا. فمثل هذا الاعتراف القانوني، مهما تصوره البوسنيون عقلانيا، لا يمنح الشرعية الحقيقية.

ان مشكلة أي رد فعل لحدث سياسي عاطفي في أساسه ـ والعاطفة رغم سهولة

تحريكهـا ، فانها النقيض للقناعـة الحقيقيـة ـ هـو أنها تجعل المرء متأرجحـاً بين رأي وآخر. لقـد فكر النـاس في أشياء كثيرة عما كان يـدور في البلقان منـذ بدايـة المأساة ، فقبل أن تبـدأ حـرب الصرب والكروات في ١٩٩١ أبـدى معظم الليبراليين في أوروبـا الغربيـة وأمريكا الشماليـة تعاطفهم ثم بعد فـوكوفار ودبـروفنيك أصبح الكروات هـم الأبطال . أما وقد بدأت الحرب البوسنية فإن أكبر ضحايا القتال وهم مسلمو البوسنة هم الذين نالوا تعاطف الناس في كل أنحاء العالم . وعندما تناحر المسلمون والكروات عـام ١٩٩٣ سـاد الخلط حتى أعـاد عنف صرب البـوسنة المتجـدد مسلمي البوسنة لوضعهم ثانية بوصفهم الطرف الذي يفترض التعاطف معه .

ولأن أغلب الناس كـانوا قليلي المعرفة فيـاضي المشاعر. لم يكن غريبـاً أن استطاع السيـاسيـون الأوروبيون والأمريكان الـذين لم يريدوا فعل شيء لـرد عدوان الصرب أن يصمدوا أمام عواطف الغضب والأسى الشعبي الـذي يهيج من وقت لآخر بعد وقوع بعض المذابح و أمرها على نطاق واسع . وعلى أية حال كان معظم السياسيين يميلون للتراخي منـذ البدايـة . وكانـت مـلاحظة بسمارك السـاخـرة حول ان أهـل البلقان «لا يستحقون حيـاة سمكة الفـرناد البحريـة السليمة من بوميرانيا» هي أشهـر عبارة عن المنطقة كتبها رجل سياسي أوروبي ذائع الصيت . وما ارتجله المستشار الحديدي ، كان متجذراً ، بصـورة أوسع ، في قناعة سبعـة أجيال من الأكاديميـة الأوروبيـة والتحليل السيـاسي . وقد سـاعد معظمهـا في تضخيم وجهـة النظر القـائلة إن يـوغسلافيـا ، بموقعها على الحدود بين العـالم الأرثوذكسي والعالم الكاثـوليكي ، وقبل ذلك بين عالم العثمانيين وهابسبرج ، هي من أساسها مكان غير مستقر، بل ربما لا يمكن إنقاذه .

ولا يبدو مهما هنـا أن هؤلاء النـاس أنفسهم الذين سمعتهم يـرددون في واشنطن وباريس وفرانكفورت هذه الحجج حول الطابع الوحشي للشخصية السلافية الجنوبية كـانـوا ، قبل سنوات قليلـة ، يستمتعـون بإجـازاتهم في تلك البـلاد السيئة البربـريـة نفسهـا . وكانـوا يشعرون بـالأمـان الكامل رغم أنهم يعتقـدون الآن أن الناس هنـاك متعصبون بالسـوراثة . في عام ١٩٨٥ كان الذهـاب إلى سـاحل إقليم اقليم دالماتيا ، إلى دوبروفنيك مثلاً ، يمثل أي شيء غير سياحة جريئة ، لقد كانت إجازة أوروبية شاملة لا تختلف عن قضاء وقت على السـاحل الإيطالي حول أنكونا وهي تقابل مباشرة مدينة

سبليت على ساحل دالماتيا على بعد مائة ميل على الجانب الآخر من الأدرياتيكي .

في عام ١٩٨٥ كان من الممكن أن يتنبأ معظم الناس ان ساحل دالماتيامن إستريا على الحدود الايطالية بطول الطريق الى دوبروفنيك ، سيلعب نفس الدور في التقدم الاقتصادي ليوغسلافيا الذي كان قد لعبه إقليم كوستاديل سول في الخمسينات في دمج أسبانيا الفاشيه في التيار الرئيسي لتطور اوروبا الغربية . ولقد ظل ممكنا الاعتقاد ، حتى اللحظة التي بدأ فيه اطلاق الرصاص ، أن يكرر التاريخ الاقتصادي نفسه ، مع امتلاء ذلك الاقليم بساحات الكرفانات والمناطق البحرية (المارينا) والأسواق الحرة وفنادق المصايف ، ومع مناظر طبيعية أجمل من ساحل ايطاليا الأدرياتيكي وقد تتفاخر ايطاليا بأجمل المدن والمنافس الوحيد كان دوبروفنيك وسبيليت ، وجزر إقليم دالماتياومناخ اقل تلوثا من الجزر اليونانية . كما يشهد إزدهار المباني على طول ساحل دالماتياوالذي امتد في الواقع الى البوسنة والهرسك حتى مدينةموستار التاريخية ، بأنه حتى في أواخر الثمانينات كانالمستثمرون راغبين في تأكيد إعتقادهو بإندماج يوغسلافيا في أوروبا بأموالهم . فعمر كثير من الفنادق على طول الأدرياتيكي والتي تستضيف الآن اللاجئين لا يزيد عن خمس سنوات . وهناك مساكن وفنادق ومناطق للألعاب البحرية نفس الامتداد بعد ان توقف انشاؤها . وبالتأكيد فقد اعتقد اليوغوسلافيون وأنفسهم أنهم سوف يزدهرون وأنهم سيفعلون ذلك من خلال صناعة السياحة .

وحتى الان مازال الشائع ان تسمع الناس في كرواتيا يقولون أنه لو توقفت الحرب ، بافتراض ان يترك الصرب كرواتيا لحالها ، فإن الامور ستكون على مايرام فسيعود السواح وكذلك سيعود الإزدهار الذي صاحبهم . وفي دوبروفنيك لا يزال يوجد بين الزخارف الباقية في الجدران رسم جداري يعبر بدقة عن ذلك الوقت وتلك التوقعات « الغربية» المسكرة . لقد خبت الكلمات الآن كما طوقتها وعتمت عليها شعارات عسكرية وسياسية مبتذله . ومعظمها يقدم مساندة متعثرة ومهزوزة لحزب يوستاشا الفاشستي أويحي ذكرى شهداء فوكوفار وأوزجيك أو ينادي بانتقام رهيب ضد الصرب ولكن هناك شعار يسترجع ما قد يكون عليه مصيردالماتيا وينادي « الجنس والماركات الألمانية ، وسيقابي» والأخيرة هي الطبق الشعبي في يوغسلافيا .

ولكن أيا كان ما تشعر به شعوب يوغسلافيا السابقة نحو أنفسهم وأيا كان ما يفعلوه دون ادراك عندما يقارنون بين حاضرهم وحياتهم السابقة وأيا كان مدى ما حل بهم وما جلبوه على أنفسهم على مدى السنوات الثلاث والنصف سنة الماضية . وغير طريقة فهمهم لكل من مصائرهم الفردية وهواياتهم كجزء من أمم ومجموعات عرقية أكبر فإنهم لم يطردوا أنفسهم من أوروبا لقد اجريت تلك العملية الحساسة على يد الأوروبيين الغربيين والأمريكيين الشماليين أنفسهم . ومع استمرار القتال بدأوا ثانية كما فعلوا على فترات منذ عهد بسمارك بالشعور بالراحة وهم يتكلمون ويفكرون في البلقان وكأنها منطقة في مكان آخر غير أوروبا ، وكأنها بالمثل شيء غير متحضر فأوروبا الحقيقية ، أوروبا التي ظلت مكانا متحضرا ، كانت بالطبع توجد على أراضي الاتحاد الأوروبي المتضمن ستة عشر عضوا بالاضافة لسويسرا وربما ، عند الحاجة ، قد تضم جمهورية التشيك « وليس سلوفاكيا» والمجر. وبإختصار ، يمكن صياغة هذا النهج في شكل القياس المنطقي التالي : « الأوروبيون لا يمكن ان يفعلوا هذه الأشياء مع بعضهم البعض ، وعلى ذلك فإن سكان يوغسلافيا السابقة لا يمكن ان يكونوا أوروبيين» .

وغني عن القول ان نظرية الأوروبية كانت دوما في أساسها أيديولوجية تعدلت جغرافيا بمفهوم كان دائما عرضة لإعادة التشكيل الدرامي ـ فكم من مرة أثناء الحرب الباردة تكلم الناس عن براغ ، وهي غرب فيينا على أنها عاصمة في « أوروبا الشرقية »؟ ـ لكن ما حدث عند نقطة ما من مذبحة البوسنة عندما تمزق كل من الفهم السياسي والقرار الإنساني بفعل ما كان يحدث من أهوال ، ظهرحديث مبني على الأفكار الأصولية العتيقة عن شخصية البلقان مصحوبا بذلك الهراء غير التاريخي عن الاحقاد الموروثة والنزوع الإقليمي للعنف. وهي قصة طالت جميع السلافيين الجنوبيين باستثناء السلوفيين خارج أوروبا . و لم يتصرف الأوروبيون على هذا النحو ـ الأوروبيون الحقيقيون ـ على آية حال وكثيرا ما سمع المرء وما زال يسمع اناساً لا يرتاحون مطلقا عند الحديث عن طبايع سكان غرب افريقيا أو سكان امريكا اللاتينية ، وادعاء أن ما يدور في البلقان رغم مأساويته ، ربما كان حتميا نظرا لتلك الاسباب الثقافية وا لتاريخية .

وخلافا للامتيازات التي اعطتهـا لهم بشرتهم البيضاء يأتي المزيـد من الادعاءات حول فهمهم للناس ، وربما ساعدت حقيقة أن البوسنيين كانوا في الاصل قوقازيين على ان ينفض الكثير من الناس الغبار عن شعـارات يوجينيـة(أي متعلقة بتحسين النسل) لم يكونوا يحلمون باستخدامها في سياقات غير اوروبية

وفي الولايـات المتحدة ترتاح الشخصيـات ذات التوجهـات الجيدة سياسيـا والذين يرتعدون حتى لمجـرد تخيل وقوع الهفوات اللفظية ضد الاقليـات العرقية لكلمات مثل العنق الأحمر و« السرعـاع البيض» وكـان شيء من نفس هـذا النمط من التصرف الاخلاقي واضحا في اسلوب حديث الناس عن يوغسلافيا السابقة . ولكن إذا كانوا قد فهموا ما اسماه الـدبلومـاسي والمؤرخ سيفيتو جـوب ذات مرقبـ« الشعـر الشعبي المتـوهج للبلقـانيين » على انـه يعبر عن الطبـائع المتأصلـة في الكـروات والبوسنيين المسلمين فالسبب في ذلك يعود نهاية الأمر إلى أن فعل ذلك أسهل من محاولة التفكير في سجلات أقل اختزالا.

و تكاد تكـون حتى الان ، تلك الهفوات القائمـة على « طبيعة » البلقانيين الـوحيدة التي يجدها النـاس مقبولـة . وفي عبارات عمليـة فإن مثل هذه الـروايات لعبت دورا مؤثرا في عقلنـة السبب في عدم بذل المزيد من الجهد لوقف الحرب في كـرواتيا أو انقاذ البوسنـة . وهي تجد تأييدا خاصـا لدى ديبلـوماسيي الأمم المتحدة الـذي يستطيعون الإدعاء بشكل عام بأنهم كانوا سيتصرفون بشكـل صحيح في يوغسـلافيا السابقة فقط لو أمكنهم تقديم بعثتهم « لحفظ السلام » كأمر ميؤس منه منذ البداية . احد مسئولي الأمم المتحدة الذي شارك في عمليات « الحماية» ، وهـو ديبلوماسي لامع كان مشاركا عن قرب عام ١٩٩١ و ١٩٩٢ في محاولـة ترتيب وقف اطلاق النار في كـروتيا والذي تم اخيرا بعد سقوط فوكوفار ، إبتسم في في ارهاق أثناء أول حوار لي معه ـ وكان ذلك قبل ان تطأ قـدمي أرض البـوسنة ـــ وحـاول الاجابة على أسئلتي حـول القصف «المجنـون» لمدينةدوبـرفـونيك القديمـة بمقـارنته بـالغيرة الزوجيـة البلقـانية . قـال : «تعرف ، يخبرك الناس انه في ريف يوغسلافيا عندما يفقد رجل المرأة التي يحبها فإنه أحيانـا يشوهها بسكين إعتقادا منـه أنه طالما لن يتملكها فـلا يجب ان يحبها شخص آخر ، فلا تتجاهل هـذا الدافع عندما تفكر في دوبروفنيك . لقد كـانت مدينة جميلة

ومحور جـذب شديـد للسيـاح . ولست متأكـدا ان بعض جنود الصرب لم تـراودهـم الفكرة نفسها « اذا لم نستطع تملكها فلندمرها إذن للكروات ذلك »

وعلى نقيض كتـابـة التقـاريـر عن البـوسنـة أو سماع الأحـاديث عن طبيعتهم المتأصلـه كشعب ، قابلت البـوسنيين أول مرة في مـركز لـلاجئين على الحدود الشرقية لبرلين صيف ١٩٩٢ . كان المعسكر يقع على طريق تحفه الاشجار حيث كانت مبانية ذات اللـون الـواحـد المزينـة ، مثل كثير مـن الطـرق المشجـرة في جمهـوريـة المانيـا الديمقراطية سابقا . بإعلانات تجارة السيارات المستعملة واللافتات الملونة المثبتة على اشجـار الـزيـزافـون للدعـايـة عن جميع الاشيـاء بـدءامن المنتجـات الإستهـلاكيـة المستحدثـة« جرب الغرب» كان شعار النوعية المحببة للسجائر الغربية ـ الى الأماكن المفتتحة حديثا لنوادي العراة والكازينوهات ومصارعة السيدات .

لقد ذهبت الى يوغسلافيا مرات عـدة ولكن الاماكن التي أدعي معرفتها وبطريقة عابرة أيضا ، كانت الجمهورية الاتحادية سلوفينيا في اقصى الشمال وكرواتيا وبخاصة المنتجعات بين زادار ودوبروفنيك على طوال ساحل دالماتيا ولم يكن ذلك بالكثير . وحتى في الستينات عندما بدأ نظام تيتو يظهـر بوقاحة زائدة الروح القمعية لجيرانه في الكتلـة الشرقية ، فإن سلـوفينيـا شعرت أنها اقـرب للنمسا المجاورة ـ التي انتشرت النمسا «البعيدة» في جنوب نهر إنـز كما تقول النكته التي انتشرت على جانبي الحدود في جراز وفي لـوبليانا تقول لست متأكـدا أني اعتقدت في ذلك الكيان الإكثر شـؤما والأميل لـلأجنبيـة المعـروف «بالبلقـان »نـاهيك عن ذهـابي الى مثل هـذا المكـان . وبالطبع عرفته من الكتب ومن تقارير أتباع تيتو بل وأساسا من تاريخ الأحداث التي ادت الى اغتيـال الـدوق فرانـزفـرديـنـاند في سرايـيفـو عـام ١٩١٤ وكـذلك من كتب الرحـلات العظيمة لفترة مـابين الحربين مثل كتاب ريبيكـاويست « الحمل الأسود والنسرالرمادي » .

وفيما يخص البوسنة ، فكل مـا كان في رأسي هو البقايا المألوفـة وانصاف الحقائق والكليشيهات والمعلومـات المضللة التي يتشارك بها المثقفون من النـاس ، حول هذا الموضـوع ، أو التي يمكن ان تجدهـا في أي دليل سفـر تقليـدي بـدايـة من أوائل الستينات وحتى الثمانينات والتي يمكن الآن الحصول عليها في أحد مكاتب السياحة

وسط سرايبفو. والـذي ظلت ابوابه مفتـوحة رغم الحرب . من هذه الكتب المعـروضة هناك قد يكـون الزائر قد عرف ـ طـالما استوعب فكرة ان الحقيقة العرقيـة والقومية في يوغسلافيـا قد حلت نهائيا على يد تيتو وأن «الأخـوة والوحدة قد سادتـا » أن البوسنة ممتلئـة بالمسلمين وأنـه بالرغم من ان البوسنـة والهرسك مثل صربيا والجبل الأسـود ومقـدونيـا ، كانـت جزءا من الأمبراطـوريـة العثمانيـة حتى الثلث الأخير من القـرن العشرين ، فقد كـان المسلمون من أصل سـلافي أكثر منهم أتـراك أو ألبانيين . وان هـؤلاء المسلمين لم يهاجـروا الى المنطقـة ولكن تحولـوا الى الاسـلام ليس من المسيحية الارثذوكية بل من البـوجوميلية ـ وهي بدعة من العصـور الوسطى يقال انها إزدهرت في كل من البوسنة وعلى طـول ساحل دالماتيا ومناطق الهرسك . كانـت شـواهد قبور البوجـوميلين ـ مـاأسهل ان تكتب مثل كتيبات السيـاحة ـ عـادة ما تـذكر في نفس اللحظة مع اثنين من معالم البلد السياحية ـ الجسر العثماني القديم على نهر نيريتيكا في موستارأو«ستـاري موست» وجسر آخر أعيدت تسميته بـاسم جسر « برنسيب» بعد الحرب العالمية الأولى لتكـريم الرجل الذي تسبب فيها كما تقـول النكتة المحلية . وأن تعرف ما يعرفه السياح أو ما يود السكان المحليون أن يقولوه للسيـاح ، فستكون قد تعلمت التاريخ كما يتعلمه الأطفال . فعندمـا يحاول شخص تعلم لغة فعليه أن يبدأ بتلك الأسـاسيات المألوفـة لمواطن في سن الـرابعة . كـذلك تكون متطلبـات دراسة الثقـافات الجديـدة . لذلك عنـدمـا بدأت قضـاء الـوقت في الوسنـة ، سرعان مـا اكتشفت الأمر الواضح وهـو انه حتى في فترة حكم تيتـو لم تكن قضية القـومية قـد حلت ربما يكون تيتـو قد فرض شعـار « الأخوة والوحـدة» على جميع شعوب الاتحاد ، ولكن كما اشـار سفيتو جوب فيان «درس التاريخ هـذا لم ينجح كما كان متـوقعا . فقد ادعى القوميون من كل مجموعة(الصرب والكروات والمسلمون الألبان)أنه قد بـولغ في السلب والنهب من جـانبهم في حين تم التهـوين من شأن السلب والنهب من جانب العدو» .

تـواجدت في كل مكـان صراعات بـدون حل مع حكـايات متبـاينة حتى عن اكثـر الأحداث مباشرة . وليس فقط الموضـوعات المأساوية كما في الجدل الـدائر حول عدد القتلى من الصرب في معسكـر اليـوستاشـا لـلاعتقـال في جاسينـوفـاك . وحتى على

مستوى المواد الأرشيفية فقد كان من الصعب إيجاد الحقيقة . ففي البوسنة على سبيل المثال ، كانت هناك مسألة أصول البوجوميل الملحدين . لقد افترضت دائما أن تفسير تحولهم يكمن في كونهم ملحدين قبلوا الاسلام أملا في الحماية من الجيوش الصليبية للأرثوذكسية المسيحية واليونانيين والرومانيين على حد سواء على أن البعض قال ان الامر ليس كذلك . لقد اختفت البوجوموليه تماما فترة وصول العثمانيين وبالنسبة لغريب مثلي فإن مجرد القلق حول مثل هذه المسائل يؤكد تعليقات الكاتب اليوغسلافي الكبير دانيلوكيس عن البوسنة قبل الحرب والذي كانت له افكار اخرى اكثر تشويقا . فقد كتب عن البوسنة يقول : « تلك الدولة الغريبة في قلب أوروبا» . ومع ذلك فعلى أساس قراءات عن أحداث ملغزة بنفس الدرجة حدثت قبل ذلك بمئات السنين هاهم الناس يقتلون ويقتلون في البوسنة . وقد تكون الأحداث نفسها قد طواها النسيان أو أن ذكراها عولجت ببراعة من قبل مثيري الرعاع القوميين المعاصرين ، أما في البوسنة فحتى عندما اختفى كل شيء فإن أمرا واحدا تبقى : الحقد ، كما تقول النكتة القديمة عن شمال أيرلنده .

لم أحضر الى معسكر اللاجئين في ذلك اليوم لأناقش تاريخ البلقان . فما أملت ان أراه هو كيفية تعامل المهاجرين من العالم غير الأبيض والإمبراطورية السوفيتية السابقة مع بعضهم البعض ، والتي كانت في أساسها غير طيبة . فقد كان في المعسكر ، مثل كثير من المعسكرات التي ذهبت اليها خلال الشهور القليلة الماضية ، مراتب عنصرية وجغرافية . فقد كان الشرق أوسطيون يزدرون الأفارقة والأوروبيون يزدرون الشرق أوسطيين وكانت كل من المجموعتين تخاف الغجر وتحتقرهم صراحة ويتكلمون بمرارة عن مجرد مشاركتهم لهم ثكنات الجيش الوطني لألمانيا الشرقية المتبقية حيث تم أسكان الجميع . ومع ذلك ، فقد سجل المسؤولون الذين يديرون المعسكرفي تقاريرهم ان معظم السكان من أي جهة جاءوا ، سرعان ما تعلموا ان يندمجوا بسهولة مع بعضهم البعض في الأمسيات (كان يسمح لهم بالخروج أثناء النهار) . ثم يضيفون بسرعة أن هذه المصادقة لم تمتد الى الغجر .

ذكر لي أحد مديري المعسكر أن عائلة واحدة ليست من الغجر لم تتكيف مع هذا النمط ، والمدير شخص ودود من شرق برلين مشيته وحركاته تشبه كثيرا مدربا لكرة

القدم في مدرسة أميركية بمدينة صغيرة . ونحن في طريقنا الى المجموعة عهدته استعرض ذلك المزيج الغريب من النفور والقلق الذي قد يقال أنه يميز نظرة دولته نحو وجودهم في ألمانيا . قال ان تلك الاسرة غير الاجتماعية موضوع المناقشة كانت مسلمة . وربما لأنه لاحظ تعبير الدهشة لدي فقد اضاف بسرعة أنهم مسلمون من أوروبا ، من البوسنة « إنهم ليسوا من ذلك النوع من المسلمين الذين تتصورهم . فهم لا يلبسون غطاء الرأس ولا يصلون طوال النهار . في واقع الأمر هم أوروبيون ، مجردأوربيين عاديين» .

بعد ان اكملنا جولتنا في المعسكر ، اخذني لرؤيتهم . اتضح ان زيارتي توافقت مع زيارة مجموعة من التلاميذ من احدى الضواحي ببرلين الغربية والتي كانت اكثر اذدهارا قبل عهد التوحيد ، وقام مدير المعسكر بضم الجولتين . كان التلاميذ قد جمعوا الألعاب لأطفال الاجئين وحملوها ربما في خجل وهم يسيرون في عنابر النوم . وقد اصرت معلمتهم ، رغم ان عدم رغبتها في تركي للتحدث مع التلاميذعهدتها في غير حضورها جعلني اتشكك في ان الزيارة والهدايا كانت إختيارية كما تدعي ، على القول إن«كان هذا من اقتراحهم» وأخيرا خلصنا أنفسنا ، كانت المعلمة لا تزال تحاضرأطفالها عن «جمال» الثقافة الغجرية ونحن نبتعد عم مجال السمع .. واتجهنا الى المبنى الذي تقيم فيه العائلة البوسنية .

كانت العائلة مكونة من سبعة افراد ، خمسة كبار وطفلين و تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة والاربعين وكلهم في غرفة واحدة . كانوا جميعا في هيئة معقولة جسمانيا ونفسيا ما عدا شابة في منتصف العشرينات كانت محمرة العنين وهزيلة . كانت ملابسهم رثة ولكن بالتأكيد ليست اكثر رثاثة ممن يراهم المرء في ذلك الجزء من برلين الشرقية المتاخم للمعسكر. ومثل اللاجئين في العالم كله ، بدا انهم جميعا يدخنون باستمرار مع الاختلاف المضحك بالنسبة لي في أنه على عكس اللاجئين في أماكن كثيرة من العالم الثالث ، كانت السيدات يدخن بشراهة قد تفوق الرجال .

وأيا كانت دوافعه فقد كان مدير المعسكر على حق في الواقع عندما قال ان هؤلاء الناس كانوا يتصرفون بغرابة كلاجئين . فعلى النقيض من السري لانكيين والأكراد والصوماليين بل وبعض البولنديين والرومانيين من غير الغجر الذين تحدثت اليهم

في ذلك اليوم (لم يتكلم اي من بالغي الغجر الذين قابلتهم)، فقد كان مظهرهم كله يفتقر إلى السلبية السائدة بين اللاجئين في معسكرات الايواء . فقد ظهر انزعاج واضح لم يستطع مدير المعسكر إخفاءه عندما لم يظهر أي من اللاجئين أدنى إحترام ولو مفتعل . فقد حلقوا فينا في تعال عند دخولنا وبعد ان أشاروا بالجلوس . . وأوسعوا مكان لنا بدأوا بالحديث عن عدد كبير من الشكاوى ـ للهجة اقرب الى نزلاء يشتكون إلى مدير الفندق أو مشرف بناية سكنية منها للهجة أناس فقدوا كل شيء يمتلكونه وهربوا بجلدهم من حرب تلتهم بلدهم . فقد قالت الشابة حمراء العينين : « لم تعمل التدفئة الليلة الماضية أين يمكن لطفلتنا ان تلعب هنا؟ »كما تساءلت أكبر السيدات « ومتى تبدأ الدراسة؟ »

أما الرجال فقالوا القليل كما يحدث غالبا عندما يكون المسؤول رجلا كذلك، ونتيجة لذلك فليس هناك أدنى احتمال في مشاجرة تؤدي إلى العنف الجسدي . ولكنهم كانوا يومئون مؤكدين ماتقوله النساء . وعندما تصغي إليهم يتملكك الإحساس بأنه وإن كان هؤلاء البوسنيون متواجدين هناك في تلك الغرفة الرثة في المعسكر، فإنهم لم يجتازوا نفسيا بعد الرحلة من وطنهم إلى منفي محفوف بالمخاطر. هو ثقة الطبقة المتوسطة، وهو شعوربالاعتداد بالنفس إستطاعوا حتى الان الإبقاء عليه في وجه خسائرهم المادية ، في وقت يمكن ان تنتزع منهم (لم أر هذه ثانية رغم أنني حاولت بعد سنة إعادة الاتصال بهم) ، لم يكن ذلك ذخرا لهم بأي حال فعندما سألني احد الرجال « كيف تتوقعون ان نعيش هنا ؟ » ذكرني قوله بأن التنشئة في الطبقة المتوسطة لاتنطوي على أدنى إستعداد لحياة اللاجئين .

لقد كان مدير المعسكر على حق، هكذا فكرت وأنا أنظر اليه . لقد بدا انهم غرباء على وضع المعسكربالنسبة لأنفسهم بمثل ما كانوا بالنسبة للمسؤول الألماني ولي . . وقال الرجل الأكبر سنا في هدوء وكأنه قرأ أفكاري : لا يجب ان نتواجد بين هؤلاء الأخرين » فقاطعه مدير المعسكر ردا على ذلك مستجمعا ما بدا بالنسبة لمسؤول سابق في جمهوريةألمانيا الديمقراطية ألفة مستحدثة مغلفة ببلاغيات التسامح العرقي والتعددية الثقافية : « نحن جميعا آدميون كما تعلم » لكن البوسني لم يتأثر بهذه الدغدغات من« قصيدة للفرح» فقال في سخرية ثقيلة « أنا لا اقول أنني ضد

الآخرين هنا . أنني فقط أقول أنني وعائلتي لا ننتمي لهذا المعسكر، يجب ان تعرفوا ، ورفع صوته « ان ما حدث لنافي البـوسنة ما كان يجب أن يحدث. هـذه أوروبا. هذا عام ١٩٩٢ لقد كنا نعيش مثلكم وليس مثلما عاش المقيمون هنا قبل ان يصلوا الى المانيا » وأشار بذراعه نحو قوس يطوق كل المعسكر « هؤلاء الآخرون ، نعم ، انني أرثي لهم ولكن ما حدث لهم مأساة اخرى. أما ما حدث لنا . . فهذه مأساتكم مثلما هي مأساتنا وحملق مباشرة في مدير المعسكر وفي.

أومأ مدير المعسكر قائلا في نبرة حكيمة«ان فقدان أي وطن مأساة فظيعة» ثم خطا بسرعة خارج الحجرة وتركني وحدي، كما خططنـا ، لأتحدث مع البوسنيين. إستمر الصمت طويلا كما يحدث غـالبا في مثل هذا المواقف فهناك دائما شيء مخجل عنـد القيام بمثل هـذه اللقاءات ، إنه الشعور بأنك تسترق النظر وأنك تقترب من خسـائر النـاس : ، متى غـادرتم؟ مـاذا حـدث لعـائلتكم ؟ كـم عـدد قتلاكم ؟ والمغتصبات؟ والمعـذبين؟ لم تكن هـذه الأسئلة على نفس طـريقـة النكتـه المريرة للصحفي البريطاني الـذي وصل الى مسرح الفظائع قـائلا « هل اغتصبت إحداكن وتتكلم الانجليـزيـة؟» ولكن الـوضع كـان قـريباً من ذلك، ويسجل المرء القصـة الرهيبـة وبعد انتهاء المقـابلة ينتقل الى الاخرى ـ طـريقة لترضية النفس بعـد ان يفرغ الاجئون لك مافي أحشـائهم أو على الأقل بقـدر ما تـريـد لقصتك ـ أو ينهيهـا المرء مكتفياً بما قيل ذلك اليوم . ثم يذهب الى حانة أو الى بار الفندق.

يرتبط هذا القلـق بالحدود . وما جعل البوسنيين يبدون مختلفين لم يكـن بالتأكيد وطنهم ـ فاللاجئون جميعا أصبحوا ظاهرة مألوفة مع نهاية هذا القرن ـ ولكني ادركت بأسى حقيقة أنني كنت أخاطب أوروبيين . في باديء الأمر كنت غير راغب في قبول تلك الحقيقـة . فلـدي ، مثلي في ذلك مثل مـديـر المعسكـر ، قنـاعتي الليبراليـه . فـوجدت نفسي غير متأكـد مما أقـوله . إنتهت فترة الصمت . وفي النهـاية ، كسرته السيدة البوسنية الأكبر سـنا : « هل تريد شيئا تأكله ؟

سألت بنبرة المضيفـة التي تحاول ضم ضيف غير اجتماعي الى محادثـة عـامـة . فأومات موافقا وقطعت لي شريحة من السجق الناشف وقطعة كبيرة من الخبز الأبيض وقطعتين من البرتقـال متوقفـة قبل كل عمليـة لمسح حـد سكين صغيرة للجيش

السويسري بجانب من الورق الشمعي كانت قطعة اللحم ملفوفة فيه . بعد أول قضمة أومأت العجوز في سعادة . وبعد ذلك بدأ الرجال يتكلمون في اقتضاب أول الأمر في طوفان عما حدث في البوسنة و حولهم الى لاجئين . واستخدموا كلمات مثل « التطهير العرقي » و تحدثوا عن مواجهة القناصة ونيران المدفعية والقذائف الصاروخية بألفة لم أكن أتوقع أن أسمعها من أي أوروبي لم يكن محاربا أوعاملا في قوات الاغاثة .

وبعد مرور عامين مازالت وجوههم عالقة في ذهني . وفي مفكرتي وجدت انني كتبت انهم كانوا مسلمين تم تطهيرهم عرقيا من مدينة سانكي موست شمالي البوسنة وأنهم اتخذوا طريقا دائريا الى ألمانيا ، وأنهم إذا ما كانوا قد ألقوا اللوم على صرب البوسنة فإنهم يدينون ببقائهم أحياء لصديق للعائلة يخدم في قوات صرب البوسنة نفسهاقالت السيدة الأكبر سنا وتعبير الحب على قسماتها أنه قد فعل كل ما يمكن لحمايتهم . وكما تقول القصص البوسنية فإن هذا الشخص أفضل من الكثيرين . وبينما كانوا يتحدثون عن الاغتصاب والجرائم فإنهم لم يخوضوا هذه التجارب أو حتى شاهدوها بأنفسهم . وأنه كان معهم ماركات كافية للسفر نحو المانيا بدلا من أن يجدوا أنفسهم ، مثل كثيرين من منطقتهم في شمال البوسنة ، لاجئين في كرواتيا حيث الحياة أصعب بكثير من داخل المعسكرات في ألمانيا . لقد فتنوني هم وقصصهم بشكل لم استطع تفسيره وقتها وبعد وقت قصير ، وبأقوى شعور بالالتزام عرفته ككاتب ، ولكن بإحساس غير واضح بما سأفعله عندما أذهب الى هناك ، نجحت في تأمين مأمورية من مجلة أمريكية للكتابة عن البوسنة وحجزت رحلة الى زغرب .

الفصل الثالث

كانت أول مفاجأة عن زغب، بالنسبة لي كزائر أجنبي يتوقع أن يصل إلى مدينة في حالةحرب، هو أنها بدت لي كأى مدينة أوروبية غربية هادئة. فلا توجدميان عامة أمامها أكياس الرمل ولا بنادق منصوبة على أسطح المباني التجارية ولا نقاط تفتيش ثابتة للشرطة بعد أن تعبر محيط مطار زغرب. والشعور السريع الوحيد بأنك لم تصل إلى ركن منعزل من أوروبا الغربية يكمن في حقيقة أنه لا يوجد عمال وافدون غير بيض في أي مكان. فعلى عكس فرنسا أو ألمانيا فإن كرواتيا، بصرف النظر عن العجز، متجانسة عنصريا.ً وفيما عدا ذلك فإن المفاجأة أنه ليس هناك مفاجأة. فمن الغريب بمكان أن تصل إلى فرانكفورت أو زيورخ وتكتشف كم أنك قريب من الحرب في يوغسلافيا السابقة. ولكن الأغرب أن تصل إلى زغرب نفسها والتي تبعد أقل من ٣٥ كيلو متراً من خط النار ومع ذلك لا يكون لديك إحساس حقيقي بالتعبئة العامة ناهيك عن الحرب. فالمباني السكنية على مشارف زغرب تشبه كثيراً أحياء الطبقة العاملة في أي مدينة أوروبية بينما، وقبل الوصول إلى وسط المدينة، يمر المرء خلال أراضي تتناثر فيها المواقع الإنشائية والمباني التجارية الجديدة كما أن اللافتات بطول الطريق تعلن عن أحدث البضائع الاستهلاكية الغربية - كنزات بنيتون والسيارات الألمانية وما شابه ذلك. إنها تبعث برسالة واضحة أنه حتى وإن لم تكن مستويات الرخاء الأوروبي الغربي قد تيسرت بعد، فلدى الكرواتيين كل الأسباب لتوقع بدء التحرك نحوها في المستقبل غير البعيد.

في وسط زغرب التاريخي تتضح الرسالة نفسها رغم أنها أقل استهلاكية. فلايملك الزائر تحت ظل معمار القرن التاسع عشر الأنيق بألوانه الصفراء والرمادية والزرقاء أن يشك حقيقة في أعمق مفاخر كرواتيا وهي إنتماؤها للغرب. فرغم أنها لعهد قريب كانت جزءاً من الدولة المعروفة بيوغسلافيا، كما يقول لك أهل زغرب، فإن التشارك الثقافي - لكرواتيا مع أي من دول البلقان عموماً وصربياً بصفة خاصة،

بأقل بكثير مما تشارك به مع ماضيها الهابسبرجي أو مستقبل أوروبا الغربية. ومن أكثر اللافتات شيوعاً على السيارات ماتشير إلى هذا التطابق مع عالم الاتحاد الأوروبي. فالحروف HR وهي اختصار للكرواتيا (هرفاتسكا) مكتوبة على خلية زرقاء ومحاطة بالإثني عشرة نجمة ذهبية للاتحاد الأوروبي. وبالطبع، فإن انتشار هذه اللافتات يدل على التمنيات الكرواتية أكثر مما يدل على وضع الدولة الحقيقي. ومع ذلك فمن الشائع أن تسمع حتى المثقفين في زغرب يصرون على أنه إذا توقف القتال فقد يصبح الحلم حقيقة.

في زغرب يقدمون الكابتشينو أكثر مما يقدمون القهوة التركية في المقاهي المطلة على ميدان بان يلاسيك، وكما يحدث غالبا في النمسا، فإن الجلوس على المائدة لتناول وجبة في زغرب يبدو مثل تمهيد طويل للحلوى. على أن هذه التفاصيل الصغيرة عن الحياة ليست مجرد حقائق عن الحياة فهي تحمل في داخلها طابعاً ايدولوجياً ففي رغوة فنجان القهوة وفي كريمة الخباز توجد أصداء رمزية بالنسبة لكثيرمن الناس قد تبدو غير متناسبة مع أهميتها الظاهرية. فالمرء يتوقع أن يتكلم الناس عن مشكلات كرواتيا الاقتصادية أو عن الحرب وبدلاً من ذلك فغالبا ما يتكلمون عن حياتهم العادية متمثلة في أي نوع من القهوة يفضلون. ولأن تذكير المرء أن المقاهي تقدم الكابتشينو ليس كافياً، فالكرواتيون يركزون أيضاً على إخبار الآخرين مراراً وتكراراً بأنهم يفعلون ذلك «تماما كما في مقهى في فيينا».

إن هذا التقديم لكرواتيا كدولة منتمية بحق إلى وسط أوروبا أكثر من البلقان هو جزء من الدعاية الرسمية بمثل ما هو نوع من المفخرة الشعبية. يقول مقال في مجلة الخطوط الداخلية الكرواتية « اليوم بما يتجاوز المليون نسمة فإن زغرب في نواح كثيرة مدينة أوروبية». وفي مكان آخر من نفس المجلة في قسم عنوانه «كرواتيا... » يزود الزائر بمعلومات تقول أنه «في المناطق الشمالية فإن أسلوب الحياة هو على نمط أوروبا الوسطى بينما يسود في نمط البحر الأبيض المتوسط.. » والرسالة الحقيقية هنا تهتم بما ليست عليه كرواتيا بمثل ما تهتم بما هي عليه، كما أن تلك الرسالة تعني أنه لا صلة لكرواتيا بالبلقان تاريخياً أو ثقافياً.

وهناك في هذه التأكيدات، سواء فيما يخص عضوية الاتحاد الأوروبي أو

السياحة، أو طراز زغرب المعماري، هناك رسالة أعمق تذكر بأكثر من الفخر المحلي البسيط أو روح الدفاعية الإقليمية. فقد كانت يوغسلافيا برغم كل معاناتها، دولة كبيرة بينما لم تكن كرواتيا كذلك. وتتمثل تلك الحقائق أمام الكرواتيين بوسائل واضحة من أسعار البضائع المتزايدة في المحلات إلى صعوبة السفر خارج البلاد. حيث يلزمهم تأشيرات. . . دخول للسفر الآن (عندما كانوا يحملون جوازات سفر يوغسلافية كانت معظم دول أوروبا الغربية تسمح بدخولهم بدون تأشيرات)، وحتى عندما يحصلون على التأشيرة فمع وضع اقتصاد الدولة فإن القليلين هم الذين يستطيعون السفر للخارج. لقد إختفت السياحة التي اعتمد عليها اقتصاد كرواتيا قبل الحرب بشكل كبير. فعلى ساحل والمانيا من زارار حتى دوبروفنيك لم يستطع الزبائن الذين يدفعون للفنادق أن ينزلوا حتى في أفضل الفنادق، على أي حال، لأن حكومة زغرب طلبت من أصحاب الفنادق أن يستوعبوا عشرات الآلاف من اللاجئين من كل من مناطق كرواتيا التي احتلها صرب البوسنة. وفي زغرب نفسها فإن أضخم فنادق المدينة (انتركونتيننتال) وهو برج كئيب شيد رغم إحتجاجات أهل زغرب ذوي العقول المعمارية في منتصف الثمانينات توقعاً لمستقبل المدينة كمركز تجاري على الطراز الغربي، بدأ يستضيف بشكل رئيسي مسؤولي الأمم المتحدة العسكريين والمدنيين عام ١٩٩٢ وهم يحصلون على خصم كبير. يلبس عاملوا انتركونتنتال زياً باللون الأخضر الذهبي مأخوذاً مباشرة من مسرحية هزلية في فيينا، ولكن لا يبدو شيء هزلي فيما يتعلق بأطقم الطيران الفرنسيين والانجليز أو المسؤولين المدنيين من قوات الحماية ومكتب مبعوث الأمم المتحدة للاجئين، الذين يدخلون ويخرجون من أروقة الفندق مرتدين غالباً سترات المدفعية المضادة للطائرات في لون الأمم المتحدة الأزرق حاملين خوذاتهم البيضاء تحت إبطهم.

يدرك معظم الكرواتيين المصاعب التي يواجهونها مهما كانوا قوميين ومهما كانوا غير مكترثين بمناقشة الزائر عما يدور في واقع الأمر. فسلوكهم نحو الماضي، على أي حال، يكاد يكون مربكاً مثل سلوكهم نحو الحاضر والمستقبل. إن التناقضات كثيرة. فمن الشائع أن تسمع الناس يتكلمون عن مدى صعوبة الوضع الحالي عليهم اقتصاديا. فعلى مأدبة عشاء في إحدى زياراتي الأولى لزغرب قال لي جامعي كرواتي

رفيع ، يعمل مستشاراً غير رسمي في حكومة توديمان منذ ١٩٩١ ، قال« قبل الحرب كنت أملك منزلاً على ساحل دالماتيا قرب دوبروفنيك وسيارتين ومدخرات كبيرة بالمارك. أما الآن فقد دمر منزلي جزئياً في القصف ولم يتم إزالة الألغام من بعض الأرض حوله وقد جمدت الحسابات البنكية بالعملة الأجنبية لكل شخص. إنني لا ألوم الحكومة - ولكن هكذا تسير الأمور إنها في الواقع صعبة جداً علينا».

ورغم ذلك فبعد لحظات قليلة كان يصر على أن حياته كانت أكثر بؤساً في يوغسلافيا قبل الحرب ، فقد قال لي «لم نكن نستطيع العيش بنفس الأسلوب . كانت حياتنا لا تطاق . فقد كان الصرب يسيطرون على كل شيء . لم نكن أحراراً والأدهى من ذلك فقد بدا أننا لن نكون أحراراً أبداً ، فقد أخذ تيتو التطلعات التاريخية للشعب الكرواتي في الاستقلال . وكان هذا سيئاً للغاية . ولكن على الأقل فقد أعطانا تيتو قليلاً من فرصة التنفس . وعندما أمسك ميلوسيفتس بالسلطة في بلجراد وبدأ في تحويل الاتحاد اليوغسلافي إلى دولة متمركزة في بلجراد ، فقد أصبح من غير المتصور الإستمرار في بقاء كرواتيا جزءاً من يوغسلافيا ، وربما كان الأمر دائما كذلك . أنني أعلم أن بعض الناس هنا كانوا يشعرون حتى النهاية أنهم يوغسلافيون ، بل كذلك أشعر أنا أحياناً . ولكني كنت أشعر دائما أيضاً بأني كرواتي أولاً وأخيراً».

إذا كان الماضي مستحيلاً من الناحية السياسية والحاضر غير محتمل مادياً واقتصادياً فلم يتبق إذن سوى المستقبل فقط وقد استمر معظم الكرواتيين في الأمل بأوقات أفضل . وكانت هناك لحظات بدا فيها مثل هذا التفاؤل يقترب من مستوى الخيال . فعلى سبيل المثال ، وفي يناير ١٩٩٣ ، برر الرئيس توديمان هجوماً عسكرياً كرواتياً في دالماتيا استعادت به قواته ثانية مطار زارار من صرب كراينا وكذلك الموقع على جسر مالسينيكا المدمر - وهو حلقة حيوية في الطريق الرئيسي الذي كان من قبل الحرب يربط بين زغرب ودوبروفنيك - بإعلانه أن الهجوم كان ضرورياً من أجل الموسم السياحي الصيفي المقبل ، وكأن دوبروفنيك ، والتي مازالت مشارفها ملغمة ، ما فتئت مقصداً يتوق لزيارته المرتاد الألماني أو الهولندي العادي . ومع ذلك فقد أكد توديمان أنه سيتم بناء الجسر قبل الصيف . وللترويج لخطته وتنبأ على نحو يستحضر للأسف أصداء شعار هتلر «ألف عام للرايخ» ، فقد واصل حديثه مدعيا أن الجسر

سيعيش «ألف عام».

لكن هذه الصور الوردية لمستقبل كرواتيا التي قدمها توديان في خطبه لا تتفق مع الـواقع. كانت بعض مناطق الدولـة غنيـة نسبياً. ففي إيستريـا، وهي منتجع يقع شمال غرب كرواتيا بين مدينة ريكا وحدود سلوفينيا، بـدأ السياح في العودة بأعداد كبيرة. ولكن إيستريـا كانت آمنـة من الحرب بشكل كبير. وكانت قد بدأت تشهد إحياء السياحة في فترة ما قبل الحرب في ربيع ١٩٩٣. كذلك ظلت الأمـور محتملة نسبيـاً في زغرب. ولكن حتى في العـاصمـة، فإن حياة اللاحـرب واللاسلم كـانت صعبة وتزداد صعوبة باستمرار على معظم النـاس. فالمتاجر مملوءة بالبضائع ولكن يمكن تبين وضع المشترين من شراء ربع رغيف من السلال المملوءة بالخبز. أما الخبز الأسمر، والذي مازال أرخص والمدعـوم من الحكومـة الكرواتية، فيتـوفر في المخابز فقط في ساعات الصباح الأولى قبل أن تفتح المحلات أبوابها. وتتشكل الطوابير عند الفجر وتختفي عند السابعة. وقد يصـادف رجل أعمال أجنبي يقوم برياضة المشي في الصباح الباكر مثل هذه الطوابير مثلما قد يفعل شخص عائد إلى بيته بعد قضاء ليلة في سرير شخص آخر. فيما عـدا هـذا فمن الممكن قضـاء وقت طـويل في زغـرب متنقلين في سيـارات تاكسي مـرسيدس جيدة بين المبـاني الحكومية وأبراج المكـاتب وفندق «اسبلنديد» الراقي (وهو الملتقى المفضل للصحفيين الأجانب) دون استيعاب للمصـاعب التي يمـر بها النـاس في حياتهم اليوميـة. نـاهيك عن حقيقـة أن خط المواجهة الأول يبعد حوالي خمسة وثلاثين كيلو متراً.

على أن بعض أوجه القصـور تبدو اكثر وضوحا فالصيـدليات لم تعمل بشكل سليم لمدة طويلة حتى في زغرب. ففي عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤ وبعد وقت طويل من إنتهاء الحرب الصربية والكـرواتية، كـان مألوفـاً أن تسأل عن شيء عادي مثل حبـوب منع الإسهال فيقال بأنها ناقصة ولا يعرف أحـد متى تتوافر. ومع ذلك فإن زغرب في أسوأ حالاتها ليست أدنى من مدن كثيرة أخـرى في وسط وشرق أوروبا بما فيها معظم المدن في ألمانيا الشرقيـة السابقـة. كما أن الهوة بين الفقراء والأغنيـاء أقل وضـوحـاً بكثير عن موسكو مثلاً أو حتى وارسو والشوارع نظيفة ومعظم الناس مهندمين، وبينما يغضب سكان زغـرب من وجود المتسـولين والشحاذين في شـوارعهم ــ كما قالت لي الكـاتبة

الكرواتية سلافينكا دراكيوليتش وهي تمديدها إلى ورقة نقدية لتعطيها الزوجين مسنين إقتربا منا للاستجداء «لسنا متعودين على هذا ـ فحتى خلال أسوأ فترات التقشف الإقتصادي والبطالة الجماعية فقد كان عددهم منخفضاً حسب معدلات أوروبا الغربية ، ناهيك عن المعدلات الأمريكية .

لذلك كله تظل مخاوف زغرب ليست فقط صعبة التمييز بل متناقضة داخلياً . فكرواتيا ليست دولة بوليسية كما أنها ليست دولة مفتوحة ديمقراطياً كذلك . فهناك ضغط هائل على الاعلام وأماكن العمل لتتوافق مع الأوضاع . وأية معارضة لسياسات حكومة توديمان يجري استنكارها في الصحافة الحكومية على أنها أقرب إلى الخيانة العظمى تشويه لصورة الوطن في الخارج بتحريك من أعداء كرواتيا . وقضية صورة الدولة مسألة محورية ، فلا ينتهي الجدل في الدوائر الحكومية حول كيفية تحسينها . وقبل أن يبدأ الألمان في الإنضمام إلى القوى العظمى الأخرى في ممارسة الضغط عليهم كان الكرواتيون أقل قلقاً . وقد لخص كتاب يسرد مشاركة الألمان في دفع المجتمع الأوروبي للاعتراف بكرواتيا المزاج عام ١٩٩٣ في زغرب الرسمية عنوان الكتاب وهو كتاب رائج : «بون : خط كرواتيا الثاني» . ولكن عندما اتضح في ألمانيا مدى إسهام الكروات والصرب في تقطيع أوصال البوسنة وأصبحت بون غير متعاطفة بشكل متزايد مع نظرة الكروات ، فقد أصبح المزاج في زغرب دفاعياً وتآمرياً . كان الحديث يتزايد بشكل كبير عن أعداء كرواتيا الكثيرين في الخارج . وعبر عن الكثيرين مسؤول حكومي رفيع عندما طالب الكرواتيين «بالعمل معا لرسم صورة إيجابية لكرواتيا في العالم» وبالطبع فإن الصورة التي كانت في ذهنه تمثل كرواتيا البراءة ، والضحية ، والفضيلة .

في هذا الجو مما يمكن اعتباره نوعاً من الحكم العرفي اللغوي ، فإن المعارضة اللفظية العلنية كمقابل لكلمات التذمر في المقهى أو الشكوى للزوار ، بالنسبة انطوت على مخاطرة حقيقية للمواطنين الكرواتيين وقد أغلقت معظم وسائل الإعلام المستقلة أو وضعت في أيدي صحفيين . . موالين لحزب توديمان . وفي أقصى حريتها نادراً ما تقترب الصحافة الكرواتية من الموقف الإنتقادي الشائع في الإعلام المطبوع في بلجراد الدكتاتورية . فمهاجمة الحكومة بعنف كان يؤدي بالذكور في كرواتيا بين

سن ١٨ و٥٠ إلى الاستدعاء فجأة للخدمة العسكرية . وقد حدث هذا لفيكتور ايفانيتش رئيس تحرير فيرال تريبيون الأسبوعية الساخرة المعارضة في أوائل يناير ١٩٩٤ . وبعد قضاء ثلاثة أسابيع من التدريب سمح له فجأة بالعودة للمنزل مع تحذير بإمكان استدعائه . . . وإلحاق زملائه في الجريدة بالخدمة العسكرية في أية لحظة . وكانت الرسالة واضحة .

وطوال الحرب فهم كثير من المتحضرين المهنيين الكروات، وليس فقط المتورطين في نشاطات ومعارضة، التعبئة العسكرية (العامة) على أنها التهديد المعلق فوق رؤوسهم إذا لم يلتزموا بخط الحزب . وقد قال لي طبيب شاب من زغرب: «لا تضحك على نفسك فقد أكون مع الموجه الآن ولكن حركة واحدة خاطئة وأجدني أعمل في مستشفى ميداني في وسط البوسنة . إنني لا أبالي بالبوليس السري يدق بابي بعنف في منتصف الليل . بل أخاف من الموظف الذي يدق الباب برفق بعد الظهر ليقدم لي أوراق التعبئة . وهذا ما يدفعني لأن أؤدي عملي وأطبق شفتاي» .

في عهود سابقة في كرواتيا كانت الهجرة إختياراً على الدوام لكن الحرب غيرت ذلك كله . وبسرعة أصبح من المستحيل على الكروات أن يحصلوا على التأشيرة المناسبة لوجهاتهم التقليدية ـ كندا واستراليا والولايات المتحدة وألمانيا . فقد أصبح الحصول على التأشيرات السياحية غاية في الصعوبة . وإذا حصل كرواتي على إذن بالسفر فلم يكن واضحاً أنه سيستقبل بنفس الحماس كما كان الحال قبل الإستقلال . ففي المجتمعات الكرواتية الكبيرة في الخارج كان المزاج، كما هي الحال مع أهل الشتات، أكثر تطرفاً بكثير منه في الداخل، إذ أصبح ينظر للسفر من كرواتيا إلى ملبورن أو شيكاجو بشكل متزايد على أنه نوع من الخيانة . ففي تلك الأماكن كان الحديث كله يدور حول العودة للوطن ليس بالضرورة للقتال، كما فعل الكروات المنفيون بوحشية وبفعالية عام ١٩٩١ في شرق سلفونيا، ولكن للمساعدة في بناء البلد . وكما قال الأستاذ الجامعي فإن الحياة في كرواتيا الحرة قد تكون صعبة ولكن مازالت كرواتيا حرة . وقد لا يكون هذا كافياً لطرد الحرب من عقول الناس، ولكن الناس في زغرب بدوا في الغالب متوافقين مع خوفهم من خلال إبقائهم بقدر المستطاع متسترين بالعيش وكأن زغرب مدينة سلام وأنهم، مواطنوها، يمرون فقط

بأوقات إقتصادية صعبة .

في زغرب ، كانت الشوارع المحيطة بالميادين الرئيسية ممتلئة بالجنود العائدين إلى بيوتهم في إجازة ، ولكن بعكس تل أبيب مثلاً لم يكن الجنود الكروات يحملون بنادقهم معهم وهم يتسوقون أو متأبطين صديقاتهم . وليس مثل بيونس ايرس فهم لا يتوقفون عما يفعلون لتحية ضابط مار، فالانطباع الذي تعطيه زغرب هو أنها أقرب إلى مدينة سويسرية حيث يعود الإحتياط بعد دورة تنشيطية ويتوقفون للتمتع وليس كجنود ذوي رتب منخفضة في دولة أراضيها مازالت تخضع لإحتلال الأعداء ومكان في مرمى مدفعية وصواريخ الضرب طويلة المدى . كانت أكثر الشواهد المؤلمة للحرب ، بغض النظر عن العربات العسكرية المتفرقة بلوحاتها الصفراء الرمزية والتي تمر سريعاً وبالحاح في المدينة ، هي منظر الشبان الذين يسيرون في ألم مستخدمين عكازاتهم أو بالأطراف الصناعية المعدنية الطويلة المربوطة في سيقانهم . لقد أصبح العتاد العسكري الحديث من القوة بحيث أن الإثر والتافه الذي كان في السابق يسبب جرحاً في اللحم يؤدي إلى الآن تهشيم العظام بسبب السرعة المطلقة للطلقة . وقد تقوم الصحافة عامة وبصفة خاصة التلفزيون الموجه من الحكومة بإعلان آخر أخبار الحرب بعبارات عالية النبرة ، . ولكن قليلون هم الذين يتوقفون في الشوارع للنظر إلى النصب التذكارية للموتى أو حتى لتصفح مجموعات الحلي الوطنية والغاشية الجديدة الصغيرة- ذات المربعات الحمراء والبيضاء شعار كرواتيا التي تنا شعارات أيوستاشا ، والفانيلات والكاستيات وعلاقات المفاتيح- المعلقة في الأكشاك بين ميدان بان جيلاستين وسوق زغرب المفتوح الجميل في أعالي المدينة .

وبالطبع فمهما كان هدف الناس ، وكما كتبت سلافينكا وماكيوليتش «يتظاهرون بالحياة الطبيعية بقدر استطاعتهم» فبعد قليل تبدأ الأقنعة في السقوط . ومع ذلك فلا يبدو أن معظم الزوار الأجانب لزغرب هذه الزيام يهتمون بالمزاج العقلي للمدينة ناهيك عن مدى «غربيتها» الحقيقية أو المصطنعة . فمعظمهم بدأ بالمجيء إلى زغرب أيام الحرب الكرواتية الصربية وعادوابمجرد بدء القتال في البوسنة . ومن سخرية الأقداراًن قوات الأمم المتحدة متمركزة أصلاً في سراييفو منذ ١٩٩١ - حيث بدت العاصمة البوسنية كمكان آمن وحيادي ـ وكان ينظر لعلي عزت بيجوفيتس على أنه

غير مـوال لأي من الصرب أو الكـروات. ولكن بمجـرد حصـار سراييفـو في إبـريل ١٩٩٢ مركزت الأمم المتحدة رئاسة عمليات قوات الحماية الدولية وقوافل المساعدات في زغرب. ونتيجـة لذلك أصبحت المدينـة نقطة الـوصول الإجبارية لعمال الإغـاثة والصحافيين الذين يلـزمهم تصديق الأمم المتحدة، وأي شخص آخر يريـد الدخول إلى البوسنة. وقد استخدم معظم الأجانب كرواتيا كمكان لتقديم المؤتمرات.

أما السر القدروراء ذلك. وكما اكتشف الكروات لخيبة أملهم، فهو أن الأجانب لم يهتموا في الحقيقـة بما كان يحدث في كـرواتيا منـذ طبق وقف إطلاق النـار بوساطة سيروس فانس وزيـر الخارجية السابق في أمريكا وتدخلت قـوات الأمم المتحدة بين الصرب والكروات في أوائل ١٩٩٢.!

واذا كان الكـروات مايـزالون يصـدون بكل الوسـائل مايثبت أنهم شعـب غربي ويقارنون بين زغرب والمدن الأخـرى في الشمال والغرب، فإنهم أكثر من أي شيء آخر يتحدثون إلى أنفسهم وليس لـلأجانب الذين أتى معظمهم من تلك المدن. ولا يعني ذلك القول إن مسألة القومية، كما يسمونها في يوغسلافيا السابقة، ليست في صميم السياسة والثقافة الكرواتية والصربيـة منذ القرن التاسع عشر على الأقل. فذلك النوع من العبارات البلاغية التي سمعها المرء في زغـرب عام ١٩٩٢ كانت بمثابة صدى لما كـان يمكن أن يسمعه المرء في يـوغسلافيـا الأولى بعد الحرب العـالمية الأولى. ولقـد استبدلت كرواتيا القوانين التشريعية والسياسية المأخوذ معظمها من هابسبيرج بقوانين وإجراءات حكمت الحيـاة في صربيا قبل «مملكة الصرب» والكـروات والسلوفيين».

وكانت تلك الاختـلافات حقيقية. وكـان عام الاتحاد هـو أيضا السنة التي ثـار فيها موضوع العقاب الجسدي في الجيش الذي مثل مسألة رمزية رغم تفاهتها. فقد ألغى الكرباج في كرواتيـا عام ١٨٦٩ ولكنه أعيد لسابق عهده حسـب الأعراف العسكرية للصرب عام ١٩١٨، وقد دفع هـذا القرار بكثير من الكرواتيين للمقارنة بصوت عال بين غربيتهم المتحضرة وبين البربرية البلقانية لمواطنيهم الصرب.

وبعد حوالي عشرين عاما، عندما وصلت ريبيكا ويست إلى زغرب عام ١٩٣٨ في بـداية رحلتهـا إلى مـا أصبح مملكـة يوغسـلافيـا، فقد نبههـا مـرشـدهـا الصربي كـونستانتين إلى أنـه يمكن الاعتماد على معظم الكرواتيين الـذين الذين ستقـابلهم في

توضيح مسألة اختلافهم. وقال أنهم سيخبرونها أنهم «ليسوا مثل الصرب في بلجراد، فنحن هنا رجال أعمال، نؤدي الأعمال كما تؤدي في فيينا»! . كانت ويست تكره الكروات بقدر كانت تعجب بالصرب وتكره الألمان على أساس أنهم كانوا يتقدمون لصالحهم هم معتقدة أنهم « أضعفوا بتأثير النمساويين وكأنه مرض عضال» وكتبت تقول: «هذا حقيقي. لقد قالوا لي ذلك باستمرار في البنوك والفنادق والمتاحف».

ورغم أصالتها فإن ويست في كتابها الشهير كانت معبرة عن زمنها تماماً. فرغم كراهيتها «للتفكير العنصري» للألمان فإنها لم تستطع أن تجد معنى لكثير مما رأته خلال ست أسابيع في يوغسلافيامن دون اللجوء للتفسيرات المبنية على مجموعة مزعومة من «الصفات القومية» الثابتة والتي اعتقدت أنها تنطبق على الأفراد من الصرب والكروات والمسلمين والألمان الذين صادفتهم. وسرعان ما يكتشف أي شخص يصل إلى زغرب بعد ستين عاماً، من أماكن في الشمال أو الغرب حيث كانت هذه الإفتراضات. . فقدت مصداقيتها، أنه أيا كان مصير تلك العادات في التفكير في الغرب فإن أحد السبل التي تبدو بها كرواتيا مختلفة عن المجتمعات الغربية « المتقدمة» التي إدعت نسبتها إليهم إنما هو اعتقاد الناس المسبق بفكرة أن كل أمة لها شخصيتها المحددة والثابتة.

فقد يقوم شباب كرواتيا بالتسوق في نفس المحلات مثل قرنائهم في نيويورك ويكون لهم نفس الذوق في الموسيقى الشعبية أو يتبنون عادات جنسية مشابهة ولكن ذلك كله لا يجعلهم مواطنين عالميين بمفهوم «ما بعد القومية» الذي ميز كثيراً من الأوروبيين الغربيين والأمريكان الشماليين من الطبقة المتوسطة. إنهم يتحدثون عن أنفسهم ككروات بنفس الأسلوب الذي كان يتحدث به أجدادهم عندما زارت ريبيكا ويست زغرب. وعلى أيام ويست، لم يكونوا مثل الناس في بريطانيا أو ألمانيا فقد إنعكس الفارق بين التفكير الغربي والبلقاني في ملابسهم. ولكن اتضح أن تشابه تسريحة الشعر مع أهل هامبورج أو إرتداء أحذية الرياضة مثل أهل كامدن تاون لم تغير مقدار ذرة من فهم شباب كرواتيا القومي والقبلي. وسواء كان العالم قد أصبح قرية عالمية أولم يصبح فقد ظهر أن المرء قد يصبح عضواً كاملا في مجتمع استهلاكي متجاوز للقومية ـ كما فعل كثير من اليوغسلاف بين عامي ١٩٧٠ و١٩٩٠ ـ ومع

ذلك يظل في نفس الوقت قبليا محضاً. ويكمن الخطأ في تصور أن مجرد اكتساب أذواق وهويات جديدة يعني تساقط الولاءات السابقة آلياً. وفي البلقان على الأقل لم يحدث ذلك.

علاوة على ذلك فكلما انصب المرء باهتمام أكبر، كلما بدا أوضح أن الكلام عن كون كرواتيا غربية كان بنفس الدرجة- إن لم تكن أكثر- إفتراضاً سلبياً، طريقة لإخراج الصرب من أوروبا ومن «الغرب» بقدر ما كانت إدعاء إيجابياً يقصد به تثبيت أحقية كرواتيا في عضوية أوروبا الموحدة في القرن الواحد والعشرين. كما أنها كانت وسيلة لإعادة تأكيد الإعتقاد بأن يوغسلافيا كانت فكرة مستحيلة منذ البداية، وأن الكروات كانوا يختلفون عن الصرب لدرجة أن الشعبين لم تجمع بينهما أي سبل للعيش معاً في نفس البلد الواحد. ولو أن الاختلافات كانت سياسية فقط ـ بفعل القرارات السياسية المحددة التي اتخذها سلوبودان ميلو سيفيتسن بعد ١٩٨٧ عندما تولى رئاسة الحزب الشيوعي الصربي ـ لكان من الصعب على أقل تقرير سيكون من الصعب إنكار إمكانية حلها سياسياً في يوم ما. أما إذا كانت الاختلافات مبنية على نهجين روحيين للحياة لا يلتقيان، فان الشعار الضخم لحكم تيتو «الأخوة والوحدة» يكون مرفوضا كنكتة سخيفة. أما الذين قالوا بعكس ذلك في كرواتيا فقد استنكرهم أتباع النظام بـ «معتوهي يوغوسلافيا» أو «المتشوقون لليوغسلافية» وبأنهم أناس، أيا كانت الأسباب، رفضوا أن يتعلموا دروس فوكوفار ودوبروفنيك .

كان من السهل في زغرب، رغم ما يبدو عن بعدهما من الحرب، التسليم بأساليب التفكير القبلية تلك. فبعد ثلاث سنوات من الحرب، أصبح التمييز بين الروحاني والسياسي مستحيل واقعياً في كل مكان من يوغسلافيا السابقة. فكل ما حدث في كرواتيا منذ ١٩٩١ أو ما حدث منذ ذلك الحين في البوسنة أصبح يفهم من خلال منظور فكرة الكياسة والبربرية اللتان تم تقديمها وكأنها الصفات القومية المتأصلة في الشعوب المعنية. وغالباً ماكان يعثر على الدليل على هذه الميزة، في زغرب كما في أجزاء أخرى من يوغسلافيا السابقة، في وجود بعض الخطأالتاريخي، كأن تكون ضحية ـ كما كان كل فرد في البلقان في وقت أو آخر من التاريخ ـ هي فكرة

تصلح بذاتها لأن تجعل المرء عضواً في شعب جيد».

النتيجة المباشرة لذلك، هو أن الكروات كشعب ضحية لا يمكن أن يقعوا في الخطأ هم أنفسهم، وفي الوقت ذاته ومن حيث أنهم شعب غربي متحضر، لا يستطيعون التصرف ببربرية. وبعبارة أخرى ومثل كل سياسة متعلقة بالهوية، فإن القصص التي تروج عن الكروات، سواء ما يخص الصراع من أجل الدولة والذي دام تسعمائة عام أو شعور الشعب الكرواتي المتأجج بغربيتهم، تعد مسرحية أخلاقية وليست سياسة على الإطلاق بمعناها المعتاد.

وبصورة حتمية فإن هذه الدرجة من حب النفس، أيا كانت كيفية فهمها تاريخياً كاستجابة كرواتية للخذلان الحقيقي للطموحات القومية تحت حكم هابسبرج وكل من الحكم الملكي و يوغسلافيا تيتو، حملت معها عجزا مدهشا عن تخيل ألا تكون لدي أي شخص فكرة جيدة عن كرواتيا. كما أدت بكثير من الكرواتيين إلى أن يتستروا حتى على أفظع الفترات في تاريخهم ويصبحوا ساخطين عندما يذكرها الأجانب. وفي حين أن الغالبية العظمى من الكرواتيين ليسوا فاشيين أو متعاطفين مع الفاشيين، فقد رأى الكثيرون فترة يوستاشا بشكل يختلف عما رآه معظم غير الكرواتيين. فبينما رأى الغرباء في مرحلة دولة أنتي بافيليتش المدعومة من النازية هبوطا إلى البربرية الفاشية، فقد ظل كثير من الكروات يستندون إلى حقيقة أنه رغم أن نظامه كان مشيناً، فقد كانت دولتهم مستقلة لفترة قصيرة. وحيث كان الغرب يوبخونهم -كما فعل كثير من الصرب المحليين- لإستمرار تمسكهم بشعار المربعات، فقد ردوا بحسم أن استخدام بافيليتش له لا يعني الا يستخدم هذا الشعار القديم للأبد. وحين تعجب الغرباء، عندما قررت السلطات الكرواتية إلغاء العملة اليوغسلافية وهي الدينار، بسبب أصرارهم على تبني الكونا، وهي العملة التي كانت مستخدمة في كرواتيا أثناء حكم بافيليتش، فقد أصر الكروات على أن صورة الكونا ظهرت لأول مرة على عملة فضية عام ١٢٥٦.

في كل حالة كان الرد الكرواتي صحيحا من الوجهة الفعلية وبليدا من الناحية الأخلاقية في آن واحد. فقد كانت رقعة المربعات رمزاً قديماً وقد استخدمها الاتحاد الثقافي الكرواتي، لأكثر من قرن، وتوجد في واجهات مباني القرن التاسع عشر في

أجزاء كبيرة من كرواتيا والبوسنة بما فيها مبنى منذ عهد هابسبرج في شارع المارشال تيتو في سراييفو حيث موقع فرع الاتحاد الثقافي . ولكن رقعة المربعات كانت بلا جدال مصدر تحدي ، وبخاصة للصرب في كرواتيا الذين فقدوا أسرهم في مذابح يوستاشا زمن الحرب أو أقاربهم المعدودين بين الضحايا الذين قتلوا في معسكر اعتقال جاسينوفاك ، حيث ذبح طبقا للتقديرات الاكثر تحفظا مئات الآلاف من الصرب واليهود . كذلك لا تستطيع أي مراجع عليمة بعلم العملات في العصور الوسطى أن تخفف من الإنطباع المتمثل في أن السلطات الكرواتية باختيارها للكونا كانت أيضاً تختار استمراراً رمزياً بينها وبين نظام بافيليتش . وبعمومية أكبر فإن إدعاءمبررات تاريخية لاستخدام تلك الرموز في وقت تنكر على الصرب والآخرين نفس التبرير التاريخي خوفاً من استخدامه ، مثل نموذجا بالغ الدلالة على التصاق الناس بماضيهم القومي ولامبالاتهم التامة بماضي الأمم الأخرى .

وبحلول عام ١٩٩٣ ، وفي كل أنحاء يوغسلافيا السابقة ، وصل هذا الفهم الذي كونته كل الجماعات عن نفسها بوصفها الضحية التاريخية للمجموعات الأخرى إلى حد أن الوضع الوحيد المقبول لكل منها هو البراءة المجروحة ، وبهذه الروح ، أعلن الكرواتيون الذين لا تجري في عروقهم دماء معادية للسامية أنهم لا يفهمون سبب شكوى الغرباء عندما أصر الرئيس توديمان على أن زوجته ليست صربية ولا يهودية وذلك في حملة عام ١٩٩٠ حين دافع عن نفسه أمام معارضيه الذين شككوا في كرواتيته . كما أنهم لم يفهموا لماذا ثار الغرباء عند إعادة تسمية الشوارع بأسماء شخصيات من عهد يوستاشا مثل مايل بوداك وزير الشئون الدينية والتعليم في عهد باقليتش . كان الكروات متحضرين . ولذلك فالرد الحاسم بأن الصرب كانوا كذلك يتكلمون بنفس اللهجة يعتبر إهانة لا تحتمل . كان الإستشهاد الصربي عقيدة زائفة ومُجيّرة لمصلحتهم الذاتية أدت بالصرب إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة بينما لم يكن الاستشهاد الكرواتي من ذلك النوع من الدفاع الزائف ، بل كان تقييما صحيحا لما حدث . وقد لخصت نكتة لاذعة ، تحكي في كل أنحاء يوغسلافيا السابقة ، بدقة الربط المميت بين البراءة المجروحة والغرور الزائد . تقول النكتة «لماذا أكون أنا الأقلية في بلدكم بينما يمكن أن تكون أنت أقلية في بلدي؟» .

وأجد لزاماً على أن أعلن أنني كنت أجد دائما من غير المعقول أن تكـون مجموعة من الناس فاضلة بشكل خاص أو أن هوية الانسان يمكن أن تكون شيئاً آخر سوى كونها مرنة وطـارئة . كنت أعتقد قبل وصولي إلى يوغسلافيا الســابقة أنه لا شيء محتوم في الحرب هناك- أنها كـانت نتيجة لاختيارات سياسية وليس للشخصية القـومية أو لأحقاد وضغائن دموية تاريخية - وإعتقدها كذلك الآن بعد قضاء ما يقرب من سنتين متنقلاً هنا وهنـاك أشاهد الناس يموتون ويقتلون . ومع ذلك فعندمـا بدأت أستمع لأول مرة إلى الأحـاديث المتباينة عـن مدى الاختلاف الجوهـري بين الكروات الصرب فقد وجدتني ، مثل كثير من الأجانب الآخـرين أميل إلى قبول ذلك على علاته . فقد بـدا أن كل الدمـاء التي أريقت وستظل إراقتهـا مستمرة ، الانفصـام أياً كـان الثمن بالتعبير المادي وأياً كـانت التضحيات المطلوبة ، باسم الانفصـال العرقي أو الغرور العرقي ، وذلك في أيامي الأولى في كرواتيا ، بدا أنه يعطي دحضـا حاسما لكل الأوهام العالمية عندي .

يتعين على الصحفي ، طبقاً للنظـام المعمول به ، أن يكرس أول يـوم له في زغرب لتوفير أوراق اعتماده كمراسل صحفي . وبعد ساعة في المركز الرئيسي للأمم المتحدة للحصول على بطاقـة قوات الحماية الدولية ، انتقلت إلى فندق انتركـونتنتال للحصول على أوراق اعتماد . صحفية كـرواتية . وكما هو الحال في مثل تلك المكاتب فقـد كان الموظفون شبان كنديون من أصل كرواتي بعضهم انتقل إلى هنا لـلأبد والبعض الآخر لم يقرر بعـد أين سيعيش . سألت أحدهـم وهـو موظف في العـلاقات العـامة لطيف المظهر - والـذي اضطر إلى أن يملأ بطاقـة هويتي بخطه هـو - متى قرر المجيء إلى زغرب ، فأجاب بابتســامة عريضة كشفت عن أسنانه النـاصعة البياض : «لقد كنت أحلم دائماً بها . حتى وأنا أشب في ويست فان كنت أنتظر ذلك اليوم» . لقد طلبت أن يسجلوا في الكتاب السنوي للمدرسة الثانوية «أن (جيف يريد أن يعود إلى كرواتيا الحرة المستقلـة) وقـد فعلتهـا كما كنت متأكـداً أنني ســأفعل . فسألت» وهل تشعـر بالراحة؟» فـأجاب مبتسماً «تماماً . فكما قال والداي دائما - اللـذان جاءا إلى كندا بعد الحرب العالمية الثانية -إنه شيء رائع أن تكون في وطنك » . كان كل ما قاله عن انتقال والديه أنهما كانـا «ضد الشيوعية» ولم أستطع أن أجعله يقول إذا كـان من يوستاشا أم

لا. و لا أظن أن الأمر يهم بشكل خاص، فكرواتيا الحرة أو وحدة البوسنة أو توحد الصرب داخل أو خارج حدود صربيا والجبل الأسود، كل ذلك مثّل العقائد التي دفعت الناس ليموتوا ويقتلوا ويتنازلوا عن مستوى المعيشة الذي كان متوفراً ببساطة قبل بدء الحرب. سألته «وماذا عن ويست فان؟» فأجاب «حسنا إنني أفتقد الهوكي ـ الكانوك ـ ولكن من الأفضل أن تكون في النهاية حيث يكون انتماؤك». سألته مرة أخرى: هل كان يمكن أن يعيش هنا عندما كانت كرواتيا جزءاً من يوغسلافيا؟ فضحك قائلا: «لا فرصة لذلك، فحتى لو كان قد سمح لي بالعودة، وهو ما أشك فيه، لم أكن لأرغب في ذلك. ففي تلك الأيام كان الصرب يريدون كل شيء ـ الشرطة والحكومة والجيش ـ هذا ما فعله الصرب والشيوعيون. أما أنا فكرواتي، إنني أستطيع أن أتعايش مع أمريكي مثلك أو أحد أفراد طائفة «السيخ» في فانكوفر أفضل مما أستطيع مع صربي.

إن مايشعر به الناس نحو الإنتماء لايمكن تفنيده فقط بالعقل، ناهيك عن النظريات العقائدية ـ وأكثرها تهوراً الفكرة الماركسية عن «الوعي الزائف» ـ القائلة إن يظن الناس أنهم يحسونه ليس ما يشعرون به في الواقع. ولكني أتذكر أني كنت أتساءل حتى في ذلك اليوم، ما إذا كانت تأكيدات الشاب المحمومة عن الاختلاف ذات مدلول في الواقع. فإذا كان الكروات، والصرب والمسلمون في الواقع مختلفين، إذن لماذا تتصف الأمثلة التي يختارها الناس للدلالة على ذلك الاختلاف ـ نوع من القهوة في زغرب ونوع آخر في بلجراد وميل بين الكروات نحو الدقة مقابل تفريط صربي «جنوبي» في الوقت وهاجس جرماني معين بين الكروات فيما يتعلق بالنظافة والنظام ـ ليس فقط بأنها تافهة نسبياً بل إنها تبدو كذلك تلخيصاً شاملاً لكل الكليشهات واللافتات التي تقابل الشماليين الاقتصاديين المحبين للعمل بالجنوبيين الجنسيين ومعدومي المسؤلية، والتي يمكن تواجدها تقريباً في كل بلد أوروبي وكذلك في كثير من البلدان الأسيوية الشرقية؟

وبعد أن قيل لي مرات لا تحصى أن الكروات غربيون في الواقع وأن الصرب بيزنطيون في الحقيقة (في لحظة معينة بعد استقلال كرواتيا أصبح تعبير «بيزنطي» بمثابة لطخة عار في الدوائر القومية، وقد وقف عضو بارز في حزب في البرلمان ليقول

أنه مسرور بأن يعلن أنه لا توجد «دماء بيزنطية» في أسرته لثلاثمائة عام) بدأت، ربما بصورة مشوشة، أتساءل إلى أي مدى، رغم كل الدماء التي أريقت، كانت هذه الاختلافات حقيقية. وبعد كل شيء فإن هذا البرلماني الذي قام ليطمئن لزملائه حول أصوله لم يكن مضطراً لعمل ذلك لو أنه كان يتحدث بلغة مختلفة أوكان من السهل تمييزه شكلاً عن الصرب البغيضين - كما يدعى متشددو الموتو على أعدائهم التونسو بالخطأ غالباً، أو كما ظن النازيون في اليهود- هل لأنه كان يشبههم بشكل أو آخر وكان يتكلم مثلهم باللغة نفسها ولكنه في أعماقه يشعر في نفسه أو يريد أن يشعر بأنه مختلف - في الحقيقة، لأنه اعتقد أن قوته وخلاصه كفرد وككرواتي، تكمن في إحساسه باختلاف العرقي والقومي - هل لتلك الأسباب شعر هذا السياسي الكرواتي كفرد بالتزام خاص بإشاعة بأعلان كرواتيته لأكبر عدد من المرات؟

عادة مايصحب ميلاد الدول الجديدة رواية الأساطير. ويعطي المؤرخ إريك هو بسبوم مثالاً كلاسيكياً لمثل هذا النوع من التفكير، الاشارات الواردة في الكتب الدراسية الباكستانية إلى خمسة الاف سنة من التاريخ الباكستاني، يقول أنه في الحقيقة ربما تكون فكرة دولة باكستانية منفصلة قد نبعت عند القوميين من أنصار جناح في الثلاثينات وأن أية علاقة بين حضارة وادي لانلوس وبين حكومة ما بعد ١٩٤٨ هي محض خرافة. ولكن فكما في باكستان كذلك في كرواتيا (وبالطبع في صربيا كذلك) كان السياسيون القوميون يواصلون إختلاق إستمرارية ومجتمعات وهمية لم يكن لها وجود، تاريخياً. وعلى سبيل المثال فإن مدينة «دوبروفنيك» الشهيدة والتي استخدم الكروات دمارها المزعوم كأفظع مثال على بربرية الصرب لم تكن حتى جزءاً من يوغسلافيا الأولى. فلو تركنا جانباً حقيقة أنه إتضح أن قصف دوبدروفنيك كان أقل كثيراً مما يظهر باديء الأمر فإن المدينة كانت تاريخياً بيزنطية وفينيقية وعثمانية لفترة أطول كثيراً من كونها كرواتية.

بدا أن المهمة الأساسية عند القوميين (ودائما وما تكون الإدعاءات في الحرب مبالغة، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة أنها أكاذيب) تكمن في خلق أو تضخيم الإختلافات بأكثر من الموجود فعلاً. لقد فصلت بالفعل العداوات التاريخية بين الكروات والصرب كمجتمعات على فترات مختلفة في تاريخهم. ولكن بعد كل ما

يقال، فإن أقصر تعريف يحدد أفراد الكروات والصرب والمسلمين عرقياً وبنفس الأهمية، يميزهم عن بعضهم البعض هو الدين وبدقة أكبر، في حالات كثيرة، الأصل الديني، حيث أن معظم الناس في يوغسلافيا السابقة كانوا علمانيين. فهم جميعاً من جنوب سلافيا ومعظمهم مرتبط بالمنطقة والطبقة وما إذا كانوا يعيشون في المدن أكثر من ارتباطهم بالعرقية بمعناها التقليدي، ويمكن ملاحظة أن الوضع الديني فقط هو الذي كان يمكن أن يدل على ما سمي في يوغسلافيا بالمجموعة القومية فيما حدث عام ١٩٧٤ عندما كرس تيتو البوسنيين المسلمين كأحد «الأمم المؤسسة» ليوغسلافيا. ولتسويغ ذلك كجزء من حسبة سياسية معقدة قصد تيتو من خلالها موازنة كل من مطالب الصرب والكروات، كان عليه أن يرجع إلى كلمة «مسلمين» والتي أصبحت تفهم في جميع الإحصاءات التالية في يوغسلافيا على أنها تشير فقط إلى هؤلاء المسلمين البوسنيين. أما المسلمون الألبان في كوسوفو ومقدونيا، والأكثر تديناً، فكانوا يوضعون في قوائم الألبان.

وبرغم كل دعاية السياسيين القوميين، وبخاصة في كرواتيا، التي كانت تدفع للربط بين العقيدة الدينية والدول الجديدة التي يجرى إقامتها- أو «استعادتها» كما يفضل القوميون ـ فإن معظم الكروات، مثل معظم الصرب ومعظم مسلمي البوسنة. ظلوا علمانيين على الأغلب كما كانوا أثناء فترة الشيوعية. ولم يكن الدين يهم في حد ذاته (رغم أن الكنيسة الصربية ليست عالمية، من الناحية التاريخية، بل قومية) بل كان بالأحرى الأداة الرئيسية للتحالف العرقي والقومي في الدول الجديدة التي كانت تتجه نحو تعريف المواطنة من خلال حصرها في الهوية العرقية وبصورة سيئة السمعة كانت كرواتيا قد أعادت صياغة دستورها القديم عام ١٩٩٠ وهو قرار اعتقد كثير من نقاد نظام زغرب أنه سيجعل من المحتم حدوث ثورة في كرايينا الخاضعة للصرب. فبينما كانت الجمهورية الكرواتية أثناء حكم الشيوعيين مكونة دستورياً من شعبين ناخبين ـ وهما الكروات والصرب ـ إضافة إلى أقليات أخرى، فإن كرواتيا المستقلة قد عرفت نفسها بأنها «الدولة القومية للشعب الكرواتي ودولة الأمم الأخرى والأقليات القومية الذين هم مواطنوها، وبذلك نزلت درجة الصرب إلى «الأقلية القومية» وصنفوا مع اليهود والمسلمين والسلوفين وغيرهم.

ومع ذلك فقد كانت تلك الاختلافات، على وجه الدقة، ثقافية أكثر منها عرقية. فما كان يجعل من شخص ما كرواتياً هو حقيقة أنه كاثوليكي روماني، تماماً مثلما مايجعل شخصاً ماصربياً هو عضويته، مهما ضعفت، في الكنيسة الأرثوذكسية سواء في كرواتيا أو صربيا. ولم يكن معنى ذلك أن للولاء الديني تلك الأهمية، بل كان المهم، وبعد أن نجحت خرافة القومية هو الطريقة التي يوظف بها الدين. فعندما مايذهب المرء الى قرية كان قد حدث فيها قتال، فقد كان من الاسهل ان تأخذ درساً في التاريخ من أن تحصل على وصف موثوق لما حدث في نفس اليوم. فلم يتحدث الصرب فقط، من خلال الاحاديث المتلفزة والبيانات الصحفية، عن هزيمتهم على يد الاتراك على أرض كوسوفو في أواخر القرن الرابع عشر، بل تحدث الكروات كذلك عن مملكة كرواتيا التي زالت في القرن الحادي عشر، وايضاً تحدث مسلموا البوسنة عن البوجوميليين. بل تحدث بعضهم بهذا الأسلوب في ميدان القتال. ففي موقع لصرب البوسنة قرب مدينة بيريودور الشمالية ودعوني بالسلام بالأيدي وجركن (وعاء كبير) مملوء ببراندي مصنوع يدوياً من الخوخ المحلي وعليه كلمة «١٣٨٩» - وهو تاريخ هزيمة الصرب في كوسوفو. وفي مكاتب زغرب للـ«مرهاميت»، وهي المرادف المسلم للصليب الأحمر في يوغسلافيا السابقة، فقد أنصتت شخصية محلية مرموقة الى وصفي للظروف في شمال البوسنة واجابني بمحاضرة مسهبة عن التسامح العثماني.

على إن قيمة هذه الروايات كتاريخ ضئيلة. فأيا ماتخيل الكروات فإن فكرة رسم خط مستقيم بين دولة كرواتيا التي حكمها توميسلاف العظيم في القرن الحادي عشر وتلك التي أقامها فرانكو توديمان عام ١٩٩١ هي شيء يتعذر تفنيده. فقد كانت دالماتيا تحت حكم البندقية وسلافونيا الشرقية تابعة للمجر. لكن الرغبة في إعادة صياغة الماضي في صورة الحاضر كان دئماً دافعا قوياً في كل مكان. ففي يوغسلافيا السابقة، ولأكثر من ثلاث سنوات، مات مئات الآلاف دفاعاً عن إحساس بهويتهم بدا، في حالات كثيرة، أنهم يفتقرون أساسا الى تأكيد وجوده وفي كثير من الاحيان كانت الاخطاء التي ارتكبت في سياق كل هذا التلفيق الحماسي باعثة على الضحك. يذكر الكاتب الانجليزي مارك تومسون مسلسلاً عرضه التلفزيون

الكرواتي باسم « الكروات الذين صنعوا العالم »، وكان اولهم البابا سيكستوس الخامس، وهو بابا من العصور الوسطى لم يكن هنالك منطق، كما قال تومسون، في افتراض انه كرواتي.

ولكن كثيراً ماكانت النتائج فظيعة مثلما حدث، اثناء الحرب، حين اشارت قوات صرب البوسنة الى قوات الحكومة البوسنية على أنها الجيش التركي وعبأت الجنود بزعم الانتقام لهزيمتهم في كوسوفو عام ١٣٨٩.

وخوفاً من المستقبل بعد انهيار النظام الشيوعي بدأ الكروات والصرب بصفة خاصة يحيكون الخرافات الكثيرة عن ماضيهم البطولي المحرف وعن آلامهم عبر الزمن وعن مستقبلهم الزاهر. وبلاشك، كانت إعادة اكتشاف شخصية الكرواتي والصربي، قبل بدء التقتيل، عزاء للناس الذين بدا انهم يفقدون بحق السيطرة على حياتهم الشخصية والبلد الذي شبوا فيه. فعندما تقوضت يوغسلافيا انهارت كذلك الأجور الحقيقية. فالطبيب الذي كان يحصل في سراييفو على الف مارك الماني شهرياً في بداية الثمانينات اصبح يحصل على عشر هذا المبلغ بعد نشوب الحرب. لقد كان الخوف حقيقياً. ولكن رغم ان حياكة الخرافات كانت ضرورية نفسياً فلم يكن من الواجب المبالغة في الاختلافات الحقيقية في أسلوب الناس في الحركة والملبس والايماء في زغرب وبلجراد وسراييفو. والواقع أن ماقد يكون دفع الناس للقتال هو أفكارهم المبتسرة عن العظمة التاريخية وضغائنهم الدفينة. ولكن مايفرقهم الآن ليست الافكار بل الموتى والمطهرين عرقياً والنساء المغتصبات والاطفال المشوهين.

إن من السهل جداً أن ننسب ماحدث لسياسات الهوية التي عولجت بمنتهى التطرف. فالناس يتكلمون عن «قبلية» يوغسلافيا السابقة ويعيدون الحياة شبح كل تلك العوائق المنيعة المفترضة للثقافة والعرقية التي تقسم الكروات والصرب ومسلمي البوسنة. وهم بذلك يذهبون في الواقع- حيث أصبح من السهل القيام بذلك في هذا العصر حيث نالت القومية العرقية مكانة في أماكن كثيرة، من جنوب الوسط الى سراييفو حيث فقد الناس الامل أو تغمرهم المعاناة - في البلقان على أدنى تقدير، إلى أن هوية الناس المجتمعية ثابتة ودائمة مثل الـDNA بينما يتوجب عليهم أن يتأملوا في مصير السلافيين الجنوبيين وفي هؤلاء الناس الذين هم أقرب الى التماثل منهم الى

الاختـلاف، وكـذلك في المأسـاة السيـاسيـة التي فعلت فيهـا الكـوادر الصغيرة من المتسيسين والسيـاسيين المتعطشين للسلطـة والجنود والمثقفين كل شيء يستطيعـونـه للتضخيم والمبالغة في الاختلافـات الفعلية القائمة بين الكروات والصرب والمسلمين وذلك من أجل الاستحواذ على، او الوصول الى، السلطة. واذا كانت الهوة بين تلك الجماعات تبدو واسعة كما هي عليه الآن بعد التجربة الطويلة والوحشية من العنف المجتمعي والحرب، فليس معنى ذلك ان العنف كـان محتـوماً من النـاحيـة الثقافية أوالتاريخية. فقد كانت هناك ثقافة لجنوب سلافيا ضمت الكروات والصرب ومسلمي البوسنة معـاً مثلما كانت هناك ثقافـات كرواتية وصربية و«بوسنياك» فرقت بينهم، . وهذه الثقافـة السلافية الجنوبية تجاوزت، في بعض الأوقـات وعلى اقل تقدير- رغم انها ليست «يوغسـلافية» سواء بمفهوم الملكية قبل الحرب العالمية الثانية او الدكتاتورية في عهـد تيتو- الأشكـال السيـاسية الاقليميـة والحدود العرقيـة والمحـاذير الخاصة للتاريخ والمكـان. وقد استلزم تفتيت تلك الثقـافة، مثل تفتيت يوغسلافيـا، عملاً كثيراً. كـذلك فعلت الحرب في كـرواتيـا. وكـذلك فعلت الابـادة الجماعيـة لمسلمي البوسنة.

فليس الصرب والكـروات والمسلمين جيمعاً سلافيين جنـوبيين فحسـب بل إنهم يتكلمون أيضـاً لغة واحـدة، أو على الأقل كان ذلك هـو التصور الشـائع قبل نهاية الاتحاد اليوغسلافي. وقـد كتب الكاتب والناشط السياسي بـوجدان دينيتش، وهو نفسه صربي من كرواتياً، يقول في مرارة «ثلاثة وثمانون في المائة من سكان يوغسلافيا (السابقة) يتكلمـون لغة واحدةو الإختلافـات في طريقة استخدام اللغـة بينهم تشبه الاختـلافـات بين الطـريقتين الانجليـزيـة والأمـريكيـة في استخـدام اللغـة الانجليـزيـة». ويضيف دينيتش ان الـدليل على ذلك كلـه هو أنـه رغم إستخدام الصرب للابجديـة السيريلية واستخدام الكروات والمسلمين للابجديـة اللاتينية فإن كل لهجـة إقليمية لما كـان يسمى قبل الحرب باللغـة الصرب كرواتيـة كان يتحدث بهاكل شخص في الاقليم المعنى اياً كان أصله العرقي. وبرغم ذلك فسرعان مايتعلم الـزائر لكـرواتيا الا يسـأل عـن معنى هذه او تلـك الكلمة بـالصرب كرواتي أو حتى بالكـرواتي الصربي بل دائما يقول « الكرواتي» . وفكـرة لغة كرواتيـة قد تكون جـديدة

الا على قليل من غلاة القوميين ، ومع ذلك فقد أصبحت الوهم الأكثر عمقا الأكاذيب . فقد انهمكت زغرب الرسمية في تضخيم الفوارق التي تواجدت لفترة ما ووضع فوارق أكثر كلما أمكن ذلك . وعندما بدأت في الذهاب الى زغرب كانت اللافتة في المطار هي نفسها التي مازالت موجودة في صربيا ، وبحلول ربيع ١٩٩٣ «تكروتيت» الكلمة لتصبح « زراكنا لوكا» وهذه العبارة تعني ، وعلى أقل تقدير نفس الشيء . وكانت هناك تحويرات جديدة أخرى ، كاستخدام كلمة بدلا من«حزام» تعني ترجمتها«شيء يرفع السروال» وهي ببساطة شيء يبعث على الضحك . وسواء كان الأمر مضحكاً ام لا فقد أصر القوميون انه لابد أن تحل تلك الكلمات محل الكلمات الصربية أو البوسنية التي شب الناس على استخدامها . ومع ذلك كله ، فقد تم اختراع الكلمات الجديدة في كرواتيا مستقلة - تلك الدولة التي كان جميع الكروات . يحلمون بها منذ وفاة توميسلاف العظيم عام ١١٠٩ .

على أنه إذا ما فاذا بدت تلك الفوارق ضئيلة ، وبخاصة عند مقارنتها بشيء ذا وزن مثل وجود قواعد لغوية مشتركة وكذلك المفردات والاستخدامات اللغوية المتماثلة تقريباً ، فإن كثيراً من الكرواتيين ، وهم يمرحون ويعربدون فرحاً بإستقلالهم الحديث ، يبدون غير قادرين على التوقف عن الإشارة إليها . ففي خندق على خط مواجهة نشط قرب نتوه خارج زادار تحت سيطرة الصرب ، حدث ان أخرجت من جيب سترتي كتيباً للعبارات الشائعة وبدأت في تصفحه بحثاً عن كيف أقول عبارة «هل أصبحت هادئة ؟» فأخذ الضابط الشاب الذي كنت معه الكتاب من يدي وسحب قلماً من جيبه وقام ، بعد ان التف حولنا رجاله ، وشطب فوق كلمة « صربي على الغلاف ليصبح العنوان : «كتيب العبارات الشائعة الكرواتية» . وأتذكر انني قلت في صوت واهن : «عليهم أن يعيدوا طبعه» وأتذكر دهشتي عندما أجاب الضابط بجدية : « أتمنى ذلك» ومع ذلك فمحتوى الكتاب كان هو المستخدم في كرواتيا وفي البوسنة وفي صربيا كذلك . و مايقسم الناس هو هجاتهم واستخدام ابجديتين وليست الكلمات نفسها .

ولا أريد أن أقول أن الناس قبل الحرب لم يكونوا قد رسموا هويتهم وفق أعراقهم أو أن أنكر أن القضية القومية كانت الخط الفاصل في التاريخ اليوغسلافي - في كل

من ملكية مـابين الحربين وجمهوريـة تيتـو - كما كان العنصر هـو الخط الفـاصل في التاريخ الامريكي . ومع ذلك فخلال الحرب قام معظم الناس في كـرواتيا وصربيا ثـم مع استمرار الحرب، في جـانب الحكومة البـوسنية أيضاً، بتقـديم تلك الاشياء التي تقسهـم وكأنها واضحة وملمـوسة . ذات مرة سـأل رادفان كارادزيتش مجمـوعة من الصحفيين، وكنت بينهم، حيث ذهبنا لمقابلته في مكتبـه في بالي في ضواحي سرايـيفو التي اعلنهـا «عاصمتـه» في الحرب، سأل «لماذا تصرون أيها الغربيـون على أن يعيش الصرب مع المسلمين؟»واستطـرد وهـو يبدو بخصلـة شعـره الكبيرة البـارزة وبذلتـه الزرقاء الأنيقة مثل مغن شعبي فرنسي : «الصرب والمسلمون يشبهون القط والكلب . انهم لايستطيعون ان يعيشوا معاً في سلام . هذا مستحيل» .

كانت« الصربية» و«الكرواتية» و «المسلمّية» حسب صياغة كرادزيتش، جواهر- ثـابتة لاتتبـدل . فكـان يتكلم عن العـرقية كما قـد يقـول معـالج من تلامـذة يونغ عن«النماذج الأصلية»، رغم أنه، وكما حـدث فعلاً، قام الدكتـوركارادزيتش كأحد أتباع فرويد بالتدريب قبل التحـاقه بقسم العلاج النفسي في مستشفى كـوسيفو في سرايـيفو. وأيا كانت صياغته الخاصة فلم يكن وحده الذي يستخدم مثل هذه اللغة . فإن وحشية الحرب التي أطلقها جعلت آراءه المجنونة مقنعة للناس، بل و الادهى من ذلك، جعلهم يبدون وكأنهم متأكدون من تجربتهم . ولم تغيرحقيقـة أنه كانت لديهم تلك الخبرات بسبب الخطط التي صممهـا كـاراديـزيتش وميلـوزوفيتش وزمـلائهما، حقيقة ان النـاس الآن يميلون الى الشعـور في أعماقهم بأنهم كانـوا على حق على طول الخط . وكما قال زيافكوا جريبـو وهو استاذ قانون من سرايـيفوومعـارض سياسي قديم لكاراديزيتش في مـراوغة «إن رادوفان كارادزيتش هو أعظم عبقريـة أفرزتها البوسنة . فهو يقول شيئاً يعتبر وقتها أكذوبة كبيرة وبعد سنتين يتحول الى حقيقة» .

وأيا كان ادعـاء كارادزتش فإن الصرب لم يعتقدوا دائماًبأنهم لايستطيعـون معايشة المسلمين والكروات . فقد كـانوا جيراناً لعقود طويلـة : كانوا يذهبـون معاً الى المدرسة كما عملوا معاً، والى درجة مذهلة كانـوا يتزاوجون -وبخاصة في المناطق الحضرية من البوسنة والهرسك . لقد بذلت دعاية كبيرة لكي يبدأوا أول الامر في الخوف من بعضهم البعض - لقد بـدأت الحرب بالخوف وإنتهت بالإبادة الجماعيـة - ثم بتذبيح بعضهم

البعض. ومع ذلك فما أن بدأ التقتيل حتى إعتبر الكثيرون ان العنف يؤكد صحة تشخيص كارادزتش الأصلي. و غالباً ماكان ذلك صحيحاً لكثير من أعتى خصوم قائد صرب البوسنة كما كان بالنسبة لأولئك الصرب الذين بدأوا في إتباعه عن تراخ. ان كثيراً من هؤلاء الذين اعتبروا الصرب الطرف المعتدي في كل من كرواتيا والبوسنة ورأوا في كارازدتش مجرم حرب مازالوا يقبلون مع ذلك واحداً من أهم مزاعمه– أن العداوة العرقية الثابتة هي التي أوقدت الحرب التي شنها الصرب. كان يقال للمرء – وقد لاقت هذه الفكرة قبولا لدى مسئولي الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة والذين كانوا ملزمين «كمحافظين للسلام» بالتعامل مع كل الجماعات في حياد، ومن ثم انجذبوا بصورة طبيعية نحو هذا الموقف – أن الشيوعية فقط هي التي كانت تمنع شياطين القومية من الاقتراب. أما وقد تهاوى النظام، فقد أصبح إحياء العداوة العرقية أمر حتمياً حتى ولو خفف من شكل الكارثة التي اتخذته تلك المناوشات جهود دبلوماسية دولية أكثر الماماً او قادة أفضل من داخل جمهوريات يوغسلافيا السابقة.

ذات مرة قال لي ضابط روسي يعمل في الأمم المتحدة: «إنكم أيها الأمريكان غير قادرين دستورياً على فهم مايحدث في البلقان. إنكم أولاد وبنات طيبون، طيبون جداً. إنكم لاتريدون أن تروا أن الأمر ليس سياسة هنا، بل الدم والتاريخ. إن كل ماتستطيعون عمله هو الافلات من دوامات القتل ومحاولة رعاية الجرحى. أما بالنسبة للآخرين فإنه كالزلزال لايمكن السيطرة عليه. عليكم بفهم فن تشويه اديم الاض لرؤية مايجري في يوغسلافيا». وتوقف قليلاً ثم قال في تكشيرة «سترى! سيقتل كل منهم الآخر حتى يشبعوا ثم سيتوقفون ولكن ليس قبل دقيقة من ذلك مهما فعل أي منا».

أما صديقه، وهو رائد مظلات بلجيكي، فقد كان ينصت في هدوء. ثم قال فجأة: «لو أن الامر بيدي لبنيت سوراً حول كل ذلك البلد الملعون وتركت آخر الأحياء ينادي على الأمم المتحدة بعد أن ينتهي كل شيء. إنك حين تنزل إلى البوسنة سترى مانعنيه.»

في صباح اليوم التالي، كنت في طريقي لأرى بنفسي للمرة الأولى. لقد مثلت

مغادرة زغرب دراسة للتنافر المعرفي الذي سرعان ما أصبح مألوفا لدي . وللوصول الى كرايينا الصربيـة أو الى شمال البوسنة الذي احتلـه الصرب على المرء ان يغادر الفندق ويقـود السيارة عبر شـوارع زغـرب الى الطريق الـرئيسي الحديث الـذي كان يـوصل السائحين عبر البوسنـة الى ساحل دالماتيـا - سـابقا كنت أشكـو من أن الحليب في الكابتشينو ليس بـالدفء المطلوب، وكان احـد الصحفيين الانجليز قد طلب من المضيفة في غرفة الطعام بعض الكرواسان الطازج حيث ان تلك الموجودة على طاولة البوفيـه متعفنة . لم تكن زغـرب تبدو، من خـلال زجاج السيـارة أقل من أى مـدينة أوروبية . ولفترة من الوقت وحتى بعد أن دخلنا الطريق السريع ، كان الشيء الوحيد المختلف عن أى طريق في النمسا أو إيطاليا هو عدم وجود حركة سير.

كـانت اول علامـات حالـة ل الحرب هي أن محطات البنـزين الضخمة والمراكـز التجاريـة كانت مغلقة أو إذا كانت مفتـوحة فكان الذي يعمل بها مضخـة أو إثنتان فقط . ثم وصلنـا إلى مخرج جارك خـال مـن الموظفين كـان هنـاك شيء مبهج في الإستمرار في القيادة عبر سـاحة جارك بسرعـة ٩٠ كم في السـاعة . لعلـه إنقضت حتى الآن خمس عشرة دقيقةمن الرحلة وبعد خمس عشرة دقيقة أخرى لم تكن محطات البنزين مغلقة فقط بل منفجـرة وقد غربلت المدافع الرشاشـة اكشاك العمال ، وسلالم الخروج اصابتها شظايـا الهاونات . أما على الطريق نفسهـا ومن ثم فعليك أن تقود ، أيا كـان تجاهك فقد الحاجـز الفاصل بين اتجاههـا وكأن دبـابة دهسته ، على جـانب واحد فقط من الطريق . وبعـد دقائق قليلة ، تعبر آخر نقطة تفتيش كـرواتية ثم بعد دقائق قليلة اخرى - ها انت تقود الآن فوق مسـار قمامة وقرى دمرتها القنابل وجسور هدمتها المتفجـرات وحقول ألغام ومواقع مدفعية ، ثم تمر من حـاجز مزين بشرايط بيضـاء وزرقـاء وحمراء - علم الصرب- وتـدخل الى كـرايينـا الصربيـة وبعـد ذلك بعشرين ميلاً تجد نهر سافا ثم على الجانب الآخر تجد البوسنة .

الفصل الرابع

كان شمال البوسنة الذي دخلته في أواخر صيف ١٩٩٢، وبخاصة ذلك الجزء من المنطقة المعروف ببوسانسكا كرايينا المتاخم للحدود مع كرواتيا، كان قد بدأ بالفعل في تحويله مـاديا. ولم يكن القتال هو الـذي فعل ذلك: فعلى عكس وسط البوسنة أو في سراييفو أو موستار، كان الدمار في الشمال بسيطا نسبيا. ولكن في القرى حيث كانت تقوم المساجد، كان يتم وضع الأساس للكنائس الأرثوذكسية وكان أناس جدد ينتقلون إلى الشقق النظيفة في العمارات السكنية الحديثة حول مدينة بانيالوكا.

وحسب قول المسؤولين في الوكالة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة فإن كثيرا من المائتي ألف صربي الـذين هـربـوا من بيوتهم في كـرواتيـا أثنـاء الحرب الصربيـة/ الكرواتية عـام ١٩٩١ كانت تتم إعـادة توطينهم في بوسانسكا كرايينا ومعظمهم في أملاك العائلات المسلمة والكرواتية الذين عاشوا في المنطقة لأجيال. فما كان يغير وجه شمال البوسنة لم يكن الحرب بل العمليـة التي قام بها الصرب لتعـزيز نصرهم. ماكان يغير وجه شمال البوسنة كان مشروع التطهير العرقي.

وهـذا تقرير وصفي للتطهير العرقي، أو رؤية شـاملـة: «تحولت المنازل وقرى بكاملها إلى ركـام وكان السكان الأبرياء يذبحون بالجملـة مع أعمال عنف لا تصدق وسلب ووحشية مـن كل لون ـ كـانت تلك هي الـوسائل التي إستخدمـت ومازالت تستخدم مـن قبل جنود الصرب والجبل الأسـود بهدف التحويل الشامـل للشخصية العرقية (لتلك) المناطق، وبعد أن يبدأ القتـال في أي منطقة معينة ويتم طرد السكان المحليين الباقين على قيـد الحياة يتم جلب المستوطنين الصرب وأبنـاء الجبل الأسود وغـالبا من على بعـد مئـات الأميال ليحلـوا محلهم ويسكنـون في المنازل ـ تلك التي لازالت قـائمة ـ التي يمتلكها النـاس الذين أجبروا على الفـرار. كذلك كـان تحويل الأماكن العامة يتم بشكل جذري. كانت المساجد تدمر بالنار والمتفجرات لتحويلها

في كثير من الحالات إلى مواقع إنشائية حيث يبدأ أفراد المليشيا من الصرب في وضع الأساس لكنائس أرثوذكسية والتي كان تشييدها معياراً على انتصارهم لا يقل أهمية عن قتل أو تشتيت السكان غير الصربيين.

هذا التقرير الوصفي ليس معاصرا. فهو مأخوذ من «تقرير البعثة الدولية لبحث أسباب ومسيرة حروب البلقان» الصادر عن منحة كارنيجي للسلام الدولي عام ١٩١٤ . وما حدث في البوسنة وكرواتيا منذ ١٩٩١ لم يختلف كثيرا في الايديولوجية والأسلوب عن ذلك الذي حدث في أوائل القرن في كثير من نفس المدن والقرى وحدث مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن كان هناك وهم أوروبي ــ تولد عن التمنيات وعن الرضا الذاتي الذي أصاب أجزاء كثيرة من أوروبا الغربية حتى جعل انهيار الشيوعية كل شخص يفكر مرة أخرى ـ في أن الناس في القارة القديمة وحتى في البلقان لن يستمروا في ذبح بعضهم البعض بمثل هذا الانتظام. وبالفعل انتهى هذا الفصل. بالطبع هو لم ينته. والاختلاف الآن يكمن في أن الكارثة في نظر الغريب عن المنطقة من نوعية ناشزة فالأمر يبدو وكأن يوغوسلافيا قد تغيرت أكثر مما تغير اليوغسلافيون. فهذه المرة تنشب الحرب في بلد توقفت عن أن تكون إحدى «الأراضي السيئة» في أوروبا لعقود مضت. إنها مجزرة تدور في بلد سياحي سواء في المدن الفينيسية على ساحل دالماتيا أو منتجعات التزلج أو ضواحي سراييفو أو كرومات غرب الهرسك حول موستار.

على جبل ياهورينا فوق العاصمة البوسنية تربض استحكامات مدافع صرب البوسنة في ظل بوابات مصاعد التزلج المدمرة وعلى طول مدارج الزلاجات العملاقة للألعاب الأولمبية التي استضافتها سراييفوا عام ١٩٨٤ كان ضباط جيش صرب البوسنة يقضون ساعات الراحة في مطعم سياحي على طراز شاليه يلعبون الشطرنج ويشربون في غرف مزينة الآن باللافتات الدعائية ـ خارطة أوروبا مغطاة بالصبغ الأخضر «الإسلامي»، وصورة لمصافحة بين رجل يلبس في كمه حلقة مزينة برقعة المربعات الكرواتية وآخر يلبس سواستيكا وهي أمثلة نمطية للهيئة. وفي كل أنحاء البوسنة، عبر أرض المعركة التي انتشرت فيها القمامة وفي وسط المنازل التي هدمتها القنابل والسيارات المهترئة والأرض المحروقة والحيوانات النافقة، يرى المرء لافتات

كتبت عليها «مكتب تبديل العملة» و«المنطقة الحرة» و«الأوبرج السياحي» و«المنظر الخلاب».

برغم كل ما حدث منذ بدء القتال لا يزال يوجد في الحياة اليومية وكذلك في هذا الحطام ما يذكر بيوغسلافيا السياحية القديمة التي جذبت ملايين الزوار كل عام قبل سنة ١٩٩٠ . على أن المحرك هو أميل، وفي الوقت الحاضر إلى الشرعية السياسية منه إلى المكسب، حتى في «مكتب تحويل العملة» الذي كان يعمل أحيانا في بعض المدن المدمرة. فتحويل العملة ليس له معنى عملي. فالعملات في أيدي المحاربين في البوسنة ليست لها قيمة حقيقية وإذا أراد أي شخص شراء شيء ذي قيمة من البيرة إلى البنزين يلزمه دولارات أو الأفضل مارك ألماني ــ العملة العالمية الجديدة في البلقان. أما في المدن والقرى حيث تندر الكهرباء والمياه الجارية فمازال من الممكن غالباً، وأحياناً كمطلب من السلطات المحلية، أن يقوم الزوار بتبديل العملات. وليس مهما أن مثل تلك الرحلات إلى البنك ليست ذا فائدة عملية، فهذا موضوع جانبي. فالرسالة تعني «أنك في جمهورية صرب كراجينا» أو «جمهورية صرب البوسنة» أو أنك (حتى أوائل ١٩٩٤، عندما أوقفت الحكومة البوسنية وميليشيا كروات البوسنة القتال بينهما وقبلوا بالوساطة الأمريكية بإقامة اتحاد فيدرالي) في «دولة الكروات في البوسنة غرب الهرسك». إنها نفس الرسالة التي تجعل أصحاب الفنادق يطلبوا من الصحفيين تعبئة نماذج التسجيل المسهبة التي كانت تستخدم قبل الحرب (وكأن السلطات المحلية لا تعلم بمن دخل مدنهم) أو تجعل محاربي كروات البوسنة عند نقاط التفتيش في وسط البوسنة والذين لم يستحموا أو يحلقوا لمدة أسبوع يلبسون أربطة ذراع بيضاء نظيفة عليها الرموز المعدنية اللامعة التي تدل على أنهم موظفي الجمارك، أو تجعل صرب البوسنة يحددون نقاط التفتيش التي أقاموها بين المطار الموضوع تحت إشراف الأمم المتحدة ومدينة سراييفو البوسنية «كمعابر حدود» ويطلبون، إذا شاءوا التشدد، أن يعرفوا ما إذا كان لدى الصحفيين تأشيرات أو يغادروا «جمهورية البوسنة والهرسك» ويظهرون سخطا حقيقيا وليس مصطنعا إذا كانت الإجابة بالنفي.

كانت سيطرة الصرب قد اكتملت مبكرا في معظم بوسانسكا كراجينا وتجسدت موسسيا في معظم المناطق في أواخر صيف ١٩٩٢ . وقبل بداية القتال كانت بانيا

لوكا، المدينة الرئيسية في المنطقة وثاني أكبر مدن البوسنة، مركزاً للتجارة والصناعات الخفيفة كما كانت السوق الزراعية الرئيسية في المنطقة. وبتجهيزاتها الوافرة من الفنادق المريحة والكنائس والمساجد الجميلة كانت مكانا بورجوازيا ممتعا دن أن يكون لها الجاذبية السياحية لموستار ولا الجو العمالي لمراكز الصناعة الثقيلة مثل زينيكا أو توزلا. ولقد اعترف بعض الناس في بانيالوكا بأن مدينتهم كانت راضية عن نفسها قبل الأحداث، ولكنهم أكدوا - وبفخر رغم كل ما حدث - أنه نفس النوع من الرضا عن النفس السائد في كثير من مدن الأقاليم الأوروبية. قال لي مسلم من الأعيان ذات مساء، وهو يتوقف كثيرا لينظر بعصبية تجاه باب شقته أو ليخفض عينه عندما ينطلق صوت طلقات الكلاشينكوف على مقربة كما يحدث غالبا في بانيا لوكا: «كنا مثل الناس في برجامو أوبريستول. فأنا لا أعرف المدن المماثلة في أمريكا» واستمر يقول وهو ينظر إلى كسوة مطرزة على الحائط «كنا قلقين على أبنائنا الذين يستمعون كثيرا للروك آندرول ويفقدون «قيمهم» بسبب امتيازاتهم المادية. كنا قلقين ألا يدرسوا الأبجدية بما يكفي وأنهم يمضون وقتا طويلا في «نيويورك»، وهو حمام سباحة في المدينة، وتظاهرنا بأنهم لا يتعاطون المخدرات. وأحيانا كنا نكتئب من المستقبل الذي سيواجهونه. لكننا لم نقلق في الواقع على أنفسنا. كانت همومنا في طريقها لأن تصبح شخصية - الطلاق والشيخوخة والموت. لكننا لم نكن نعتقد أن مجتمعنا قابل للزوال. فتلك السنوات عندما كان كل شيء قاس - الحرب العالمية الثانية، والرعب من أن يستولي مناصرو الحزب على السلطة - ظننا أنها ولت إلى الأبد. إنني حتى لم أقلق على شيخوختي. كان كل ما يقلقني هو هل سأستطيع تحمل نفقات الذهاب إلى الساحل أو إذا كنت سأستطيع شراء قطعة فنية كنت أشتهي اقتناءها ولم آخذ السياسة بجدية. كان الناس يصيحون ويصرخون ولكني لم أتصور مطلقاً أن أحدا منا سيكون غبيا لدرجة أن يدمر ماكان لنا في يوغوسلافيا أياً كان دافعه. لم أفكر مطلقا أنهم سيكونون من الغباء بحيث. . . !» وهنا خفت صوته وسكت.

وفي وقت لاحق حدثني بإسهاب عن مسرح العرائس الطليعي في بانيا لوكا: «كان الناس يجيئون من كل أوروبا ليشاهدوا العروض، مارسيل مارسو ومسرح يارما التجريبي وسكوبولين برلين. وكان زياد صديقي هو المخرج وهو مسلم مثلي ولكن

رفقته كـانت مختلطة تماما ـ صرب وكـروات ومسلمين وشاب نصف يهودي ، ولم يكن هناك غرابة في ذلك . كان الأمـر طبيعيا فقـد كنا جميعا مختلطين على أي حـال . فقد تزوجت إبنتي من كـرواتي ـ وهما في زغـرب مع والديه والحمـد لله . يقولـون إن شعبنا كان منقسما إلى أعداد متساويـة من الصرب والمسلمين ومجموعة من الكروات ، ولكن معدل التزاوج بيننا كـان مرتفعاً لدرجة أنني أعتقـد أن هذه الفوارق ستكون غير ذات معنى بعد جيلين لأي شخص باستثناء قليل من عجائز المتعصبين وبعض الريفيين» ثم توقف : «لكـن ذلك لن يحدث مطلقا الآن . فإذا قدر لنـا أن نعيش فسنعيش كل في حيه الخاص ـــ الصرب هنا ، والمسلمـون هناك ، والكـروات في مكان آخر . يقول كارادزتش إننـا مثل القطط والكلاب ، ولكننا لسنـا حيوانات ، إننـا آدميون . أو على الأقل آمل أن نكون كـذلك . فأحيانـا لا أكون متأكـدا من ذلك . أحيانـا أظن أن ما يجري الآن هـو الحقيقة الإنسانية وأن الغـرابة كمنت في كيفيـة معيشتنا قبل أن يـبدأ هذا . ربما أن كارادزتش عبقري أو على أقل تقدير على صواب . هل تعلم ما حدث لمسرح زياد؟ حسنـا ، قبل الحرب كـان لزياد ، وهـو برغم كـلامه اللاذع ، شخص عـاطفي ، تابع وهـو ممثل صربي شـاب . كان المسرح جمعيـة تعاونيـة ولم يكن بعض الممثلين يـريدون انضمامه ولكن زيـاد أصر . وكـان الشاب لطيفا . وعلى أي حـال فعندما بـدأت الحرب اختفى لأيام قليلة ثم عـاد إلى المسرح ، وفي هذه المرة بمسدس في حزامه وفي ـ يده ورقة رسمية . كانت الورقـة تخوله أن يصبح مديراً لمسرح بانيالوكا للعرائس . يمكنك أن تخمن البقية . كان زياد أول من فصلوا» .

لقد حلت الحرب ببـانيالوكا فجأة واستـولـت قوات حرب البوسنـة بقيادة الجنرال راتكوميلاديتش على المدينة في أبـريل ١٩٩٢ تقـريبا بـدون رصاصـة واحدة . كـان ميلاديتش نفسه صربي بوسني بالمولد وطوال الفترة الأكبر من عمله العسكري لم يظهر أي حماس قومي خاص . قال لي محام من بلغراد يعرفه جيدا : «كان ميلاديتش ضابطا عاديا قبل الحرب وكـانت القومية تكبت في الجيش الوطني اليوغسلافي وكـان ضباطه مرتبطين بـالنظام وبالـدفـاع عن يوغسلافيـا ونظام الإدارة الذاتية الاقتصادي ، كلام فارغ! لا أعتقد أن ميلاديتش كان قوميا أيام تيتو» . ومع ذلك فقد أشار أناس آخرون يعرفون ميلاديتـش كما أشار هو نفسه إلى موت أبيه وأمه على يـد الفاشست الكروات

أثناء الحرب العالمية الثانية . فإذا لم يكن قوميا قبل ذلك فذلك بسبب ولائه للجيش القومي اليوغسلافي ولفكرة يوغوسلافيا التي أقسم هو وزملاءه على الدفاع عنها . أما وقد تهاوت الدولة فقد استحوذت عليه القومية الصربية وسرعان ما أصبح ميلاديتش أحد أشرس مؤيديها .

وخلافا لميلاديتش فلا يعرف على وجه التحديد ما إذا كان سلوبودان ميلوسيفتش نفسه قوميا في الحقيقة أم مجرد سياسي براجماتي وجامد المشاعر اعتقد منذ أواخر الثمانينيات أنه لكي يستمر في السلطة عليه أن يلعب على أوتار القومية الصربية . أما الأمر المؤكد فهو أنه بعدأن قرر أنه طالما لن تكون هناك يوغسلافيا فلتكن هناك إذن صربيا الكبرى ، وجد أداته النموذجية عندما تخطى العديد من الضباط الأعلى مرتبة ذوي رتب أعلى في الجيش القومي اليوغسلافي (كان معظم الضباط من الصرب لكن لم يفرغ من غير الصربيين حتى عام١٩٩٢) وطلب من ميلاديتش تولي قيادة الجيش القومي اليوغسلافي الموحد وقوات الانفصاليين الصرب في كنين وهي على بعد مائة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي ، خلال الحرب الصربية الكرواتية عام١٩٩١ . وقد نجحت تماما في تحقيق أهدافها تلك الحرب التي شنها ميلاديتش في كرواتيا والتي كان الهدف منها رسم حدود صربية عرقية صرفة على أشلاء الدولة الكرواتية . وحين تم ترتيب وقف لاطلاق النار بوساطة الأمم المتحدة ، كان قد تم لميلاديتش ما أراد . كما كان قد توفر لديه نموذج للحروب التي سيتولاها في البوسنة في أواخر ربيع١٩٩٢ .

وكان من المنطقي أن يكون شمال البوسنة إحدى النقاط الأساسية لعمليات ميلاديتش . فجميع أراضي البوسنة والهرسك كانت مركزا عسكريا وصناعيا قبل الحرب ، فقد كانت كل من كرواتيا وصربيا قريبة جدا من الحدود مع دول حلف وارسو . ولخوف تيتو من غزو روسي والذي لازمه حتى النهاية ، فقد قرر أنه في حالة قيام الروس بالغزو فعلى قوات يوغوسلافيا الانسحاب إلى جبال البوسنة ولذلك فقد كدس الأسلحة وأقام القواعد هناك . فكان أكبرها مجمع القواعد العسكرية والمطارات تحت الأرض ــ يقال إنها من أكبر وأحدث التجهيزات في أوروبا ــ وذلك قرب مدينة بيهاتش في الشمال الغربي . ولكن بيهاتش كانت في منطقة ، أكثر من

تسعين بالمائة من سكـانها من المسلمين. ومن ثم فعندما اتضح أن القتال في البوسنة كان على وشك الحدوث بدأ الجيش القومي اليوغسلافي في نقل معظم المعدات من بيهاتش إلى بانيالوكا (بعضها أرسل إلى قاعدة جوية في كنين) وحطموا ما لم يستطيعوا نقله. وحين بـدأ القتال في البـوسنة جـديا كـان المفهوم العسكـري السليـم أن تصبح بانيـالوكـا أحد مناطق الهجـوم الرئيسية لميـلاديتش، وهي مركـز قوة الصرب في شمال البوسنة. واستتبع ذلك أيضا أن يصبح شمال البوسنة، المقسوم بالتساوي بين الصرب والمسلمين والذي يتاخم المنـاطق الصربية من كرايينا الكـرواتية، أصلح أرض لحملة التطهير العرقي الذي بدأته قوات صرب البوسنة منذ اللحظة التي غادر فيها رادوفان كارادزتش سرايفـو إلى بالي، عاصمـة الصرب الإقليمية، والوعيد بـالحرب والانتقام الصربي مازال على شفتيه. كانت بيهاتش شـديدة التمسك بالاسلام بحيث يصعب صربنتها على الأقل في البداية. أما بانيالوكـا المعزولة عن أي إمكانيـة للمسـاعدة من الحكومة الكرواتية أو البوسنية فكانت مثالية.

بعـد قليل من إستيـلاء الصرب على بانيـالـوكـا، قامت السلطـات المدنية التي وضعوها لإدارة شؤون المدينة بإنشاء «لجنة أزمات». كانت تقوم بأعمال يومية روتينية - فأنت تحتـاج إلى مهندس ميـاه وفنيين في مصانع الغـاز للقيام بوظائفهم أيـاً كان مـا بذهنك من أجل مواطنيك - ولكنها أصـدرت كذلك سلسلة من القوانين التي منعت حق الاقتراع عن غير الصرب في المدينـة. لا تتشابـه إبـادتان جماعيتـان، وقد يكـون الجنرال ميلاديتش الذي كان في شبابه ضحية للفاشية، جزارا ولكنه ليس بهتلر. ومع ذلك فهناك عامل مشترك بين جميع الإبادات الجماعية، ومثل «الحل النهائي» فقد كان التطهير العرقي عمليـة بطيئة وملتزمة بـالقانون ومتعمدة نسبيـا، وتضيق الخناق دائما حـول العنق الجماعي للسكان، أكثر منهـا حدثـا فـرديا فظيعـا. لقـد كان بإمكـان الجماعات شبه العسكـرية للصرب، مثل اليوستاشا والأنيـسـاتزجروبن، قبل خمسين عاما، أن يقتلو الناس بسرعة في مهمة مسـائية في قرية منعزلة. أما في المدن الأكبر في شمال البـوسنة حيـث أدى الحضور المتقطع لقليل مـن الصحفيين والعاملين بقـوات الحمايـة الـدولية إلى صعـوبـة تغطيـة القتل الجماعي الذي يعـد لـه الصرب في ريف البوسنة، وكانت هناك مراحل كثيرة لابد من اجتيازها وكثير من الحواجز البيروقراطية

لابد من تجاوزها قبل أن تبدأ في الواقع إراقة دماء المسلمين .

ولقد لعب الطابع المتدرج للعملية على وتر مخاوف الشعب الصربي الذي يعيش تحت الأحكام العرفية ولا تعرض عليه سوى الأخبار التي يصدرها الإعلام الحكومي في صربيا والبوسنة . بينما كانت جميع شبكات البث التلفزيوني بالأقمار الصناعية مزدحمة جدا وبالطبع كانت الجرائد هي أول المؤسسات المعرضة للرقابة وغالبا لسيطرة جيش صرب البوسنة . وفي هذا الجو، فإن الصرب في شمال البوسنة، وكثير منهم كانوا وافدين جدد من كرواتيا حيث تم تطهيرهم عرقيا كذلك، إعتقدوا تماما أن جيرانهم المسلمين كانوا جميعا إرهابيين عازمين على تدمير الصرب . لم يكن الوضع وكأن المسلمين يقتلون في الشوارع، ليس غالبا على أي حال . وعندما يحدث ذلك، وقد حدث ذلك في بانيالوكاوفي بريدور وسانسكي موست، وهو ما كانت تعترف به السلطات بين وقت وآخر، كانت تصر السلطات على أن الجرائم كانت إما بفعل مثيري الشغب - وهي محاولة أخرى للعالم للتعتيم على سمعة الصرب الأبرياء - أو تم اقترافها من قبل «عناصر خارجية» سيتم تقديمهم للعدالة . ولم يكونوا كذلك مطلقا بالطبع حيث أن التمييز بين الصرب «الرسميين» وغير النظاميين كان بلا معنى في بانيالوكا كما في معظم الأجزاء التي احتلها الصرب في البوسنة طوال القتال . وعادة ما يكون الأمر ببساطة تقسيما للأدوار. فالصرب غير النظاميين والمسمون بالتشتنيك - وهم أعضاء في مجموعات بأسماء أقرب إلى عصابات الشوارع منها إلى جيش - النسور البيضاء والنمور (الاسم الحركي لقائدهم هو الجنرال مادزر) وما شابه ذلك - يقومون بالأعمال القذرة التي يطلبها مساعدو رادوفان كارادزيتش ولا يمكنهم الإقرار بها . ثم يدعي الصرب «الرسميون» أنهم يبذلون كل وسعهم لضبط الأمور في وقت عصيب .

أما الصرب العاديون من شمال البوسنة، والذين لم يكونوا مجرمين في ذاتهم، فلم يكونوا يريدون -وذلك لأمر مفهوم- الاعتقاد بأن قادتهم مجرمون . كان الصرب الذين فروا من كرواتيا أثناء القتال عام ١٩٩١ أو تم تطهيرهم عرقيا على يد القوات الكرواتية - قد يكون الصرب قد أتقنوا لعبة التطهير العرقي ولكن الكروات يحملون الذنب كذلك - كانوا في موقف مختلف . كانوا يفكرون في أنفسهم فقط كضحايا أيا بلغ عدد

المسلمين الذين كانوا ضحايا لهم أو كيفيا كان المسلمين أبرياء مما حدث في كرواتيا عام ١٩٩١ . وقد أتاحت اللغة المبهمة والمبتذلة للبيروقراطية الصربية للناس أن يتظاهروا أمام أنفسهم بأنه لم يجر تطهير عرقي في الواقع . كانت معسكرات الاعتقال - أومارسكا وترونوبولي وماناكا - على بعد كيلو مترات قليلة فقط ولكنها في أعماق الريف وبعيدة عن الأنظار، وتسمعهم يقولون : تحدث أمور سيئة في الحروب، وفي الحروب الأهلية يكون الوضع أسوأ، وعلى أي حال فإن الصرب كانوا فقط يدافعون عن أنفسهم.

ولو كان التطهير قد بدأ في بانيا لوكا بمذبحة جماعية فربما تمرد الصرب المعتدلون . ولكن لم يحدث ذلك كما لم يحدث في ألمانيا النازية . ففي شمال البوسنة، راحت معايش الناس أولا. فقد بدأت لجنة الأزمات في منع غير الصرب من العمل في وظائف مديرين في الشركات الكبيرة . وسرعان ما استبعد غير الصرب من جميع المراكز العليا التي تتطلب «قرارات مستقلة» كما تصفها السلطات . وعمليا فإن ذلك يعني أنه ليس فقط مديرو ورؤساء الشركات بل كذلك مسؤولي المحلات والمحاسبين وماسكي الدفاتر- أي شخص، كما تشترط اللجنة، يتعامل في المعاملات المالية- يتم طردهم أو خفضهم إلى أدنى المراكز في شركاتهم . وبذلك، فإن غير الصرب في بانيالوكا الذين لم تتأثر مكتسباتهم بقرارات اللجنة كانوا من الذين لم يتعدى مستواهم مطلقا الوظائف الحقيرة في المكان الأول . وحتى الأطباء، والذين كانت مهاراتهم مطلوبة بصفة منفصلة، طردوا أخيرا من مناصبهم . وهكذا، وفي سلسلة من الخطوات غير العنيفة قضت السلطات الصربية على مستقبل الطبقة المتوسطة من السكان المسلمين والكروات في مدينة كانت تطلعات الطبقة المتوسطة فيها هي المعيار أكثر فأكثر بالنسبة لغالبية السكان .

كانت بعض المراسيم اللاحقة للجنة موجهة بصفة خاصة للبالغين الذكور من غير الصرب فيما يختص بالخدمة العسكرية . وهنا، كذلك، كانت الأهداف الحقيقية للسلطات تختفي تحت قناع من المساواة الإجرائية الظاهرية . فعندما اتضح أن مقاومة الحكومة البوسنية كانت أصعب في التغلب عليها مما ظن القادة الصرب في بادىء الأمر، بدأت السلطات في استكمال القوات التي بدأت بها الحرب من خلال سلسلة

تدابير التعبئة لأفراد معظمهم من الجنود النظاميين في الجيش القومي اليوغسلافي والذين ، كما أصرت سلطات بلغراد برقة ، لم يكونوا مستدعين بل متطوعين عن اقتناع قومي بالخدمة في جيش صرب البوسنة الجديد «فقط للدفاع عن أنفسهم» كما ردد كارادزيتش مرارا .

كان كل رجل بين الثامنة عشر والستين مؤهلا ، وكثير من رجال الصرب الذين تعدوا بكثير سن الجندية في أي جيش عادي كانوا سعداء بالمشاركة في المعركة من أجل صربيا الكبرى خاصة وهم يتفوقون في العتاد عن الجيش الذي كانت ترتجله الحكومة البوسنية . وكانوا في الغالب مشغولين ببث الرعب في المدنيين المسلمين العزل في القرى . ولكن ، ولأسباب واضحة ، كان معظم الأفراد المسلمين والكروات مرعوبين من جرهم إلى جيش كارادزيتش . وكانت هناك وحدة مسلمة واحدة تقاتل إلى جانب القوات الصربية حول مدينة بوسانسكي برود في شمال البوسنة ، ولكن بغض النظر عن ذلك الفيلق الملعون ، فقليل من غير الصربيين كانوا انتحاريين بحيث يتقدموا للخدمة عند استدعائهم . وبذلك خدمت التعبئة العامة غرضين معا ، زيادة القوات المطلوبة لجيش كانت نقطة ضعفه ، خلال القتال ، النقص في الرجال وكذلك منع حق الاقتراع عن السكان غير الصرب الأسرى في الوقت نفسه .

كانت نتائج رفض الخدمة في ذلك الجيش الذي ، في الواقع ، لم يرد مطلقا أيا منهم ، وخيمة بصورة لا تصدق على غير الصرب في شمال البوسنة . فالذين لم يسجلوا اكتشفوا بعد أيام أن عدم تقدمهم كلفهم وظائفهم . قال لي عمدة بانيالوكا ، في حدة متوددة ، في أكتوبر ١٩٩٢ : «نحن في حالة حرب . وعلى كل مواطن واجب القتال» . ولكن المسؤولين الصرب الذين أجبروا على التحدث مع أغراب بشرط عدم النشر فقد حاولوا التظاهر بأن الفصل لم يكن متعمدا . وعندما كلمني العمدة لم يستطع أن يكبت ضحكته وهو يقول مع ابتسامة خافتة : «أصر على أنك تصدقني . يستطيع كل الناس في بانيالوكا أن يعيشوا معا فقط لو أن المسلمين توقفوا عن مهاجمة الشعب الصربي . إننا لا نريد الحرب ولكن حيث إن الحرب فرضت علينا فعلى كل شخص يدين بالولاء أن يتقدم للمساعدة . فإذا كان المسلمون يريدون أن يعيشوا معنا

فعليهم أن يثبتوا أنهم ذوي ولاء. وبدلا من ذلك فماذا يفعلون؟ إنهم يرفضون أن يكونوا إخوانا لنا. وإذا لم يحاربوا إلى جانبنا فلماذا يجب أن نعمل بجانبهم؟».

في واقع الأمر، كان هذا التوزيع الأوركسترالي مكتملا. ففي جزء من العالم لم يعرف عنه أبدا الكفاءة التيتونية، تكون إنذارات رفت الناس المتزامنة مع تواريخ أوراق التعبئة العامة لهم سرا مفضوحا. في مطعم فندق بوسنا الرئيسي في المدينة، قابلت محاربا صربيا شابا كان عائدا لتوه من خط القتال قرب مدينة بوسانسكا كروبا. كان هو وزملاؤه مخمورين بتأثير شراب «سليفوفيتش» وكذلك مخمورين بفعل نجاح معركتهم. كانوا في منتهى لسعادة وهم يشرحون لي اللعبة. فقد قال المقاتل: «يسجل المسلمون في الجيش فنجعلهم يحفرون الخنادق فورا في الخط الأمامي. وهذا ضار بصحتهم»، وضحك وصب له أحد أصدقائه شرابا آخر. وأتذكر الآن التفكير الذي راودني ساعتها أنه رغم أننا في منطقة لا تتميز بحسن الرعاية الطبية للأسنان، كانت أسنانه جميلة، وأتذكر تساؤلي، كما حدث منذ ليال قليلة سابقة، ما إذا كانوا مع الزيادة في السكر سيبدأون في تهديدي أو يدعونني للعشاء أو كليهما، واستمر المحارب وهو يخبط على ظهري «ولكن إذا لم يأتوا إلى الجيش نعطي الوظائف التي سرقها أسلافهم الأتراك السفلة منا منذ أمد بعيد إلى صربيين أمناء هنا في بانيالكوا - تحولت الجلسة في النهاية إلى عشاء وصداقة، فقد كانوا شبابا محببين رغم أنني كنت أتمنى ألا يكون الأمر كذلك-، أجاب أصدقاؤه في جوقة «هذا صحيح».

انحنى المحارب نحوي عبر الطاولة وقال «كما تعلم، قبل الحرب العالمية الثانية كانت بانيالوكا مدينة صربية. ولو لم يرتكب الكثير من المذابح ولو لم يحاول المسلمون واليوستاشا إبادة الشعب الصربي في البوسنة لكنا الأغلبية هنا بدلا من أن نداقع دائما عن أنفسنا ضدهم كل خمسين سنة».

قاطعه رفيقه موجها كلامه لي: «لماذا تكرهون أنتم الأمريكان الشعب الصربي الآن؟ كنا حلفاء في حربين عالميتين نقاتل معا. فلماذا تساندون الفاشيين؛ هذا وضع سيء. يجب أن نكون أصدقاء» وتوقف ثم قال «يقول كثير من رفاقي إن أمريكا أصبحت بلدا سيئا. أنا لا أعتقد ذلك. إنني أعتقد أنكم لم تفهموا ما حدث هنا.

هل تعرف شيئا عن معركة كوسوفو عام ١٣٨٩؟» لابد أنني كشرت لأنه هز رأسه وأمسك بمعصمي وقال «لا، في الحقيقة إنه أمر مهم. أنتم الأمريكان لا تهتمون بالتاريخ ولكن عليكم أن تهتموا. الصرب لديهم التاريخ فقط. فلخمسمائة عام كنا نحن الصرب ندافع عن الحضارة الغربية ضد الأتراك وقد فعل فوك كارادزيتش ذلك في القرن التاسع عشر ويفعل ذلك الآن قائدنا رادوفان كارادزيتش. إننا جميعا نفعل ذلك، جميعنا! ومع ذلك تجعلون منا العدو وهذا خطأ». وترك معصمي وربت على ظهري بلطف ثم. قال «الأمر لا يهم: دعنا لا نضيع الوقت في الكلام عن الأتراك الملاعين فإننا سنتشاجر. دعنا نطلب شرابا آخر».

والتفت مشيرا للمضيفة. ثم قال من فوق كتفه: «ولكنني أقول لك بعد كل ما رأيت إنني لا أظن أن الأمر سيكون فظيعا إذا فقد أحدهم وظيفته».

لم يقل المقاتلون شيئا آخر عن «الأتراك» ولا عن الذين كانوا يحاربونهم على خط النار قرب بوسانسكي ولا عن أولئك الأشخاص الذين كنت أسألهم عنهم في بانيالوكا. وكان المقاتل على حق بشكل ما. فالحياة بالنسبة للمسلمين في بانيالوكا لم تكن بالسوء نفسه الذي عاشوه في القرى أو في مناطق القتال. على أننا حتى لو نحينا جانبا حقيقة أن حرمان الناس من وظائفهم كان فقط خطوة في سلسلة من تدابير التطهير العرقي الذي أدى في النهاية إلى القتل، فإن خسارة العمل كانت أخطر بكثير مما بدت للنظرة الأولى. إنها لم تكن ببساطة مسألة فقدان الشخص لوظيفته، كما يمكن أن يحدث في دولة أوروبية غربية، في مكان ووقت يصعب فيه الحصول على عمل. ففي الغرب يغير الناس وظائفهم طوال الوقت ولكن في يوغسلافيا السابقة، فإن منظمي المشروعات والمهنيين فقط الذين هم الذين كانوا يتحركون في سوق الوظائف بحرية. وقد تغير هذا بالطبع حين أصبحت يوغسلافيا أقل شيوعية حتى بهذا المعنى المؤسسي. ولكن معظم الناس مازالوا يتوقعون العمل في المكان نفسه مدى الحياة وتعودوا على النظر إلى مكان العمل من أجل المنافع المصاحبة. والطرد يعني خسارة ما هو أكثر بكثير من شيك الراتب. فقد كانت النقود تفقد قيمتها كل يوم على أي حال كلما استمرت الحرب، بعد أن أصبح كل شيء يباع بالمارك عدا الجرائد والمواد الغذائية الأساسية، أما ما لا غنى عنه مطلقا فهو التأمين الصحي وخدمات

الدولة الأخرى التي ترفع فورا عندما يفصل الشخص من عمله .

بل إن الناس أصبحوا غير آمنين حتى في بيوتهم حيث إن كثيرا منهم حصلوا على شققهم من خلال اتحاداتهم أو منظماتهم المهنية التي كانت مالكة لها قنيا . وفي صربيا نفسها كان خوف الناس من أن يفصلوا (في مقارنة بأن يتم تسريحهم مؤقتا أو يحرموا من الأجر وهو ما لم يكن يهم كثيرا في عصر زيادة التضخم والندرة) من مشروع حكومة أو يفقدوا شقة يملكها ذلك المشروع هو أحد الوسائل التي يجبر بها نظام ميلوسيفيش الناس على القبول : الأجدر أن تساند النظام من أن تجد نفسك مشردا في الشارع . وفي بانيالوكا أعطى إرث عصر تيتو السلطات الصربية الدفعة التالية في عملية التطهير العرقي للسكان غير الصرب الحضريين . وكان الفصل نفسه هو المقدمة . فجأة يعلن طرد الشخص رسميا وتكون الخطوة التالية إرسال خطاب بإخلاء الشقة التي كان يعيش فيها .

وبذلك يكون الحرمان من الوظيفة مثل الحرمان من المواطنة ، ومثل أن تنتقل بالقوة من وضع غير الصربي إلى وضع غير البشر فقط بقرارين رسميين . وقد تصادف هذا الطرد من مراكز التشغيل مع ارتفاع أهمية مراكز العمل في السياق الأساسي الذي يحصل فيه الناس على لوازمهم المتزايدة الندرة . فمع نضوب إمدادات الدواء مثلا ، حلت الصيدليات في مراكز العمل محل تلك التي كانت تعمل في المدن . كما أن مراكز العمل كانت توجد حيث تتوافر حصص الوقود ، رغم أن ذلك أصبح أقل أهمية مع استمرار الحرب حيث أصبح الوقود يشترى تقريبا بالعملة الصعبة في السوق السوداء . ويستطيع الناس شراء الأشياء الأخرى التي تلزمهم بالعملة الصعبة ، في السوق السوداء طبعا ، ولكن قبل وقت طويل استنفدت معظم العائلات المسلمة والكرواتية مدخراتهم بالمارك وكان ذلك أيضا لصالح الموردات الصرب الجدد في بانيالوكا حيث إن غير الصرب كانوا في الواقع ، يحولون ما يملكون من العملة الصعبة إلى تجار السوق السوداء الصرب . كذلك كان من غير المستغرب ، حيث إن البندقية والسوق السوداء يعملان معا وقت الحرب ، أن يتجه هؤلاء الناس لا إلى أن يكونوا مجرمين عاديين وراء عملية سريعة بل مجرمين في الزي الحربي ، أعضاء في المجموعات شبه العسكرية ، التشتنيك ، الأكثر تطرفا ودموية . ومن سخرية الأقدار ، أن كثيرا

من المقـاتلين أنفسهم الـذين يعبّون الخمـر في فنـدق بـوسـنا ثـم ينطلقون في شـوارع بانيـالوكـا ويقذفـون القنابل اليـدوية على نـوافذ بيوت المسلمين هم أنفسهـم الذين اضطر المسلمون لأن يـدفعوا لهم للحصول على ما يقيم أودهم. ولكن هنـا أيضا أتى على خاطري بشكل لا إرادي مقارنة مع كـارثة اليهود، فقـد كان المسلمون يـدفعون لمعـذبيهم ولكن ألم يكن يهود هـولندا وفرنسـا يدفعـون لـلألمان أجور القطـارات إلى أوسكوفتز؟

لم تقـدم الجهود المتكـررة للجنة العليـا لـلاجئين في زغرب لتنظيم قـوافل الإغاثـة الإنسـانيـة إلى بانيـالـوكـا، سوى القليـل، من الناحيـة المادية في تحسين وضع غير الصرب. فعندمـا أصبحوا بشكل عام على وعـي بما يدور في المدينة، نجح مسـؤولو اللجنة العليا لـلإغاثة UNHCR في حث السلطات الصربية بعد مفاوضات طويلة على السماح بدخول عـدد من القوافل كل أسبوع. بالطبع، كانت الفكـرة هي مد يد المساعدة لمن كانوا يعرفون لدى الإنسـانية البيروقراطية «بالسكان في المحنة» أو بعبارة أخـرى، إلى القسم الأكبر من غير الصرب في بـوسـتـانسكـا كـرايينـا. ولكن كـانت السـلطات الصربية هي سيدة الموقف هنا أيضـا. فمع الموافقة على طلب اللجنة العليا لـلإغاثـة فقـد أرفقـوا شرطا وهـو أن ينـال السكان الصرب نصيبـا يسـاوي نصيب المسلمين والكراوت. كـان هذا هو النمط الغالـب في أنحاء البوسنة وهـو أن يرفض الصرب بـادىء الأمـر السماح بمـرور المسـاعـدة ثم يطلبـون أن يحصلـوا على نصيب وترفض الأمم المتحدة بادىء الأمر في إصرار على أن يكون التوزيع على أساس الحاجة ثم يكسبون الوقت، ثم في غالب الأحيان يواجهون الاختيار بين مرور بعض المساعدة أو ألا تدخل المساعدة ثم يرضخون لمطالب الصرب.

كانت سياسـة لجنة الإغاثة دفـاعية تماما لأن الصرب كانـوا يسيطرون على الطرق وإمـا أن تصل المساعـدات على أسـاس شروطهم أو لا تصل على الإطلاق. كـانت المشكلة تكمن في أن هذا الاتفاق يكون نافذ المفعول عندما تعبر القوافل المناطق التي يسيطـر عليهـا الصرب حتى تصل إلى المنـاطق التي تسيطـر عليها قـوات الحكـومـة البوسنية - كان الصرب يـأخذون حصتهم وإذا حـالف الحظ يسمحـون للقـوافل بالتحرك - ولكن بانيولوكـا كانت مختلفة. فهناك كان الصرب يسيطرون على حصص

الكل، صربيين وغير صربيين. كانت قوات الصرب شبه العسكرية تحرس البوابة ومحيط المخزن حيث تذهب القوافل للتفريغ عند وصولها إلى بانيولوكا. وكان نفس بيروقراطيي صرب البوسنة من مكتب العمدة والصليب الأحمر الصرب، والذين اخترعوا فكرة إبطال حق اقتراع غير الصرب في بانيالوكا، هم أنفسهم الذين يشرفون على توزيع إمدادات لجنة الإغاثة UNHCR بعد أن يدور السائقون الدنماركيون المتطوعون بشاحناتهم المرسيدس البيضاء بحرف UNHCR وهي شعار الأمم المتحدة وكلمات «المساعدة الإنسانية» المطبوعة باللون الأزرق على أبواب الشاحنات ويعودون أدراجهم شمالا عبر بوسانسكا كرايينا نحو سافا وكرواتيا.

وإذا كان هناك القليل القليل الذي تستطيع لجنة الإغاثة UNHCR أن تفعله لإسعاف، وليس إنقاذ المسلمين والكروات في بانيالوكا -كانت هناك فترة في أواخر ١٩٩٢ وأوائل ١٩٩٣ عندما حجزت المساعدات عن المدينة كلية- فقد بدأ غير الصرب أنفسهم ييأسون بالفعل من وضعهم في المدينة في خريف ١٩٩٢، بعد مضي نصف سنة فقط من القتال. فمن دون وظائف أو مستقبل، كانت حياتهم عبارة عن جولة بحثا عن، ومقايضة، ضروراتهم اليومية، و الإذلال المنتظم على يد سلطات بانيالوكا والعنف على يد الميليشيات الصربية، وفي التحدث في الأمسيات عما إذا كانوا يحاولون دفع رشاوي للخروج من بوسانسكا كرايينا ودخول كرواتيا. كانت الرسوم التي تتقاضاها الميليشيات الصربية تصل إلى ألف مارك؛، ولكن بالنسبة لمعظمهم كان ذلك أمرا غير مأمون على أي حال، حيث كان الكروات لا يرحبون باستقبال مزيد من اللاجئين من مسلمي البوسنة (كان يسمح للأفراد الكروات إذا استطاعوا الخروج من كرايينا). وقد قام الأعيان والقادة المسلمون لما كان قبل بدء القتال الفرع المحلي للحزب الحاكم في سرايفو بمحاولة التفاوض مع السلطات الصربية، ولكنهم قاموا بذلك من مركز الضعف المهين، ومع مرور الشهور نجح القليلون في الهرب وقتل الكثيرون ولم تثبت أية مسؤولية عن الوفيات. وكان صديقي الذي سبق الحديث عنه أحد الأعيان الذي «اختفوا». كان حيا في أكتوبر ١٩٩٢. وعندما عدت إلى بانيالوكا في فبراير ١٩٩٣ لم يكن موجودا في أي مكان واحتلت عائلة صربية شقته وادعوا أنهم لم يسمعوا به مطلقا.

ليست الحروب أقل تعقيداً من الأفراد . ففي بانيالوكا تصرف كثير من الصرب بولاء وأمانة نحو أصدقائهم المسلمين والكروات . فقليلون فقط من غير الصرب المطرودين من وظائفهم في بانيالوكا نجحوا في الحصول على عمل أدنى ومن حصل على عمل كهذا إنما كان يدين به للمناصب الجيدة للأصدقاء من الصرب . ولكن حتى تلك الوظائف يمكن أن تكون خطرة . فالآن تعمل سيدة مسلمة كانت طبيبة قبل الحرب في بيع ملابس الرجال . قالت إنه رغم أن مالك المحل الصربي ربما لم يكن يتوقع أن تأتي إلى العمل وإنما استأجرها فقط لكي تحصل على بعض المال وعلى الرعاية الصحية ، فقد أخذت عملها بجدية . كانت تقوم بواجب الجلوس خلف طاولة العرض كل يوم مرتدية ملابس وضعها السابق في الحياة . وذات صباح دخل المحل صربي من الميليشيات وعلى كتفه بندقية وصوب سلاحه نحوها وأشار إلى قميص في شباك العرض وقال : «أريد ذلك القميص ولن أدفع ثمنه» . ودون اعتراض قامت وأحضرت القميص وناولته إياه فوضعه رجل الميليشيا على كتفه وخفض السلاح . وقبل أن يغادر رمقها من أعلاها لأسفلها وفهم مركزها رغم التنورة الرثة والسترة والبلوزة وقال في نبرة مجلجلة راضية «إنني لم آخذ حماماً منذ خمسين يوماً» .

تلك حادثة تافهة بمقاييس بانيالوكا بما أن المرأة لم تقتل أو تصب بسوء ، رغم أنها بكت بصوت خافت ، خلف نظارتها السوداء ، وهي تحكي لي القصة . حتى في وضح النهار ومن الإنشاءات السكنية الحديثة على أطراف المدينة وحتى قاعة احتفالات المدينة في الميدان الرئيسي -التي كانت يوماً مكتباً لملازم اسمه كسورت فالدهايم ، الناشط في التطهير العرقي في زمنه- كانت بانيالوكا مكاناً كئيباً ومخيفاً . وفي الليل تكون المدينة مرعبة . فلا يسمح ظلام البلقان فقط بتصفية العشرات بل بانفلات الأعصاب بلا سبب محدد ، ويأخذ التنكيل غير السياسي حقه كذلك . إنني لم أقض ليلة أبداً في بانيالوكا دون أن أسمع طلقات البنادق وصوت الصيحات والزجاج المتهشم . ولكن عندما أنزل من غرفتي في فندق بوسنا فإني لا أستطيع أبداً أن أحصل على إجابة مباشرة من أي شخص عما حدث . إذ يخرس موظفو الفندق ، ويتكلف المسلحون الابتسام وهم يحتسون شراباً مبكراً أو ينتهون من الإفطار . ومرة

نظر أحـــدهم إلى أعلى تـاركـا طبـق البيض وقـال «إنكم تسـألـون أسئلـة كثيرة أيها الصحفيون الأجانب» .

وفي أحيان كثيرة يستحيل تغطية ما حدث في الليلة السابقة . ففي أواخر سبتمبر ١٩٩٢ فقد فندق البوسنا معظم واجهته الأماميـة وكذلك منطقة الاستقبال الرخامية من يوم لآخر. حدث هذا قبل أقل من أسبوع من سفر سايروس فانس وديفيد أوين إلى بانيالوكا للمرة الأولى وعقدهما أحد اجتماعاتهم مع كارادزيتش . وقد أوضح بعض النـاس ، ومعظمهم في الزي العسكـري ، أنه حـدث هجوم على الفنـدق بهدف منع المفاوضين من الحضور إلى بانيالوكا وقـالوا إنه من فعل المجاهدين المسلمين . (كانت الإشارة إلى جنود الحكومة البوسنية وكأنهم ناسفو الشاحنات الشيعة مسألة شائعة بين صرب البوسنة مثل الإشارة إليهم كجنود أتراك أو «انكشارية») بينما همس الآخرون ، وهم عادة مسلمـون أو كروات ، بأن الهجوم كـان استفزازا صربيـا بقصد إثارة جـولة جديدة من العنف الانتقامي ضد غير الصربيين .

بعد أيام قليلة صـادفت أحد جنـود صرب البوسنة ممن كنت قـد قضيت معهم أمسيـة في الشراب قبل ذلك بأيام قليلـة . ابتسم بحـزن وهز رأسه قائلا : «إنها ليلـة رهيبة يارجل» واتضح أن مـاحدث في الواقع هو أن أحد أفراد الميليشيـا الصربية كان يحتسي الخمر في فندق بوسنا . وفجأة وقف ونزع مسمار الأمان من قنبلتين ورش المكان بسلاح AK- 47 . قال الجندي «لا أعلم لماذا أصيب بالجنون . المجنون ابن الزنا» كان قد قتل ثلاثـة أفراد وجرح كثيرون غيرهم — خضبت دماؤهم الـرخام البني الرخيص لمدة أسبوع قبل أن تستطيع عاملـة النظافة أن تزيل آخر آثـارها— قبل أن ينجح أفراد ميليشيا آخرون أقل سكراً منه بقليل فقط ، في سحب أسلحتهم وإرداته قتيلا . قال الجندي : «الأفضل لي أن أعود إلى الخط الأول . فعلى الأقل تعرف هناك من أين يأتي الـرصاص . في تلك الليلـة كـانوا يصـوبون مـن جميع الاتجاهات . لقـد ظننت أنني سأصاب بالتأكيد عند تقاطع النيران»

بالنسبـة لغير الصرب ، بالطبع ، كانت بانيـالوكا هي الخط الأول منـذ بدأ جيش صرب البوسنة في عـربدته . كان معظمهم تقريبا في حداد على فرد من الأسرة قتل أو «اختفى» وكانوا مصـدومين ، كما كان الناس ومـازالوا مصدومين في كل البوسنة ، من

الطريقة التي انقلبت بها حياتهم رأساً على عقب. ولكن في بانيالوكا، حيث عزاء المقاومة غير متاح وحيث انعدم حتى تدفق الأدرينالين بفعل الخوف الذي كان يساعد أهل سراييفو على البقاء خلال الحصار يعطي غير الصرب الانطباع بأنهم في حداد على أنفسهم وهم يستعرضون موتهم وهم في حالة من الدهشة المنعزلة المتأملة. قال لي ذلك الرجل من الأعيان في نهاية آخر أمسية أمضيتها معه: «إنني أحيانا أفكر فيما إذا كنت سأموت بطلقة أو أذبح في معسكر أو أموت بصورة غير متوقعة. إنني متأكد أن قرار موتي قد صدر. فلي صديق صربي كنت أذهب معه للمدرسة -إنه شخص لطيف ومتحجبه- في مكتب العمدة. وقد أخبرني أنني على قائمة أعضاء حزب SDA المخطط لقتلهم. لقد قال لي إنه رآها».

وجدتني مصرا على أن الأمور ستتحسن رغم أنها كانت بالتأكيد تبدو كئيبة في الوقت الحاضر. فقد تنجح قوات الحماية الدولية أخيرا في نشر الكتيبة الكندية التي ظلوا يحاولون إدخالها إلى بانيالوكا لمراقبة الأوضاع في المنطقة. وقد تقدم اللجنة العليا للاجئين يد المساعدة. فقد قيل إن روبين زيبرت الرئيسة الأمريكية الجديدة للمكتب جيدة جدا. وقد كانت عاملة في المساعدات في أمريكا الوسطى، وهي شجاعة جدا ومخلصة جدا. كانت تعرف أن مهمتها حماية الناس من أمثاله أيا كان ما يفعله موظفو الإغاثة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان العاملون في الإغاثة يحاولون أن يعطوا الأولوية لبانيالوكا ولهذا السبب فقد ضغطوا على فانس وأوين للحضور إلى بانيالوكا: كرسالة إلى كارادزيتش وميلاديتش بأن أنظار العالم تتجه الآن إلى مايجري، ولكي يدقوا ناقوس الإنذار حول التطهير العرقي.

بالطبع، الشيء الوحيد الذي كان يجري ويجري هو أنا، فقد كنت أتكلم بالمراء الكامل وكنت أنا والرجل المرموق نعرف ذلك. كانت الحقيقة هي أنني سأغادر بانيالوكا بعد أيام قليلة وأن هذا الرجل المرموق سيقتل. وسواء حدث موته بعد أيام قليلة أو أسابيع قليلة أو شهور قليلة فهذا خارج الموضوع. والواقع أن حقيقة أنه استطاع أن يتفوه بذلك لا تجعل منه بطلا ولكن ربما كانت هي الطريقة الوحيدة الباقية أمامه ليكون رجلا حرا. وقد أظهر زميله، د. محرم كسريزيتشو والذي كان الطبيب البيطري الأول في بانيالوكا وأصبح الآن الرئيس الإقليمي لحزب عزت

بيجوفيتش SDA بعضا من القدرية نفسها عندما ظهر في فندق بوسنا وقابل فانس وأوين على انفراد ثم أدلى بحديث في مؤتمر صحفي في قاعة طعام الفندق للصحافة الدولية شرح فيه عملية التطهير العرقي بالتفصيل. وعندما قام ليغادر المكان قال: «اجعلوا من ذلك قصة جيدة» ثم أضاف بهدوء بعد التوقف ليتأمل يده المرتعشة قليلا: «لعلي كتبت الآن نعيي بنفسي».

وقد نجحت روبين زيبرت بالفعل في ضمان حياة كريزيتش لفترة طويلة، كانت ترسل سيارات الإغاثة إلى منزله على فترات متحدية خطر التجول ومعربة عن اهتمامها بسلامته في كل اجتماعاتها مع سلطات بانيالوكا. وربما مازال حيا رغم أنني لم أستطع مطلقا التأكد من ذلك. وهي مشكلة عامة. والواقع أنني لم أعد أستطيع معرفة عدد مرات المحادثات التي أجريتها في البوسنة والتي تبدأ بـ: «هل تذكر السيد إكس؟ أمازال على قيد الحياة؟» أو عدد الردود التي اتخذت شكل: «لست متأكدا. فلم أسمع شيئا؟». عندما تخبر شخصا في سراييفو أنك ذاهب إلى بانيالوكا فإنهم أحيانا يعطونك أسماء أقارب هناك، آملين أن تزيل شكوكهم. وقد تعلموا بحق أن يتوقعوا الأسوأ. أما عن موت الرجل المرموق فإنني وللأسف لست في شك من أي نوع. فقد قال لي إنه لا يستطيع مطلقا أن يغادر بانيالوكا فالبعد عن فنه وسجاجيده سيسبب ألما شديدا له: «إنك تعرف طبيعة جامعي التحف. إنهم لا يصدقون أن هناك فرقا بينهم وبين كنوزهم» فأوضحت له قائلا: «ولكنك ذكرت لي أنك تملك منزلا على الساحل. فلعلك وضعت بعض كنوزك هناك كذلك». فما زاد عن أن ابتسم وهز رأسه وأجاب في حزن: «كما تعرف فالأمر ببساطة ليس ممكنا لي. فقد أخرجت أسرتي وهذا يكفي. إن مكاني هنا، وسواء كنت مستريحا فوق الأرض أو تحتها فعلي أن أن أبقى في بانيالوكا».

كان الرجل المرموق يتلو صلوات موته. فطالما كان أحباؤه في سلام فأي عناء آخر هو قادر على تحمله. كان غير الصرب الآخرين في بانيالوكا مازلوا يحاولون التوافق مع موت أحبائهم. وكان أحدهم هو الذي حكى لي حكاية مازلت أشعر بأنها تجسيد صادق لمأساة مسلمي البوسنة أو «البوسنياك» كما أسماهم. قال: «كان أخي غير الشقيق أول القتلى. كان مدرسا في مدرسة ابتدائية في قرية صغيرة. ولم يكن الهجوم

مفاجئنا. جاء الجيران وأخبروه: «إنك مثقف والشتنيك يقتلون جميع المرموقين المسلمين. وعليك أن تهرب. اذهب إلى نهر «السافا»، فالتيار ليس قويا هناك. وأنت تستطيع السباحة والنجاة بحياتك». لكن أخي رفض وقال: «إنني لن أغادر فلم أفعل أي شيء ضد أي شخص إنني حتى لست مسلما متدينا فأنا أشرب الخمر وآكل لحم الخنزير» وبذلك فقد بقي وأتى الجنود وقتلوه كما سبق وحذره القرويون. ثم استطرد يقول: «والآن أظل أفكر في موته ولكنني لا أستطيع الكراهية.

إنني لا أستطيع خلق الكراهية. إنني أحيانا أتضرع إلى الله وأنا مسلم غير متدين أن يأتي ويزيل من وجه الأرض أولئك الخنازير الذين قتلوا أخي ولكنني أدرك أنني لا أستطيع أن أرفع اصبعي للمساعدة في إزالتهم. إنني أتساءل طوال الوقت هل أنا على حق في أن أكره؟ هل أنا على حق في التمسك بمشاعري العالمية؟ أظن ذلك، رغم أنني لست واثقا. ففي المدارس، عندما كنت صغيرا درسوا لنا اضطهاد النازيين لليهود. بدا وكأن ذلك تاريخ سحيق، قطعة فنية في متحف، شيء قد تقرأ عنه. أتذكر النظر في الصور حيث يصطف اليهود ليركبوا القطارات إلى أوسكوفتز وبصورة ما لم أكن أصدقها مطلقا. لا أقصد أنني لم أصدق موت ست ملايين يهودي، فأفكر فقط لم أصدق أن هذه حقيقة. ربما لأن الصور كانت بالأبيض والأسود. الآن نحن اليهود، نحن مسلمو بانيالوكا. فأنا أرى أصدقائي مصطفين على محطة الباص هنا بينما هناك شائعة بأن من الممكن أن نغادر فأفكر أحيانا «أن الأمر حدث في الأربعينيات، ولكنه الآن بالألوان وهم ليسوا اليهود بل نحن».

وكرر قائلا «أحاول ألا أكره. أحاول ألا أسترسل في أفكاري السافلة» بعبارة أخرى وأخلاقيا على أدنى تقدير، استمر الرجل في محاولة أن يكون بطلا — وهي في مفهوم شمال البوسنة تعني أنه يستطيع فقط أن يكون شيئا واحدا: ضحية. قابلته في خريف ١٩٩٢. وبعد عام ونصف كانت الأمور قد صارت إلى الأسوأ. لقد هرب بالفعل من بانيالوكا كما فعل كثيرون آخرون. فبالنسبة لغير الصرب أفسح الأمل في عدم الأمل السبيل إلى إدراك أن كل شيء قد ضاع. فبدلا من التمسك بمنازلهم وهويتهم المدنية في بانيالوكا كما فعل الرجل المرموق، وبشجاعة عظيمة في مقاومة جميع ضغوط السلطات الصربية لمغادرتهم، فقد كان الناس يستجدون إجلاءهم.

فقد احتشدوا أمام مكاتب لجنة الأمم المتحدة للإغاثة وطالبوا مع ممثلي ICRC الزائرين لجنة الصليب الأحمر الدولي بالمساعدة على مغادرتهم .

في فبراير ١٩٩٤ ، وبعد سلسلة وضيعة من التقتيل والقصف حول مدينة بريبودور (حذرني عامل في الإغاثة قائلا «إنهم جميعا سفلة في تلك المنطقة ولكن جماعة بريبودور هم أسوأ السيئين») حاولت لجنة الإغاثة تنظيم إجلاء العشرة آلاف مسلم المتبقين في بوسانسكا كرايينا . وفي ضوء أهداف صرب البوسنة ظن المرء أن السلطات المحلية ستقفز فرحا لفرصة التخلص منهم . وقد وافقوا بالفعل على الصفقة ، ولكن رادوفان كارادزيتش تدخل عندئذ قائلا بأن كل شيء على مايرام وأنه لن يكون هناك تقتيل بعد ذلك -قائلا إن ماحدث كان حوادث منعزلة- وأنه سيرسل محققين من بالي لمعرفة ماحدث في الواقع . وقال من مقر رئاسته : «إذا قام أحد بقتل المسلمين أو سلب حقوقهم الإنسانية فسوف ينال العقاب» وتراجعت لجنة الإغاثة عندما لم تستطع إجبار الصرب على السماح بالإجلاء . وتم تعليق الإجلاء ثم ألغي . وأعقب ذلك توقف مؤقت خمدت فيها اهتمامات الإعلام .

ثم استؤنف التقتيل والقصف وظل الضحايا كما هم ضحايا أيا كان التهديد الذي شكلوه ومهما تضاءل عددهم . وسواء شاهد العالم أو غض الطرف وسواء عملت وكالات الإغاثة والأمم المتحدة أم صمتت فقد استمرت الإبادة الجماعية . وانتظر مسلمو البوسنة الموت أو التشريد .

الفصل الخامس

كان التطهير العرقي في البوسنة بقصد إذلال شعب وتدمير ثقافتهم بمثل ما كان بقصد قتلهم . فلم يكن العدوان الصربي على التراث المعماري العثماني والإسلامي في كل أنحاء البلد ناتجا عن القتال –وكما يقول الجنود دمارا مصاحبا– بل كان هدفا مهما للحرب . فبالنسبة لقيادة صرب البوسنة لم تكن صربنة مناطق في البوسنة ، والتي كانت مختلطة قبل الحرب ، لتتحقق بمجرد طرد كثير من غير الصرب الذين عاشوا في القرى . فحتى بعد عامين من القتال ، كان من المألوف أن تقابل أناسا في معسكرات اللاجئين يسألون متى ينتهي «كل هذا» ومتى يعودون للعيش مثلما كانوا من قبل . فطالما استطاع المسلمون من الطبقة المتوسطة الاستمرار في حياتهم المهنية في المدن وطالما استطاع اللاجئون المسلمون أن يتصوروا أنهم في يوم ما ، عندما ينعكس الميزان ، يستطيعون العودة إلى منازلهم التي طردوا منها ، إذن فالتطهير العرقي غير ناجح . لقد كانت المذابح عند بدء القتال في ربيع ١٩٩٢ مجرد البداية . أما العملية أو البرنامج الذي مثّل تطهيرا عرقيا بالضرورة فكان ينطوي على إعادة كتابة التاريخ البوسني كذلك .

في مدينة زفورنيك ، والتي كانت تضم قبل بدء الصراع غالبية مسلمة رغم متاخمتها لصربيا ، كانت السلطات الصربية تحب أن تتفاخر أمام المراسلين الزائرين بخططها لإعادة تسمية المدينة ، حيث يصرون على أن الاسم الصربي القديم كان زفورنيك ثم أضاف الأتراك حرف الراء . كما يقولون لك إن ذلك كان جزءا من الإبادة الثقافية التي ارتكبها العثمانيون ضد الشعب الصربي ، والآن أمكن تصحيح الخطأ أخيرا . وإذا طرحت على المسؤولين من صرب البوسنة في المدينة أن المسلمين ، فوق كل اعتبار ، شكلوا الأغلبية في زفورنيك لفترة طويلة ، فإنهم عادة ما يردون بحقائق مضادة فيقولون إنه لو لم يكن كثير من الصرب قد قتلوا على يد الفاشيين في الحرب العالمية الثانية لظلت الأغلبية للصرب في زفورنيك . كما يضيفون أن الصرب كانوا

يمثلون الأغلبية قبل ١٩٣٩ . كانت تلك إحدى المجازات المألوفة في التفكير القومي الصربي. فحتى في مقاطعة كوسوفو الصربية حيث كان ٩٠٪ من السكان عام ١٩٤٤ من الألبان غالبا ما يبدي القوميون الصرب ملاحظة تقول -وكأن تلك الملاحظة ذات مغزى كبير- أنه لم يكن هناك وجود ألباني في المنطقة قبل القرن الرابع عشر. ومقارنة بذلك فإن محاولة إلغاء شرعية مسلمي البوسنة تصبح مهمة أسهل بكثير.

قبل بدء القتال كان يوجد تقريبا ألف مسجد في بوسانسكا كرايينا . وبحلول شتاء ١٩٩٤ بالتأكيد لم يكن هناك أكثر من مائة وربما أقل كثيرا. وحتى مسجد فرهايد الكبير، وهو ربما أجمل مثال على العمارة الإسلامية في البلقان في القرن السادس عشر، لم يسلم كذلك. فعلى مدى السنة الأولى من القتال كان يقف، غير بعيد من الميدان الرئيسي في المدينة، كأثر على كل من الماضي الإسلامي والحاضر المسلم لبانيالوكا. لقد تم تشويه جانب من واجهته بصليب مخدوش طبع على كل طرف فيه أربع حروف c (وهي حرف S في الأبجدية السيريلية) تمثل الشعار «الوحدة وحدها تنقذ الصرب» ولم يكن في ذلك شيء لافت للنظر. فقد كان أي مسكن لغير الصرب أو مساحة في متناول اليد على أي حائط في القرى والمدن التي استولى عليها التشتنيك ملطخا بذلك الصليب الأرثوذكسي وتلك الحروف الأربعة مصحوبة غالبا بالحروف JNA (الجيش القومي اليوغسلافي) وعبارة تفاخر أو الأسماء الأولى للجنود. لكن أحدا من معظم أهل بانيالوكا - الصرب وغير الصرب على السواء- أو الصحفيين الزائرين وعمال الإغاثة لم يكن يساوره قلق بشأن المسجد الكبير. فعلى عكس المسلمين أنفسهم بدا آمنا.

وخلال زيارة سايروس فانس وديفيد أوين لبانيالوكا في سبتمبر ١٩٩٢ كان رادوفان كارادزيتش يتفاخر علنا باستمرار وجود المسجد. فقد حيا مفاوضي الأمم المتحدة والمجتمع الأوروبي عند توقف موكب سياراتها في الميدان الرئيسي لبوسانسكا جراديسكا على الشاطيء الجنوبي لنهر سافا. وقال كارادزيتش، وهو يلوح بذراعه نحو برج كنيسة مجاورة: «كما ترون، هذه كنيسة كاثوليكية وهي لم تدمر مثل المسجد تماما. نحن نعيش جميعا في سلام هنا وفي كل أنحاء مناطق البوسنة الواقعة تحت

سيطرتنا وحيثما لا يهاجمنا المسلمون . إننا لا نستطيع العيش في بلد واحد مع المسلمين . أما إذا عاشوا معنا ولم يهاجمونا فلن نؤذيهم وسنحترم دينهم . وهو ما ينطبق أيضا على بانيالوكا» .

وفي بوسانسكا جراديسكا اتضح أن الكنيسة الكاثوليكية المذكورة كانت مغلقة بالمتراس وكان المسجد مفتوحا كما ذكرت . لكن كان خاليا ومشوه الجدران وكانت تسري نكتتان بين غير الصرب في ذلك الوقت في بانيالوكا . تقول الأولى «ما تعريف السلام الصربي؟» وتكون الإجابة : «صربيا الكبرى حتى المحيط الهادي» . وتسأل النكتة الثانية كيف يعرف المرء الفرق بين كنيسة كاثوليكية وأخرى أرثوذكسية ويكون الرد : «الأرثوذكسية هي التي مازالت قائمة» . ولكنني عندما سمعت النكتة للمرة الأولى لم يكن هناك شخص واحد، فيمن أعرفهم على الأقل - أجنبي أو بوسني - يتصور أنه بعد ست شهور وفي أمسية واحدة وبعد تسوير الميدان الرئيسي ، ستقوم المقاتلات الصربية بنسف جميع المساجد الخمسة في شمال شرق مدينة بيلينا البوسنية (كان يمكن ألا يذاع سر الدمار لو لم يهرب جابي رادو مراسل ITN فيلما عما حدث) أو أنه بعد ست شهور أخرى سيتم تدمير مسجد بانيالوكا الرئيسي بالديناميت . لقد رأينا كيف كانت الأمور سيئة في الريف ولكننا كنا نعزي أنفسنا بتصور أنه ، في مدن مثل بيلينا أو زفورنيك أو بانيالوكا ، وهي الأماكن التي أخذتها القوات الصربية في الأيام الأولى من القتال ، أسوأ الأمور قد حدثت وانتهت . وفي النهاية ، ألم يحصل الصرب على كل شيء أرادوه؟ ألا يمثل استنزاف جهد القوات في عمليات اضطهاد السكان غير الصرب أو إضاعة المتفجرات في نسف الكنائس والمساجد من الناحية العسكرية عملا أخرقا طالما أن الحرب مازالت قائمة .

أو هكذا كنا نفكر على أية حال . وباسترجاع الأحداث ، فإن تدمير المساجد في بوسانسكا كرابينا كان شاهدا على سذاجتنا حين اعتقدنا أن عدم وجود سبب عملي لدى الصرب لفعل شيء يعني أنهم لن يقوموا بفعله . وأظن أن ما فات الكثيرين منا هو أن الصرب اعتبروا أنفسهم الجانب المجروح وأنهم يقومون بحرب دفاعية . . ففي مقابلة بعد أخرى يركز كارادزيتش علي تلك النقطة بدرجات متفاوتة من اللباقة والبلاغة . كانت إحدى جمله المأثورة : «نحن الصرب ندافع فقط عن أنفسنا ضد

هجوم المسلمين» وفي تراجع واضح نجده يستخدم كلمة أهوال الحرب، فقد قال مرة «إنها الحرب الأهليـة، فماذا تتـوقعـون؟» ليثبت أن الصرب والمسلمين لا يستطيعـون العيش معا في البوسنة وأن مايحاول الصرب في الواقع إنجازه هو في مصلحة المسلمين أيضا سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه.

والواقع أن هنـاك شك فيما إذا كان كـارادزيتش نفسه يصـدق أيا من ذلك. وفي محاولتنا لاستشفـاف كنه مـا يحدث في البوسنـة فمن المهم ألا نأخذ ادعاءات القيادة الصربية بشكـل سطحي. فعلى أية حـال غالبا مـا كانت الحروب تـدور بسبب المال أكثر منها بسبب الأيديولوجيات. ولقـد لعب كارادزيتش نفسـه على إوتـار سياسية عدة قبل أن يصبح قوميا صربيا، بما في ذلك نشاطه لفترة قصيرة كأحد مؤسسي حركة الخضر في البـوسنة. أمـا الرئيس الصربي سلوبودان ميلـوسيفيتش، وهو اقتصـادي بالممارسة، فقد قـدم نفسـه على أنه مضاد للقومية، وبيرجماتي تابع لتيتـو قبل أن يختار اللعب بورقة القوميـة في صربيا. وعندما كان يلبس المسوح الأيديـولوجي السابق فقد تمادى إلى درجة أنه استنكر مذكرة الأكـاديمية الصربية للفنون والعلوم - التي اعتبرها كثيرون المخطط الأيديولوجي للقوميـة الصربية التي ستظهر في أواخـر الثمانينيات - على أنها مدمرة بصورة مرفوضة للوحدة اليوغسلافية.

من جانب آخـر، بدا الجنرال ميلاديتش بـالفعل خلال الحرب مقتنعا بأنـه قومي صربي في الـوقت الذي أظهـر عدد محدود من المسؤولين في بالي بـوضوح أنهم أعطـوا إجازة لأحاسيسهم كلية. أمـا بيليانا بلافيتش والتي كانت بغير حـد أغرب المجموعة فقـد استقبلت مرة جـوزيـه ماريـا منـديلوس، رئيس المفـوضيـة العليا لـلاجئين في يوغسلافيا السابقة وهي تشكو من أن «الرضع الصرب يقدمون أحياء طعاما لحيوانات حـديقة الحيـوان في سراييفو». قـالت ذلك في اللحظة نفسهـا التي كان يجازف فيهـا حراس الحديقة بحياتهم للذهاب إلى الحديقة لإطعام الحيوانـات، وهو عمل بطولي بـلا طائل، حيث نفقت جميع الحيـوانـات أخيرا من الجوع. وحتى منديلـوس، رغم كونه دبلوماسيا محنكا، لم يستطع حفظ اتزانه العقلي وصاح بلكنته الإنجليزية الثقيلة «يـا سيدة بـلافيتش إذا كان البـوسنيون يقـدمون الصرب الأحيـاء طعامـا لحيوانـات الحديقة، فلماذا تموت حيوانات الحديقة جوعا؟».

ولقد كان هناك أناس مثل بيليانا بلافيتش بين الصرب العاديين، والذين كانت التصريحات الغريبة من النوع الذي قالته لنديلوس بالنسبة لهم هي العملة السائدة في التلفزيون الذي يشاهدونه والراديو الذي يستمعون إليه . ولكن كانت هناك أفكار أقل تطرفا تؤثر فيما يفعلونه، وبصفة خاصة فإن الصرب الذين أتوا من أماكن بعيدة مثل بلجراد أو نوفي ساد ليستقروا مع عائلاتهم في المنازل التي أجلي منها المسلمون والكروات في بانيالوكا أو بيلينا أو فوكا قد يكونوا قد أصيبوا بحمى القومية العرقية ولكنهم كانوا يحصلون على شيء مقابل لا شيء. وربما كان بإمكان كارادزيتش أن يدعي قبل ١٩٩٢ أن صرب البوسنة كانوا يسيطرون على ٦٠٪ من الأرض (قال مرة إن المسلمين يفضلون الاحتشاد في المدن فليس من طبعهم العمل في الأرض)، ولكن أرقامه ليست مشكوكا بها فحسب بل إن مناطق قليلة في البوسنة كانت للصرب وكانت معظم القرى والمدن مختلطة بعكس منطقة كرايينا في كرواتيا . وقد مثل التطهير الصربي، والذي كان استراتيجية عسكرية وهدفا لحرب قوات صرب البوسنة، سبيلا لقلب ذلك . بهذا المعنى فإن حرب الصرب على البوسنة لم تكن حربا أهلية أو هيجانا قاتلا لشعب أصابه الجنون بفعل الخوف والأيديولوجية بقدر ما كانت اغتصابا فظا للأرض وآلية سافرة لاستئثار جماعة بعينها بامتلاك الأرض، والتربح منها، ثم توريثها لأطفالها في النهاية .

إن محاولة البحث عن معنى لما كان يجري في البوسنة من خلال التحدث مع كارادزيتش، وهو درس تعلمته أخيرا الموجات المتلاحقة من مسؤولي الأمم المتحدة مدنيين وعسكريين والذين أرسلوا للتعامل معه، كان أمرا ميئوسا منه. فقد كان كارادزيتش كذابا ليس بمعنى أن جميع السياسيين يكذبون، بل بالمعنى الفصامي المشابه للحالات التي سبق أن عالجها في قسم العلاج النفسي بمستشفى كوسوفو بسراييفو. وسواء تعلق الأمر بزعمه، قبل فرض حلف الناتو لمنطقة «حظر الطيران» فوق البوسنة والهرسك -بأن طيران جيش صرب البوسنة لا يقوم بأي غارات أو نقل للقوات، أو إنكاره أن القذائف الصربية التي تمطر سراييفو كانت من مواقعه- لقد قال مرارا وتكرارا: «إنهم المسلمون الذين يطلقون القذائف على أنفسهم. إنهم يأملون في كسب عطف العالم» – أو حتى الادعاء بأنه لا يوجد شيء اسمه التطهير

العرقي، وهو تعبير أحياه كارادزيتش نفسه، فقد بدا أنه ليس هناك حدود لما كان راغبا في الوصول إليه. ولم لا؟ فما تعلمه كارادزيتش والقادة الصرب الآخرون على مدى السنتين اللتين غزوا فيهما البوسنة هو أنه مهما فعلوا فإن القوى العظمى والأمم المتحدة لم يكونوا سيحركون ساكنا لإيقافهم. وإذا كانت أفعالهم لن تنزل العقاب فوق رؤوسهم فلماذا تكون لكلماتهم أية نتائج؟

بل لقدقام فريق سينمائي تابع لمحطةBBC كان يتابع كارادزيتش في صيف ١٩٩٢ بتسجيل حديث بينه وجنرال ميلاديتش وبيليانا بلافيتش عن شكاوى الحماية الدولية بخصوص نشاط الصرب الجوي وكان المنظر سيرياليا: يبلغهم كارادزيتش بالاحتجاج فتقول بلافيتش ببساطة «لم تكن الطائرات في الجو» لكن حتى كارادزيتش لم يستسغ ذلك حيث قال لها بغضب «بالطبع كانت في الجو يا بيليانا، كنا نطير كالمجانين ذلك اليوم». أما رد فعل ميلاديتش فكان أن «ينفلقوا» وظهر وهو ينقر بأصابعه وغضبه يتزايد من المحادثة كلها. ومع ذلك ففي النهاية تقرر أن يقوم كارادزيتش بإعلام الأمم المتحدة بأن الطائرات كانت في الجو لأنه كان يوم الاحتفال بـ «يوم الطيران» الصربي. أما مسألة ما سيفعلونه إذا لم تقبل الأمم المتحدة هذا التفسير فلم ترد في الحديث مطلقا.

وكان كارادزيتش وميلاديتش وبلافيتش على حق في افتراضهم أن على الأمم المتحدة أن تقبل أي تفسير يقدموه. ورغم أن ما حدث بعد ذلك أثبت أنهم كانوا مخطئين في نشاطهم الجوي - إذ تم فعليا تطبيق قرار المناطق التي «يحظر فيها الطيران» - فإن ما وقع من أحداث فيما بعد، سواء كان ذلك في بانيالوكا عام ١٩٩٢ أو في سراييفو منذ البداية وحتى فبراير ١٩٩٤ أو في جيب غوراجده بعد ذلك بشهرين، أثبت صواب رأيهم في الاعتماد على إمكان التصرف في حصانة ويقولون ما يريدون.

بعد أن سقطت قذيفتا مورتار بجوار مخبز مركزي في وسط سراييفو في أغسطس ١٩٩٢، وقتلت ستة عشرة فردا وجرحت كثيرين، آخرين أسرع كارادزيتش بإصدار بيان ادعى فيه أن الحكومة البوسنية زرعت ألغاما أرضية تحت الموقع. ولم يكن مهما واقع أن اللغم يترك حفرة في الأرض أما المورتار فيحدث ذلك الرش المميز والذي

يشبه حفر مخالب حيوان. وكان يمكن لضغط من قوة عظمى أن يجعل كارادزيتش يغير قصته ولو بوضع اللوم على عنصر مجرم داخل جيش صرب البوسنة أو التعويل على حقيقة أن– وكما اعترف مرة بأنه ربما أن «حالات اغتصاب قليلة قد حدثت»– «كل حرب تنتج قليلا من المرضى النفسيين». وعلى أي حال والأمور على ماهي عليه فلم يكن الصرب يخافون أيا من أحاديث المراسلين الأجانب أو التأنيب الواهن من الأمم المتحدة. بل إن الأمم المتحدة تصرفت في حالات عدة كحليف للصرب، والحالة الأشهر في هذا الصدد هي حالة مذبحة المخبز المركزي نفسه حيث فشل كثير من مسؤولي قوة الحماية هناك في استنكار مزاعم كارادزيتش حول المتسبب في الحادث في بادئ الأمر.

فقد أصر قائدها الكندي، اللواء لويس ماكينزي في ذلك الوقت، ثم في مذكراته «حفظ السلام» على وجهة نظره من أنه من المستحيل معرفة أي الجانبين ملام أو حتى معرفة ما إذا كان الدمار نتيجة نيران المورتار كما ادعى البوسنيون، أو من المتفجرات، كما ادعى الصربيون.

ومع ذلك «فالرش من المورتار» المميز تماما كان وسيظل هناك ليشاهده أي شخص. على أن الأمر تعلق في النهاية بمعرفة قادة الصرب أن الحرب الدعائية الوحيدة التي عليهم أن يكسبوها، طالما كان المجتمع العالمي في سباته، كانت في صفوف شعبهم هم. وقد كانوا في هذا ناجحين بصورة مذهلة. فخلال سفرك داخل الأراضي التي يحتلها صرب البوسنة كان من الشائع أن تقابل صربا تزعجهم الحرب ومرتعبين من الطريقة التي مزقت بها البوسنة. ولكن كان من المستحيل أن تجد بينهم شخصا يصدق أن الجانب الصربي هو الذي بدأ الصراع أو أن الصرب لم يكونوا هم الضحايا الذين أسيء فهمهم. كان الصرب العاديون يتكلمون بحيرة حقيقية من موقف القوى الغربية. أخبرتني مدرسة ثانوي في إليدزا –ضاحية من سراييفو– خلال صيف ١٩٩٣ والدموع تنهمر من عينيها: «تعودت أن أحب أمريكا. ولفترة قلت لنفسي إنكم الأمريكان كنتم مخدوعين، ولكني الآن أدرك أنكم جميعا أعداؤنا وأن علي أن أتعلم التفكير فيكم بهذا الوضع– رغم أنني لا أريد ذلك. إنني أرى ما تكتبونه عنا، تلك الأكاذيب، ولا أفهم».

سألتها: إذا كان الصرب هم الضحايا الحقيقيين في الحرب، فلماذا يواصلون قصف سراييفو بلا رحمة ولماذا يتحتم على أطفال سراييفو أن يموتوا على أيدي القناصة الصرب. فتنهدت وهزت رأسها مستنكرة في رقة وقالت: «إذا كنا نقصف المدينة، فذلك فقط لأن المسلمين يصوبون علينا أولا، أليس لنا الحق في الدفاع عن أنفسنا؟ ألا تعتقد أن لكل آدمي الحق في ذلك حتى نحن الصرب الأشرار؟ إنني متأكدة أنه إذا أوقفوا نيرانهم فسنوقفها نحن فورا كذلك. لا أحد يريد الحرب».

فسألت وذكريات الأطفال المقعدين في جناح الأطفال في مستشفى كوسيفو تتواتر مرعبة وعفوية في ذهني: «ونيران القناصة».

فنظرت إلي في برود وقالت: «أعتقد أنك مضلل. القنص هو سلاح الجبناء. والصرب لا يستطيعون أن يتصرفوا بهذه الطريقة المشينة. إنني من سراييفو وقد ألقيت خارج بيتي على يد المسلمين وكثير من الجنود جاءوا من هناك كذلك. وهم لا يقتلون الأطفال. وإذا كان الأطفال يقتلون فذلك لأن المسلمين يفعلون ذلك لإلقاء اللوم على الشعب الصربي».

إن أي شخص قضى بعض الوقت في قلب سراييفو، حيث يستطيع القناصة رؤية والتقاط ضحاياهم وحيث كان مجرد الوقوف في الشباك، طوال الحصار، مغامرة بحياتك، سيميل إلى الشك في صحة قواها العقلية. ولكن إخلاصها لم يكن محل تساؤل ولعله لا يجب أن يكون محل استغراب، فالمعلومات الوحيدة عن الحرب التي تلقتها هذه المرأة ولأكثر من عام، ماعدا ماجاء خلال المقابلات بالمصادفة مع الصحفيين الأجانب وعمال الإغاثة والذي أسقطتهم من حسبانها كموالين للمسلمين، كانت فقط ما يبث كل ليلة على شاشات تلفزيون صرب البوسنة والمذياع. والمصدر الوحيد الآخر هو ما اختار أن يقوله لها المحاربون العائدون من الجبهة. وهذا لا يعني أن المحاربين أنفسهم لم تكن لديهم شطحات مماثلة من الإيمان والخيال. فعلى دشمة محاطة بأكياس الرمل علي تل فوق سراييفو، في مكان لا يبعد كثيرا عن الأرض المشاع لمقبرة اليهود في المدينة، قال لي محارب صربي ملتح: «قبل أن ينتهي هذا الصيف ستكون قد طردنا جيش الأتراك من المدينة مثلما طردونا من ميدان القتال في كوسوفو عام ١٣٨٩ والذي كان بداية هيمنة الأتراك على أرضنا. ستكون

تلك نهاية الأمر بعد تلك القرون القاسية».

وبالمقارنة برفاقه الذين قابلتهم ـ كانت أذواقهم تميل إلى صور فتيات الجدران على طراز بنتهاوس وصور القديسة سافا وهي القديسة الراعية لصرب البوسنة ـ كان هذا الرجل مثقفا، فمثل المرأة التي قابلتها في إليدزا، كان أيضا مدرسا بالثانوي في ضاحية لسرايفو. وفي وقت لاحق من تلك الأمسية سألني رأيي في روايات جون أبدايك. ولكن عندما كان هذا الرجل يطل على مدينة سرايفو، والتي ظل يطلق عليها نيران مدفعه من عيار خمسين ملليمتر لمدة عام تقريبا، فإنه لم ير ما كانت تعد يوما مدينة غنية بالمعايير الغربية، مدينة الروك آندرول البلقانية، بل رأى موقعا لمعسكرات الجيش التركي الذي احتل البلقان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولعله علم في مكان ما أن الناس الذين كان يطلق عليهم النار كانوا مدنيين ـ بعد عام من الحصار كان بين القتلى ٣٥٠٠ طفل ــ ولكنه في خياله لم يكن يرى أي أحد في ذلك المنخفض الحضري غير الغزاة المسلمين. ولم تكن مهمته قتلهم فالإنسان لا يستطيع قتل الغزاة، إنه يدافع عن نفسه ضدهم، إنه يصدهم. كان يتفاخر قائلا: «إننا نحن الصرب ننقذ أوروبا، حتى إذا كانت أوروبا لا تقدّر صنيعنا وحتى لو كانت تلعنه».

كان ملك بولندي قد أنقذ فيينا عندما كانت الجيوش العثمانية على وشك الاستيلاء عليها في القرن السابع عشر. والآن يتحدث هذا المحارب من صرب البوسنة بفخر عن كيف أنه تعين على الصربيين أن يضحوا بأنفسهم في سبيل قضية أوروبا، في حرب القارة القديمة الدائمة ضد الإسلام والأتراك. عندئذ وعندئذ فقط يكون هناك سلام. قال لي في ضجر: «ولكن عليك أن تفهم أن اللغة الوحيدة التي يفهمها الأتراك هي منطق القسوة. لقد تعود الأوروبيون على فهم ذلك. تعودوا على فهم ما نواجهه وطالما واجهناه هنا في البلقان. لقد ساعدت فرنسا الصرب عام ١٩١١ و١٩١٥ وهناك تمثال للفرنسيين بعد الحرب أقيم عرفانا من شعب بلجراد. كما كانت الولايات المتحدة وصربيا حلفاء في حربين عالميتين. لست أدري كيف نسيتم ما فهمه أجدادكم جيدا، ولكن لا يهم. فعلينا أن نقاتل».

سألته هل كان يعتقد دائما في صربيا الكبرى، فأجاب «لا. قبل أن تبدأ الحرب

ظننت أننا نستطيع جميعا العيش معا في سلام هنا في البوسنة . فقد كان لي أصدقاء مسلمين وبالطبع كثير من التلاميذ . وحتى بعد انتهاء الشيوعية ظننت أن الأمور على مايرام . إن الأتراك منافقون وماكرون . كان عزت بيجوفيتش يقول شيئا على التلفاز ولكن عندما يتحدث مع أعضاء حزبه يتكلم عن بناء دولة إسلامية هنا في البوسنة . ابحث عنهم أو ابحث في مجلة حزبهم SDA . إنني متأكد من وجود نسخ في سراييفو - ستجد قصصا عن بناء مساجد في كل أنحاء البوسنة ، في المدن الصربية . وفي مؤتمر حزبهم عام ١٩٩١ أقسم عزت بيجوفيتش أن يستعيد للبوسنة هويتها المسلمة «الحقيقية» . فماذا كنت تتوقع أن يفعل الصرب؟

هل نسمح لعزت بيجوفيتش وسيسلادزيتش أن يقيما مسجدا في ردهة قاعة البرلمان؟ لقد حاولنا أن نعيش في سلام معهم ولكن في نهاية الأمر أدركنا أن علينا أن نقاتل» . ومع هذه الكلمة الأخيرة أومأ رأسه مؤيدا ثم أومأ ثانية عندما بدأ أحد رفاقه في الموقع المجاور في إطلاق سيل متواصل من النيران على سراييفو .

وعندما تحدث المدرس عن الصرب الذين بقوا في سراييفو ، والذين ظلت غالبيتهم العظمى موالية لحكومة عزت بيجوفيتش ، كان يتكلم عنهم على أساس أنهم خمسين ألف رهينة صربية حجزوا من قبل المسلمين ، رغم إرادتهم . قال لي «إنهم كانوا سيغادرون لو كان ذلك بإمكانهم» . وحتى في ذلك الوقت ، أي في صيف ١٩٩٣ كان محقا ولكن ليس للأسباب التي تصورها . فحتى ذلك الوقت كانت غالبية أهل سراييفو سيهربون من المدينة لو استطاعوا . ولكن الحقيقة تكمن في أن أحدا لم يرد أن يدع الناس يخرجون : لا الصرب المحاصرين ، ولا الأمم المتحدة ، التي كانت وجهة نظرها أن الاتفاقية التي وقعتها مع الصرب لفتح مطار سراييفو تجبرها على منع البوسنيين من الهرب عبر مدرج المطار خلف الأراضي التي يحتلها صرب البوسنة ، ولا حتى الحكومة البوسنية نفسها والتي أحست أنها لا تستطيع أن تخسر أي أناس آخرين . أما بالنسبة للمدرس فإن اعتقاده أن إخوانه الصرب كانوا محجوزين رغم إرادتهم جعله يتصور أنه ليس فقط محارب مسيحي ، بل ومرة أخرى ، على أنه ضحية . فإذا كان يصوب نيرانه على سراييفو فإنما ليمنع المسلمين من أن يفعلوا بصرب بالي وإليدزا مثل ما فعلوه أو خططوا لعمله مع الصرب الذين

يحجزونهم في العاصمة .

هذا الإحساس بكونهم الفريق المتضرر ساعد على تفسير إحدى تجارب الحياة البسيطة والأكثر غرابة في سراييفو. فقد كانت العادة، عندما كانت الهواتف تعمل، أن يقوم الصرب في التلال من وقت لآخر بالاتصال بأصدقائهم المسلمين والكروات في المدينة . وكانوا على الخط الآخر مصدومين من ذلك وبخاصة عندما اتضح أن أولئك المتكلمين لم يكونوا خجلين مطلقا مما كانوا يفعلونه وأنهم لم يتصلوا للاعتذار أو لشرح وضعهم، بل كانوا مهتمين وعلى أساس شخصي صرف بأحوال أصدقائهم المسلمين ومتلهفين للاتصال بالأشخاص الذين افترقوا عنهم. وكما قالها صديق لي : «إنني قد أفهم أن يطلق زملاء المدرسة القدامى الرصاص علي ولكن كيف واتت «فلادو» الجرأة أن يتصل بالهاتف لمجرد أن يقول (هالو)؟ إنني لم أستطع أن أصدق. إنه يبدو وكأنه لا مسؤولية عليه مطلقا فيما يحدث. لقد سألني عن عائلتي بل إنه سألني ما إذا كنت أتذكر إجازة قضيناها جميعا على الساحل في أوائل الثمانينيات . لقد كان الأمر غاية في الغرابة» .

لكن ما كان لا يدخل عقل أهل سراييفو تحت الحصار كان منتهى التعقل من وجهة نظر صرب البوسنة . فلم يكن لدى الصرب ما يعتذرون عنه . فإذا كانوا البادئين في المحادثات الهاتفية فلأن الاتصال بسراييفو أسهل من الاتصال بخارجها أما حقيقة أن أحد الأهداف الأولى لمحاربي الصرب كان مبنى شركة الهواتف وقطع هواتف معظم الناس فورا فلا أحد يذكرها . إن المسلمين هم الذين جلبوا ما يحدث على أنفسهم، وبينما قد يحس الفرد الصربي بالأسى على صديقه المسلم، فإن هذا الأسى لم يفعل شيئا ليغير من اقتناعه، كمجموع، بأن مسلمي سراييفو كانوا يواجهون قدرهم. ولقد بدا أن الصرب الذين تكلمت معهم والذين قاموا من وقت لآخر بالاتصالات الهاتفية كانوا يشعرون بأنهم هم الذين يتنازلون عن الكثير بالبدء في المحادثة حيث حاولوا بشهامة أن يتناسوا الوضع الحالي وبشكل ما يسترجعون العلاقات الشخصية كما كانوا قبل بدء الحصار.

كان فهم هذه المفاهيم المشوهة أسهل على الأقل في سراييفو، حيث لم تكن لدى الأصدقاء السابقين فرصة مواجهة بعضهم لبعض منذ بدء القتال، منها في مكان

مثل بانيالوكا حيث لم يحدث مثل هذا الفصل الإجباري. وحتى بمعايير بالي وبلجراد كانت الدعاية ضد المسلمين في بوسانسكا كرايينا مبالغ فيها. فبعكس بلجراد، حيث مازال المنشقون ناجحين في إيصال أصواتهم، لم تكن هناك أصوات معارضة في بانيالوكا بأكثر مما في بالي. والأكثر إزعاجا، وبالنظر إلى أن قيادة صرب البوسنة لم تكن موحدة متماسكة، أنه بدا أنه لا توجد أصوات معتدلة بين القوميين الصرب في بوسانسكا كرايينا كذلك. لقد كان هذا النشاط الأيديولوجي الذي عمل به الصرب في بانيالوكا ذا معنى. فقد كان الأمر يتطلب كثيرا من العمل لتتغير مفاهيم الصرب العاديين عن جيرانهم غير الصرب الذين عرفوهم طوال حياتهم للدرجة التي يتصرفون معهم فيها، عندما يلاقونهم، على أنهم مخلوقات غريبة مجرد وجودها يمثل تهديدا لهم. إن دفع الأفراد إلى القتل ليس صعبا بالدرجة التي يبدو عليها. فالوحشية موجودة في كل حرب أهلية ونادرا ما يكون لها عمق أخلاقي (رغم أنه قد يبدو من قبيل التناقض أن الصراع في البوسنة كان مزيجا من الحرب الأهلية وحرب العدوان، لقد كانت بالغة القسوة كالأولى وأحادية الجانب كالثانية). فما إن تبدأ إراقة الدم فإن المقاتل الفرد يتعطش للانتقام قدر تعطشه للانتصار. وحيث إنه في يوغسلافيا السابقة كانت الموبقات ترتكب من جميع الأطراف فقد اتخذت الرغبة في الانتقام شكل موبقات أكبر. ولكن كانت تلك التجاوزات أيضا ومنذ البداية، هدفا في حرب الصرب. فكلما أصبح المسلمون مرتعبين يكون من المحتمل ألا يهربوا ببساطة بل يقاوموا باستمرار للعودة إلى الأراضي التي أخذها الصرب. ولقد كانت قصص الرعب والتعذيب هي العملة السائدة في الأحاديث الدائرة بين اللاجئين البوسنيين الواهنين سواء في المدن والقرى التي تحت سيطرة حكومة البوسنة أو في معسكرات اللاجئين والشقق المكدسة بهم خارج البلد.

وقد صعب على الأجانب تصديق تلك الروايات في بادىء الأمر، ونفاها تماما المدافعون عن الصرب. ومع ذلك فقد ثبت في نهاية الأمر صحة معظم أكثر الروايات فظاعة والتي حكاها مسلمو البوسنة منذ بدء القتال عن عملية التطهير العرقي وهي القصص التي رفضت منذ البداية على أنها مبالغات. كانت الأعداد محل تساؤل. فهل تم اغتصاب خمسين ألف امرأة مسلمة وأجبرت ألوف كثيرة منهن على الإبقاء

على تيار الاغتصاب للنهاية (حيث إن مضامين تلك الخطوة الأخيرة واضحة فبعكس اليهود فإن امتداد العرق للأب أمر محسوم لدى كل من الصرب والمسلمين) أو أن العدد كان «فقط» خمس عشرة ألفا؟ وهل كانت هناك عشرات من المعسكرات السرية حيث يذبح المسلمون أو دستة «فقط»؟ أما المذبحة الجماعية فلم تكن محل تساؤل وكذلك الأعمال الوحشية وعندما قيل إن لاجئا مسلما من بوسانسكي بتروفاك أخبر أحد الضباط العاملين في الإغاثة أن آسريه من الصرب أجبروه على «عض» عضو الذكورة لأحد رفاقه اللاجئين بأسنانه فقد كان أول رد فعل لي - وكل من أعرفهم - هو تكذيب الخبر. وبعد ذلك أرسل الضابط الذي أخذ شهادة الرجل برقية بأنه يقسم بشرف مهنته على صحة أقوال الرجل.

إن قليلا من التأمل لما سبق سيؤدي بنا إلى أن مثل تلك الأعمال الوحشية ليست سوى إحدى النتائج المنطقية للتطهير العرقي. فإذا ما ظللت تكرر على شاشة التلفاز والمذياع وفي كل خطاب إلى قواتك، كما فعل الصرب، أن العدو ليس بشرا، وأنك قدكون نشأت مع ذلك الشخص وقد تظن أنك تعرفه ولكنك في الحقيقة لا تعرفه، أي أنك باختصار، تواجه شيطانا، عندئذ تكون النتائج محتومة سلفا.

فالمسألة لم تعد تتمثل في هل سيكون هناك قتل، بل إلى أي مدى ستستمر إراقة الدماء. ليس فقط القتل بل البتر كذلك، فالمسلمون مختونون أما الصرب فلا وتكون أسهل وسيلة على المقاتلين الصرب لمعرفة ما إذا كان السجين الذي أخذوه مسلما هو أن ينزل سرواله. ومن هناك لن تتبقى غالبا سوى خطوة قصيرة، نفسيا، لكي تقطع عضوه. وذلك أيضا كان متوقعا. فمن الأرمينيين إلى اليهود وحتى مسلمي البوسنة لم تكن هناك حملة تطهير عرقي خلت من السادية الجنسية.

وكما تصرف أولئك الذين قاموا بالتطهير العرقي بثبات وكأن الأعمال الوحشية التي ارتكبوها لها مايبررها، كذلك لم يكن الدعائيون فقط هم الذين يصرون على أن المسلمين أقل من البشر. فقد أوضحت البراءة المحزونة التي أبداها بصدق المقاتلون الأفراد بوجه عام أنهم يشعرون أنهم هم ضحايا الحرب الحقيقيين، وليس من كانوا يقتلون أو يخرجون من ديارهم. ومثل الضحايا في كل مكان، كانوا متعطشين لما كانوا يسمونه عادة بالعدالة ولكنهم كانوا أحيانا راغبين في تصنيفه كانتقام. وعندما

استحوذت قوات الصرب على الأراضي والبيوت وحيوانات المزارع التي أخذوها، كانوا يحرقون البيوت ويذبحون الثروة الحيوانية رغم أنهم يدركون بوضوح أن أفعالهم تلك جعلت من المحال على مواطنيهم الصرب أن يبدأوا بالزراعة. ولكنهم اعتقدوا أن الثمن لابد أن يدفع، فإلى هذا الحد كان شعورهم ثابتا بأن الصرب هم الطرف المتضرر.

ولا مجال للدهشة إزاء هذا الافتقار للحساب الاقتصادي في «حرب القرى» تلك أو للدهشة من تدمير المكتبة الوطنية في سراييفو والتي لم تكن لها قيمة عسكرية بل كان تدميرها مستهدفا بشكل خاص من قبل المسلحين من صرب البوسنة المتمركزين في التلال فوق المدينة أثناء الأيام الأولى. إن الدهشة وتصور أنه كان هناك خطأ ما يعني عدم إدراك المغزى تماما. تماما كما أن الدهشة من سبب تحويل هتلر للمخزون اللازم لإعادة تموين قواته على الجبهة الشرقية من أجل نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال تعني عدم فهم المغزى من المشروع النازي. لقد تم القيام بالتطهير العرقي لإزالة الوجود المسلم من معظم أراضي البوسنة. كان الماضي المسلم وكذلك الحاضر بسكانه المختلطين عرقيا في المدينة هو المستهدف في سراييفو. وفي الواقع، من الصعب القول أي هدف منهما هو الأكثر أهمية. كان من اللازم إزاحة الصرب في سراييفو من عبء مدرسة الدراسات الشرقية ومن المكتبة الوطنية ومن مساجد العاصمة الكبيرة. لم يكن الصرب يستطيعون العيش مع وجود تلك الآثار الضاغطة. وإذا ما قتل أو جرح أفراد من الصرب في المدينة أو حتى ضربت بعض الآثار الأرثوذكسية مثل الكاتدرائية القائمة في شارع فازوميسكينا فهذا هو مايحدث في الحرب. لقد بذل مسلحو الصرب كل مساعي وسعهم، فعلى مدى عامين من الحصار لم تصب مرة واحدة المقبرة الصغيرة في سراييفو حيث يرقد جافريلو برنسيب ورفاقه في حركة بوسنة الصغيرة على الرغم من أنه تم نسف جميع الأهداف حولها. ولكن إذا دعت الضرورة يستهدف الصرب أهدافهم هم دون وخز من الضمير.

وفي القرى كانت العمليات الحربية الجذرية مصحوبة غالبا بعمليات معرفية جذرية مساوية. فبعد ظهر يوم قال لي مقاتل صربي في بانيالوكا «لقد حررنا رادوفاك». كنا في صالة حمام سباحة في مركز شباب المدينة نحاول التخاطب بألمانية

ركيكة ـ وهي عملية زاد من صعوبتها صخب موسيقى u2 في الخلفية. كان هذا في حد ذاته مدعاة للسخرية. كانت الفرقة الإيرلندية معروفة بمساندتها العاطفية لجانب الحكومة البوسنية. ولكن ذلك فعل القليل لكبح الجنود الصرب الذين كنت أشرب معهم عن تشغيل أشرطة موسيقا u2. وقد يتسلى منظرو موسيقى الروك من الغربيين الراديكاليين بالوهم القائل إن الموسيقى الشعبية إباحية ومفسدة بطبيعتها، ولكن في بانيالوكا كان الشباب قادرا على التمييز بين ذوقهم في الموسيقى وسياستهم. كان زلزال الشباب العالمي هو زلزال الشباب العالمي، وكانت الحرب هي الحرب ولم يتدخل أي منهما في طريق الآخر. لم يكن يسهل التمييز بين المقاتل الصربي الشاب الواقف في ملابسه الشبابية المدنية يترنح مع الموسيقى محاولا أن يستكمل المحادثة معي وهو يواصل تطويق فخذ حبيبته وأي مراهق آخر من سان فرانسيسكو حتى بريمين. ولكن التزامه بالموضة العالمية لم يثبط اعتقادا فيه أن من واجبه كصربي أن يقتل وأن يغامر بموته في شمال البوسنة هذا الموسم.

كرر ثانية وهو يجأر بصوته، ظنا منه أنني لم أسمعه في المرة الأولى «لقد حررنا رادوفناك» ورفع سبابته للأعلى فأومأت له فصاح «لقد كان قتالا صعبا ولكننا استعدناها». ثم عرفت فيما بعد من أحد ضابط الإغاثة في بانيالوكا ويدعى بيير أوليير ـ أحد الرجال الشجعان الكثيرين الذين قابلتهم في البوسنة وقد لقي مصرعه في الحرب ـ أن رادوفناك كانت دائما قرية مسلمة بالكامل. وحيث إن المقاتل الصربي من المنطقة فلابد أنه يعرف الحقيقة كما أبدى أوليير وهو يهز كتفه، ورغم ذلك فبالنسبة للصربي فإن هذه الاعتبارات ثانوية فمسلموا رادوفناك لم ولن يستطيعوا أن يكونوا سكان القرية الحقيقيين. فمهما طالت إقامتهم فلن تكون طويلة بما يكفي حسب تفسير الصرب للتاريخ. كان ذلك شكلا آخر للقصة نفسها في كل مرة يهاجم الصرب مكانا ما. فإذا كانت المنطقة محل النقاش غير مليئة بالصرب الذين يضطهدهم أو يقتلهم المسلمون فإن الصرب يحاولون فقط حماية المناطق الصربية في المنطقة. بهذا كان كارادزيتش يبرر قصف سراييفو طوال الحرب عندما أصر بوجه مكشوف أنه ليس هناك حصار فالقوات الصربية فقط تحاول أن تحمي الصرب الذين تصادف أن يعيشوا في جميع الضواحي حول المدينة. لقد قال كارادزيتش الشيء نفسه

تقريبا عندما أصبحت غوراجدة هدفا رئيسيا في أبريل ١٩٩٤ . وعندما لا تصلح أي من هـذه الادعاءات يرجع الصرب إلى التاريخ ويصرون على أن المنطقة محل النقاش كانت يـوما مـا صربية إلى أن قلبت مذبحـة مسلمة أو كرواتيـة مستقبلها الـديمقراطي السليم. ورادفالك مثال على هذا الأسلوب الأخير. فالمسلمون متطفلون وبداية لم يكن لهم أن يعيشوا في القرية .

كانت قوات صرب البوسنة ترسم تكتيكها حسب نوع المنطقة التي يحاربون فيها . ففرض الحصار حول سراييفو كان أحد الأساليب ، أما في قرى البوسنة المختلطة عرقيا فلن يتمكن المقـاتلون من تنفيـذ التطهير العرقي بنجـاح بأنفسهم . فقد كـان عليهم تحويل موقف الصرب المحليين الـذين كانـوا مترددين في المشاركة في القتـال أو الذين عارضوا بصراحة في المشاركـة في الجريمة . كان الدافع الطبيعي لحفظ النفس هو أكبر حليف للمقـاتلين بشرط أن يستطيعوا استجماع الصرامـة الـلازمـة . وكانت إحـدى السبل المستخدمة أن تـدخل مجموعة من المقاتلين الصرب منزلا صربيـا وتأمر الرجل القـاطن فيـه أن يـذهب معهم إلى منـزل جـاره المسلم . وعلى مـرأى من القـرويين الآخـرين ، يســاق إلى هنـاك ويستـدعى المسلم للخـارج ويعطـى الصربي بنـدقيـة كلاشنكوف أو سكينـا ـ السكاكين أفضل ـ ويؤمـر بقتل المسلم . فإذا فعل فقد اتخذ الخطـوة الـلازمة لعبـور الخط الـذي يهدف إليـه التشتنيك . أمـا إذا رفض ، كما فعل كثيرون ، فالحل بسيط . أن يتم قتله على الفور. ثم تكرر العملية مع الصربي صاحب المنزل التـالي وإذا رفض يقتل برصـاصـة . ونادرا ما كـان يضطر التشتنيك لقتل صربي ثالث . وكما أخبرني مقـاتل في بوسـانسكا كـروبا ، ولشـدة دهشتي ، في طرب متبـاهيا بهذا التكتيك «عند البيت الثالث يـرتعدون هلعا ويسألونك أنى تريـد إصابة المسلم وكم مرة» .

لكن في معظم الأماكن لم يكن يكفي هذا الصنف من الرعب البدائي ، فالمطلوب كان شيئـا أكثر من التقتيـل وإشراك النـاس في الجريمـة ، وهو بث الخوف الشـديد . ومنـذ البدايـة ، كان الخوف كـامنا في صميـم كارثـة البوسنـة . فقد كـان الخوف على المستقبل والذي بثه انهيار الاقتصـاد اليوغسلافي في أواخر الثمانينيات في قلوب النـاس العاديين سببـا في أن يفقد كل شخص الثقـة في الآخرين ، وبـدا أن الأفكار الـرجعية

حول الهوية هي وحدها الملاذ من هـذا الخوف . فلم يكن الأمر مقتصرا على واقع أن الناس أحسـوا أنهم كانـوا صربا أو كـرواتا أو مسـلمين قبل ذلك ـ أو أن شعـار تيتو «الأخوة والـوحدة» كـان فقط نفاقا مفـروضـا ـ بل تمثل بـالأحرى في أن إفـلاس فكرة الوطن اليـوغسلافي الـواحد أو بمعنى أدق ، ذبحـه على أيدي القـادة السياسيين من أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش ، هو الـذي بعث مثل تلك الطاقة الجديدة في مشاعر القـومية القـديمة والشكـاوى القـومية . فلم تكن القـوميـة العرقيـة أكثر حتميـة في يوغسـلافيا السابقـة مما كانت الهتلـرية حتمية في ألمانيـا في الثلاثينيات ، كـانت أحد الاحتمالات ـــ كانت حتميـة فقط بمعنى أن كل شيء يحدث فهـو حتمي من منظـور الإدراك متأخر .

بعد سنة من الحرب ، ربما كـان باستطاعة المقـاتل الصربي الشـاب أن يفصـح عن هويتـه على هذا النحـو . ولكن عندمـا سـألته عما إذا كـان قبل بدء القتـال يفكر على النحـو الـذي يفكـر بـه الآن ابتسم وهـز رأسـه : «لا» ثم قـال في تعجب : «كـان لي أصدقـاء مسلمون كثيرون . فـالشـاب الـذي يملك هذا المكان مسلم ، حسنا أعني الشخص الذي كان يملكـه . إنه يعمل لدى الأمم المتحدة هنـا في بانيالوكـا . أحيانا أقول له : فرانزي ، اخرج هذه البذاءة من هنا . كان شـخصا جيدا من قبل . إنك ترى أن المكـان لطيف . وعنـدمـا أتيت إلى هنـا لم أعتقد مطلقـا أن مسلما يمتلكـه . كنـا أصدقاء» ، وأربـد وجهه وهو يقول «ولكنني لم أفهم أشياء كثيرة في ذلك الوقت . لقد ظننت أن المسلمين على مايـرام . كنت أحد الصرب السـذج السفلة . كما تعلم إنكم تقولـون أيها الأجانب أننـا قتلة ، وهـذا افتراء . لكنـي أقول لـك إننا حفنة مـن البلهاء الواثقين في الآخرين . فقد وثقنا في الأمريكان والأوروبيين ووثقنا في المسلمين كذلك ، والآن نجد لزاما علينا أن نقاتل» وخفت صوته وقال «إنه أمر فظيع» .

كان بالطبع يعني أن ماحدث للصرب هـو الأمر الفظيع . فلم يكن لديه تعاطف يضيعه على المسلمين أو الكروات ، رغم أنه قال لي بالفعـل أنه سيدرك الكروات يوما أن الصرب كانوا على حق مع المسلمين . ولكن مابعث فيـه الحيوية كان الخوف ، وما جعلـه قـادرا على احترام نفسـه كـان الاعتقـاد بأن كل شيء قـام بـه كان دفـاعـا عن النفس . لقد تكلم الغرباء ومثقفو البلقـان ، بخصوص هذا الموضوع ، كثيرا عن نزعة

بلقانية متأصلة إلى العنف . ورغم كل هذا الكلام الفضفاض ، لم تكن البوسنة في الماضي مكانا عنيفا بشكل خاص ـ على الأقل بالمعايير العنيفة للتاريخ الأوروبي . كان القرن العشرون استثناء مأساويا ولكنه لم يختلف في البوسنة عن بولندا والناس لا يضمرون بالتساوي الخيالات المتطرفة عن الشخصية القومية البولندية . ورغم ذلك فإن القليل من الأفكار أو الولاءات ينقرض على مدى جيل أو جيلين . والقومية العرقية هي واحدة من تلك الأفكار ، وقد انتصرت في البوسنة عام ١٩٩٤ . وكانت الفكرة الأخرى هي التعددية الثقافية في سراييفو ـ وهي فكرة استمرت على الأقل منذ الفترة التي أصبحت فيها المدينة ملجأ لليهود والسفارديم . لكنها قتلت في البوسنة في ذلك العام نفسه .

ولا يعني هذا أن انتصار القوميين العرقي كان حتميا . فقد كسبوا في صربيا بسبب ما فعلوه وبسبب ما لم يفعله الآخرون ـ وبخاصة في الغرب ـ وليس لأن التاريخ كان إلى جانبهم . كسبوا لأن سلوبودان ميلوسوفيتش كان بكل المقاييس أقوى سياسي في يوغسلافيا السابقة ولأن فكرة صربيا الكبرى كانت متماسكة بصورة جعلت فكرة دولة البوسنة لا تنجح في التبلور ولأن الجنرال ميلاديتش كان يملك مائة آلية ثقيلة مقابل كل واحدة لدى الجانب البوسني . كذلك كسب صرب البوسنة لأنهم عرفوا كيف يستغلون المخاوف والشكاوى القديمة ويعيدون تجميعها وأن يجعلوا الصرب اللطفاء ، وهم أناس من جماعة قومية ليس لديهم نزوع متأصل للجريمة أكثر من أي جماعة قومية أخرى ، يرتكبون الإبادة الجماعية . ثم كان هناك ذلك الخوف الصربي المريع . وكما حذر هربرت أوكون ، وهو دبلوماسي أمريكي أصبح نائبا لسايروس فانس في كل من مفاوضات السلام الكرواتية والبوسنية ، رادوفان كارادزيتش قبل بدء القتال قائلا «إذا استمريتم في الكلام عن الخوف من الموت الذي يحيق بالصرب في البوسنة فستنتهون إلى ارتكاب مذبحة جماعية وقائية» .

وبمجرد أن بدأت تلك المذبحة الجماعية كان لابد من تغذية الخوف . ولو لم تبذل قيادة صرب البوسنة جهدا خاصا في الدعاية فقد كان يحتمل على الأقل أن يكون الصرب العاديون أقل حرصا على الاستمرار في جولات أكثر من التقتيل والطرد ، بعد أن هزموا قوات الحكومة البوسنية واستولوا على الأراضي التي لقنوا أن يشتهوا تملكها في

الشهور الستة الأولى من القتال . «لكن إذا ما ظل كل مسلم حي مصدر تهديد فلابد إذن أن يستمر التطهير العرقي . إن ما بدأ على هيئة تكنيك المذبحة ورعب محض في القرى تطور خلال ستة شهور إلى منهج مدروس لدمار شعب . ففي شمال البوسنة، عام ١٩٩٢ ، تم تقسيم الرجال المسلمين الذين أخذوا سواء أثناء الحرب أو أثناء فترة التطهير العرقي إلى ثلاث مجموعات . فالمهنيون والوجهاء المحليون والشباب القادرون جسمانيا كانوا يفصلون وحدهم عادة ويقتلون على يد مقاتلي الصرب الذين اعتقدوا أنهم ينتقمون لأعمال المسلمين الوحشية التي كانت السلعة الرائجة في تقارير المذياع والتلفاز. فأنت إذا قيل لك مرارا وتكرارا أن رفاقك يخصون ويشوون أحياء على النار المضرمة ويغرقون في دمائهم، وليست لديك مصادر أخرى للمعلومات تعرف منها قصة مختلفة، فإن النتيجة المحتومة أنه لن يمر وقت طويل حتى ترد الصاع صاعين .

ومن جانبهم، لم يكن قادة الصرب يتصرفون عن رغبة محضة في الدماء . فعندما يأمرون بموت أكبر عدد ممكن من المسلمين المثقفين، فإنهم كانوا يريدون أن يضمنوا أنه مهما حدث فإن أية دولة بوسنية مستقلة ستكون بقدر المستطاع ثكلى من الرجال الذين يمكنهم أن يجعلوها تعمل بكفاءة . ويمكن استنتاج نجاح تلك الحملة - والتي أسماها الصحفي البريطاني مايكل نيكلسون «إبادة النخبة» -من حقيقة أنه بصرف النظر عن آلاف قليلة من اللاجئين من الطبقة المتوسطة الذين اتخذوا طريقا إلى زغرب والعدد القليل الذي ذهب إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة البوسنية فإن فئات المهنيين المسلمين في بوسانسكا كرايينا قد اختفوا عن بكرة أبيهم، والذين لم يقتلوا في تلك المفرزة المهلكة كانوا يقسمون إلى مجموعتين . فالأولى، التي لم يكن الصرب قد اتخذوا فيها قرارا بعد، كانوا يحجزون في ذلك الوقت في ما كان يعرف بـ «معسكرات الاستخبارات» ثم يقتل بعضهم بعد ذلك ويفرج عن الآخرين . وأما المجموعة المتبقية والتي يتكون معظمها من الفلاحين وأهل المدن الفقراء فيتقرر الإفراج عنهم منذ البداية ويوطنون فيما كان يسميه الصرب أحيانا «المراكز المفتوحة» والتي كانت عمليا عبارة عن معسكرات يسمح لممثلي اللجنة العليا للصليب الأحمر بزيارتها . وفي تلك المعسكرات بدا أن القليل من المقاومين المسلمين الباقين قد

استسلموا لفكرة أنهم سيغادرون البوسنة للأبد. وبعيدا عن تشكيل طابور خامس محتمل، مثلما تصور الصرب، فإن المساجين الذين قابلناهم نحن الصحفيين كانوا مهتمين بما إذا كانت أي دولة ستمنحهم حق اللجوء، فقد كانوا يعرفون أن كرواتيا مغلقة في وجوههم والآن يعلق الكثيرون آمالهم على دول أوروبا الغربية حيث يوجد عمال بوسنيون. ففي معسكر ترينوبولي كان الرجال الذين قابلتهم متراصين خلف الأسلاك حيث كانوا يرون مزارعهم بأعينهم. لكن ما كانوا يحلمون به هو الفرار. صاح رجل في متوسط العمر متجهم الملامح في مجموعة من الصحفيين الأجانب كنت أسافر معهم «لي أخ في ألمانيا! وهذا عنوانه. هل تظنون أنه يمكنكم أن تأخذوا رسالة له؟». عند خروجنا من المعسكر سمعنا القصة نفسها مرات في ألمانية ركيكة وفرنسية ركيكة وهولندية ركيكة وإيطالية ركيكة وكانت اللعنات تطلق على الحراس باللغات نفسها. كانت الحرب في البوسنة، وفي كرواتيا قبل ذلك، حربا بين العمال والمنفيين والمهاجرين السابقين. ولكن معظم هؤلاء الرجال لم يسبوا ولم يشتكوا، بل وقفوا في بساطة كما يفعل المساجين.

لكن بالنسبة لمرافقنا الصربي كان هؤلاء الثلاثة آلاف مسجون القذرين عديمي الأخلاق يمثلون طليعة حشد مسلم اجتاحوا تقريبا الأمة الصربية التي كانت غلطتها الوحيدة، كما كررها لنا كثيرا خلال اقتيادنا من بانيالوكا إلى المعسكر، أنها كانت متسامحة أكثر من اللازم وموافقة على السماح لجماعات قومية أخرى أن تزدهر على حساب الصرب. وخارج قرية على طول الطريق الضيق قرب المعسكر أكد لنا هذا الشاب -كان مراسلا مبتدئا في الجريدة الرئيسية في بانيالوكا قبل تجنيده- أننا سنري أن المسجد في تلك القرية ترك سليما رغم القتال. قال «إن أي منزل مسلم رفع راية الولاء البيضاء لم يمسسه جنودنا. دار القتال فقط لأننا هوجمنا من المجاهدين». بالتأكيد كان للعلم الأبيض في البوسنة معناه نفسه في أي مكان آخر من أوروبا -الاستسلام- ولكنه استرسل في خطبته الطويلة نوعا ما عن الوحشية الحيوانية للمقاتلين المسلمين. وقال في تجهم «إن الأسوأ هي الهندزار» وهي كلمة ارتبك المترجم حتى استطاع أن يترجمها أخيرا «نوع من سكاكين المسلمين».

تعني كلمة هانـدزار السيف المعقوف وباستخدامها لم يكن الدعاة الصربيون

يركبون فقط موجة الهستيريا السائدة بين صرب البوسنة والمعادية للمسلمين بل كانوا يحاولون كذلك أن ينكؤوا جراح الحرب العالمية الثانية . وإذا كان الشباب قد سمع عنها فذلك عن طريق أجدادهم . كانت الهندزار إشارة إلى معركة كوسوفو بالطبع ولكنها كانت كذلك تلميحا إلى فيلق هندزار الذي كونه مفتي القدس للألمان في البوسنة عام ١٩٤٣ . ورغم أن كثيرا من مسلمي البوسنة حاربوا مع أنصار تيتو ولقوا أكبر الخسائر، بالنسبة لتعدادهم، عن أي مجموعة قومية في البوسنة أثناء الحرب، ومعظمها على أيدي قوات التشتنيك الملكية الصربية بقيادة جنرال ميهيلوفيتش فقد ظلت تلك الذكرى المريرة عالقة عند الصرب . والآن يغذى بها الأولاد سهلي الانخداع، الجيل البعيد عن الأرض، مثل مرشدنا في معسكر تريشوبسولي ذلك اليوم .

عندما دخلنا القرية كانت هناك أعلام بيضاء فوق المنازل وحتى على كومة أخشاب مكدسة في حقل قريب . وكما في كثير من المدن البوسنية حيث عاش -قبل الحرب- الصرب والمسلمون في سلام على مدى جيل على الأقل، كانت منازل المسلمين هي التي تحولت إلى كومة أحجار بفعل القصف أو احترقتها الطلقات في حين ظلت بيوت الصرب قائمة لم تمس : بيوت المسلمين التي بدا أنه قد أضرمت فيها النيران بعد إصابتها بالرصاص وبيوت الصرب التي لم تكن تبدو شاذة عن الكميونات الريفية المزدهرة في بعض الأماكن في النمسا أو سويسرا . كان شائعا في يوغسلافيا بين العمال الزائرين أن يعودوا إلى قراهم كل صيف ويبنوا جزءا آخر من المنزل الذي من أجل الحصول عليه ذهبوا إلى الخارج ليوفروا ثمنه . تلك المنازل غير الكاملة وقفت، وغالبا محاطة بالسقالات وأكوام الطوب بين المنازل الجاهزة . بلغنا المسجد وكان مدمرا فقد زال السقف وهدمت المئذنة وفي غير تأثر قال مرافقنا «نعم هذه هي القرية حيث كان هناك قناص على المئذنة وكان على الدبابات أن تطلق نيرانها بالطبع وإلا مات أولادنا» .

سأذهب إلى قبري معتقدا أن ذلك الجندي الصربي لم تكن لديه فكرة عن أنه قال لنا شيئا مختلفا تماما قبل دقائق قليلة . كان من المفروغ منه مع كارادزيتش أنه عندما يسأله شخص سؤالا، يكون الرد كذبة . كان الصحفيون يفترضون ذلك ويفترضون

كذلك أن كارادزيتش كان يعرف أنه يكـذب ، على الأقل معظم الوقت . أما مرشدنا فكان شيئا آخـر . كان كل عالمه وهما ونتاجا لحملـة الدعاية المنظمـة بإتقان من قيادة الصرب . بدا وكأن الرسالـة «فقط الوحدة تستطيع أن تنقـذ الصرب» كانت حـاجزا للمعلومات المتناقضة . كان الصرب جيدون ، ولذلك لا يدمرون مسجدا فإذا اتضح أن المسجـد مدمـر ، فلابـد من سبب ، ومـادام الصرب جيدون فـالسبب هو أنـه تم إطلاق النار على الصرب . وإلا فلماذا تكون المئذنـة حطاما؟ لقد تم في آن معا تطهير عقول الصربيين وأجساد المسلمين في البوسنة .

في معسكر تربنويـولي ضحك المساجين عندما سألناهم إذا كانـت هناك مقاومة في القريـة . قال لي فـلاح أشيب في فرنسيـة مفهومـة : «كانـت المدينـة نائمـة وليست قائمـة . دخل الصرب القرية وبدأوا إطـلاق الرصاص . حاولنـا الاستسلام - تلك هي الأعلام البيضاء التي قد رأيتموها - ولكن كان هناك رصاص كثير أولا . ثم ذهبوا من منزل إلى منـزل يجرون الناس إلى الخارج . كان بعض الصرب الـذين قاموا بذلك جيرانـا لنا ، أنـاس عرفناهم طـوال حياتنـا . من يعـرف؟ ربما أجبروا على مسـاعـدة الجنود . ثم جروا بعضنا بعيدا ، وأعتقد أن معظم هـؤلاء قد ماتوا والبقية منا محجوزون هنا : أولا في أومارسكا وفي الشهر الأخير هنا في تـربنوبولي ، وهكذا عدت من حيث بدأت ماعدا أن منزلي قد ذهب ولا أعلم أين أولادي» .

سألته إن كـان سيعود إلى بيته إذا سمح له بـذلك فقال «أبدا ، البوسنـة بلد ميت على الأقل بالنسبة للمسلمين . إنها صربية الآن . . إنني مستعد تماما أن أوقع بتسليم أرضي للتشتنيك لأنه ما الفائدة من التمسك بشيء مفقود سلفا؟» .

الفصل السادس

في البوسنة والهرسك، وكما لاحظ دافيد أوين ذات مرة، «لا يتحرك الوقت للأمام، بل يتقهقر». في نهاية كل فترة قضيتها في البوسنة، كنت أغادرها وأنا أتصور أن الأمور لايمكن أن تصبح أسوأ من ذلك، لكنني كلما عدت مرة أخرى، عادة بعد غياب لا يزيد عن شهر إلى ستة أشهر، كنت أكتشف أنها تطورت إلى أسوأ. إن القدوم إلى الحرب البوسنية هو أشبه بالوصول إلى فراش تحتضر فيه بلد. كان كل شيء يبدو وقد أصبح أسوأ بصورة دائمة. وكانت هناك أوقات شابهت التجربة فيها زيارة الصديق أصابه الأيدز. وذلك لأنه حتى في فترات الهدوء النسبي، كان المرء يعرف إلى أين تؤدي الأمور: فعلى المدى البعيد لا يلوح أي أمل على الإطلاق.

ولم يكن الغرباء عن المنطقة هم وحدهم الذين يشعرون بهذا الانزلاق إلى الهاوية. فقصة البوسنة مثلت إلى حد بعيد قصة تبتعد عن الحل أكثر فأكثر. فعلى المستوى السياسي، هناك مشهد الفاعلين الدوليين الأساسيين في الأزمة الذين أصروا في بداية الأزمة على أن البوسنة دولة شرعية يتعين الحفاظ على وحدة أراضيها على الشكل الذي كانت توجد به وقت اندلاع القتال. لكن ما إن بدأ الجنرال ميلاديتش يعرب عن رأيه الواضح لكل إنسان في أنه لا يوافق على قرارات الأمم المتحدة، حتى بدأ سخط المجتمع الدولي العاطل من أي فعل، وزمجرة الأمريكيين، ومناشدة المفاوضين، وبدأت لهجة واشنطن وباريس ولندن وبروكسل في التغير. وبدأ المفاوضان يكشفان كيف أن توقعاتهما قد تغيرت بالنسبة للصفقة التي كانا يحاولان إبرامها في البوسنة. وفي جلساتهما الخاصة، أوضحت المفاوضات أنهم افترضوا منذ البداية أن استعادة البوسنة لوحدة أراضيها مرة أخرى سيكون مستحيلاً من دون نوع ما من الضغط العسكري الغربي على الصرب. لكن في العلن واصلوا إصرارهم على أنه مازالت هناك بوسنة يتعين إنقاذها، بعد أن أصبح واضحاً بوقت طويل أن ما يجري مناقشته في واقع الأمر هو تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات عرقية وليس الحفاظ عليها.

وفي بداية عام ١٩٩٣ ، وعند نقطة يمكن اعتبارها بحق خطة متقدمة في القتال ، أصر دافيد أوين بشكل مطلق على أنه «لن تكون هناك جمهورية لصرب البوسنة» .
فلو أنه أمكن أن تقتنع كل الأطراف بما اعتبره أوين وفانس حلاً يمكن أن يحسم النزاع رغم عدم جاذبيته لأي طرف ـ والمتمثل في خريطة تقسم بموجبها البوسنة والهرسك إلى مجموعة من الكانتونات يجري تخطيطها طبقاً للأغلبية العرقية فيها ، وتخضع لسلطة حكومة مركزية ضعيفة في ساراييفو ــ فسوف يمكن الحفاظ على البوسنة . ولم يكن هذا الحل مثالياً بحال ، وهو ما اعترف به المفاوضان في جلساتهما الخاصة ــ عندما قال أوين : «إنه سلام من قلب الجحيم» ـ لكنها وفرت قدراً من العدالة . على أن الحكومة البوسنية ضيعت تلك الفرصة ، لأنها لم تكن قادرة في البداية على قبول تقسيم يضفي الشرعية على التطهير العرقي ، ثم بعد ذلك بتأثير الانطباع الزائف والمأساوي بأن من الممكن حدوث تدخل أمريكي . وكان الأمريكيون ، وبالرغم من أنهم لم تكن لديهم نية للتدخل ، لم يكونوا راغبين في أن يبدو في العلن مُقِّرين بهزيمة بوسنية من خلال المراهنة بكل الأوراق على خطة فانس وأوين ، التي ضحت ـ وأيا كانت الأشياء الأخرى التي سببتها ـ بمبدأ حق البوسنة ، وهي الحكومة الشرعية ، في تأكيد ذاتها كدولة ، لصالح استقلال ذاتي لكانتونات عرقية . أما البوسنيون فكانوا مستعدين للموت في سبيل دولتهم ومبادئهم ، وفضلت إدارة كلنتون أن تتركهم يفعلون ذلك ــ ولم توضح أبداً ما هي الحدود الفعلية لتورطها في ذلك ـ بدلاً من أن ينظر إليها على أنها تحرض على التطهير العرقي أو تتراجع عن الوعود المثيرة بتقديم المساعدة للبوسنة التي قدمها المرشح الرئاسي كلينتون خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٩٢ من أجل إرباك جورج بوش .

لكن هل كان بإمكان خطة فانس ـ أوين أن تحقق النجاح لو جرى تنفيذها؟ ذلك سؤال محل خلاف . فقد كان من المفترض أن تبدي القوى الدولية الكبرى استعدادها لحشد أعداد كبيرة من القوات ــ خمسين ألفاً في التقدير الأكثر محافظة ، تدعمها أعداد كبيرة من قوات الشرطة المدنية والمختصين القانونيين والفنيين ــ كما كان عليها أن تكون مستعدة لاستخدامها لردع صرب البوسنة . وفي ضوء ترددها فيما تلى من أحداث فإن الفرص التي كان يمكن لهذه القوى الدولية أن تتخذ فيها إجراءات

حاسمة بدت ضعيفة للغاية، ومن المؤكد أن هناك أشخاصاً كثيرين في بلغراد كان رأيهم أن من الأسلم لصرب البوسنة أن يوقعوا على الخطة لأن القوات الغربية من الممكن ألا ترسل فعلياً أبداً إلى البوسنة. وقد أخبرني ميهايلو ماركوفتش، أحد الأيدولوجيين الرئيسيين لنظام ميلوسفتش، ذات مرة أن الرئيس الصربي أكد له في مايو ١٩٩٣ أن الأمريكيين لن ينشروا قوات حفظ السلام البالغ عددها ما بين خمسة وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً التي وعد بها كلنتون، وأضاف ماكوفيتش: «كنت أشك في صحة هذا الكلام ساعتها، لكن في ضوء ما رأيته من سلوك للإدارة الأمريكية فإنني أميل إلى القول إن ميلوسيفتش كان على حق».

على أن فانس وأوين لم يكن بمقدورهما إقناع حكومة الولايات المتحدة بحث البوسنيين على إعلان سريع بقبول الخطة. وقد رأى المفاوضان أن أفضل فرصة جاءت في أواخر يناير ١٩٩٣، لكنها انهارت عندما سحب وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر ـ وكان قد أكد لفانس التأييد الأمريكي للخطة في لقاء بينهما عقد في أول فبراير ـ هذا التأييد دون إبطاء. وتم إحياء الخطة مرة أخرى في بداية الربيع، بل ووافق عليها ميلوسيفتش بصفة نهائية، جزئياً للأسباب التي قدمها ماركوفيتش. لكن عندما عرضت الخطة على برلمان صرب البوسنة في «بالي»، طلب الجنرال ميلادتش من النواب أن يرفضوها، وهو ما فعلوه في حينه، وأجهز هذا الرفض على أي أمل في إقرار خطة فانس ـ أوين. وفي أعقاب الرفض مباشرة استقال فانس، ونائبه القدير، هربرت أوكن، تجنباً للتفاوض على اتفاق آخر يعلمان أنه سيكون غير مبرر أخلاقياً. أما أوين، فلم يقدم استقالته، ورواجت نكتة عنه في البوسنة تقول أن الدكتور «موت»، كما كان يسمى في البوسنة، كان مسؤولاً عن تدمير حزبين سياسيين بريطانيين ودولة بلقانية صغيرة. وفي الفترة التي أعقبت فشل خطة فانس ـ أوين، كان أوين يبدو بالنسبة للكثيرين منا، على أنه يكرس جهده للقبه وشهرته. وقد وصف أوين دافعه، بطبيعة الحال، «بالواقعية»، لكن ما انتهى إلى تقديمه، سواء بإرادته أو لأنه لم يكن يرى خياراً آخر، لم يكن سوى كفالة المزيد والمزيد من التنازلات لصرب البوسنة. والغريب في الأمر أن أوين كان يرى بوضوح ما الذي يفعله. فقد قال ذات مرة: «ليس هناك شيء يستحق الفخر فيما نفعله، ولن تكون

هناك في أي وقت قريب التسوية التي يمكن أن أستحسنها». وهو ما يثير ذلك السؤال الواضح: «لماذا لم تستقل؟».

لقد كان أغلب منتقدي خطة فانس ـ أوين، بما في ذلك كاتب هذه السطور، يعتقدون أنه لا شيء يشرف في ما حوته تلك الخطة. لكن خطة فانس أوين أصبحت تبدو، وبعد أن سلمت كل الخطط التي تلتها بتقسيم البوسنة بحيث لن يبقى في النهاية منها تحت هذا الاسم سوى شريحة محدودة المساحة، أصبحت تبدو وبرغم كونها غير عادلة أفضل ما يمكن أن يحصل عليه البوسنيون اليوم. ولأن الحكومة البوسنية، ومعها مؤيديها الخارجيين من أمثال كاتب هذه السطور، رفضوا الإذعان على أمل التدخل الغربي، فقد مُنينا بالتقسيم. وبحلول عام ١٩٩٤ كان السؤال الوحيد المطروح هو بموجب أي خريطة وبأي ترتيبات دستورية مؤقتة يتم هذا التقسيم. وأصبحت مقولة أن رادوفان كارادزيتش يمكن أن يقيم اتحاداً، في غضون فترة قصيرة، بين جمهورية صرب البوسنة ويوغوسلافيا سلوبودان ميلوسيفتش هي النتيجة المحتومة إلا إذا قرر ميلوسيفتش غير ذلك. أما ما يتبقى بعد ذلك لمناقشته فهو ما إذا كان أية دولة بوسنية قابلة للنمو أو الاستمرار اقتصادياً أو اجتماعياً يمكن أن يسمح لها بالبقاء، أو ما إذا كانت البوسنة كلها ستصبح صورة مكبرة من الجيوب الشرقية مثل سربرنيتشا وغورجداه «قطاع غزة» آخر مُكبّر، غير قادر على الاستمرار اقتصادياً أو عسكرياً، ومعتمد على المساعدة الدولية في كل شيء، وتحت رحمة صربيا وكرواتيا.

لقد كشفت الكارثة عن نفسها على مراحل. ولم تكن الكارثة تتعلق، كما حدث في رواندا في ربيع ١٩٩٤، بقتل مليون شخص وتشريد عدة ملايين خلال أسابيع قليلة، في عملية إبادة جماعية بالغة الشراسة والسرعة. بل وقعت المذبحة في البوسنة كما لو كانت بالحركة البطيئة وتحت غطاء جهود تفاوضية وجهود عمليات إغاثة للأمم المتحدة دأب مسؤولوها خلالها على الإصرار على أن تقدماً يتم إحرازه على كل من المستويين الإنساني والسياسي. وقد حجبت النجاحات القليلة لتلك الجهود ـ سواء في ذلك نجاح قوافل الإغاثة التابعة للأمم المتحدة في الوصول إلى بعض المناطق التي كانت مغلقة على يد صرب البوسنة أو نجاح قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في

ترتيب وقف لإطلاق النار في بعض المواقع ـــ حقيقة أن لا تقدم حقيقياً تم إحرازه . لقد تم تخفيف بعض المعاناة بفضل الجهود البطولية من جانب القوات التابعة للأمم المتحدة والعاملين في قوافل الإغاثة ، لكن الكارثة الإنسانية في البوسنة لم تكن سوى عرض من أعراض الكارثة السياسية . لقد كانت حلقة مفرغة . فالأمم المتحدة تمد الناس بالغذاء وتتركهم عرضة لقصف القنابل ، ومجلس الأمن يعلن عن «مناطق آمنة» لا تعمد قوة الحماية إلى كفالة سلامتها كما لا تملك القوات التابعة للأمم المتحدة القدرة على ضمان هذه السلامة ، وترسل قوافل الإغاثة ضباط حماية إلى الميدان معروف سلفاً أنهم لا يستطيعون توفير الحماية . لقد كانوا ، كما تقول النكتة اللاذعة التي انتشرت في زغرب ، «مثل الخصي في ليلة عربدة» . ولم تثمر جهود قوة الحماية وقوافل الإغاثة إلا عن المزيد من الشعور بالامتعاض والإنهاك لدى أفرادها من جراء تنفيذ مهمة كان أغلب ضباطها الأكفاء يدركون منذ وقت طويل أنها يائسة .

وعندما تحدث الرجال في معسكر ترونوبولي باسسلام في خريف ١٩٩٢ ، عن كراجينا البوسنية كجزء من صربيا ، كان لا يزال هناك ثمانون ألفاً من غير الصرب في تلك المناطق وكانت المساجد القائمة أكثر عدداً من المساجد التي تم تحويلها إلى أنقاض . وبعد عامين ، كانت كراجينا البوسنية قد تم تطهيرها عرقياً إلى الحد الذي أصبحت معه إمكانية أي عودة لحياة مجتمعية للمسلمين هناك من دون استخدام القوة المسلحة بمثابة وهم غير قابل للتحقق . وعندما سقط جيب سربرينتشا في أيدي الصرب في أبريل ١٩٩٣ ـــ وهو الحدث الذي أدى إلى تبني مجلس الأمن لقرار الملاذات أو «المناطق الآمنة» ـ لم يتخيل سوى قلة من الناس أنه بعد حوالي عام سيترك جيب غورجده عرضة للسقوط بالطريقة نفسها .

ومع كل جريمة للصرب ، كان من المفترض أن تكون الفظاعة قد بلغت منتهاها . فلقد مثل التطهير العرقي في المدن الشرقية للبوسنة ، مثل «زفورنيك» في مايو ١٩٩٢ ، ما بدا وكأنه الدرك الأسفل لتلك الفظاعة ، لكن الصحفيين كشفوا حينئذ عن وجود المعسكرات وعن التطهير العرقي في كراجينا البوسنية خلال ذلك الصيف وبداية الخريف . وبدا اكتشاف معسكرات بالقرب من بلدة فوكا القريبة من ساراييفو في بداية عام ١٩٩٣ غير قابل للتصديق . ثم اتضح بعد ذلك أن

الصرب يستخدمون الاغتصاب سلاحاً في الحرب في كل مناطق البوسنة ، كوسيلة لإرعاب السكان المسلمين ودفعهم إلى الهرب ومن ثم يحققون الهدف الأساسي للحرب الصربية والمتمثل في التطهير العرقي. ولم يكتف ضباط قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة بتأكيد أنه لا يدخل ضمن اختصاصهم مساعدة النساء البوسنيات، بل رفضوا رفضاً باتاً التحقيق في الدعاوى المتكررة بأن جنوداً معينين تابعين لقوة الحماية قاموا بممارسة الجنس مع النساء المسلمات البوسنيات الأسرى. وإذا كانت الحقيقة المدعاة ـ في حالة صحتها ـ بأن التفسير المرجح لذلك هو أن الجنود الصرب قد استبقوهم لمدة ساعة في «ماخور مخصص للعسكريين»، يمكن أن تقبل كعذر لسلوك الجنود الأفراد، فإنها تعفي قادتهم من المساءلة .

وسرعان ما اتضح بعد ذلك أن رفض الأمم المتحدة لتحمل المسؤولية بجدية عن الانتهاكات المرتكبة من جانب أفراد عاملين في صفوفها كان خطأ يرتبط بالجهاز ذاته . فقوة الحماية الدولية، وكما يوضح مسؤولوها باستمرار، يرتبط تقييم أدائها لمهامهابالبوسنة بالتفويض الصادر عن مجلس الأمن في نيويورك، ومن ثم فبإمكانها أن تفعل ما تراه مناسباً دون محاسبة من أحد، بل والأكثر خطورة أن مسؤولي الأمم المتحدة في البوسنة لم يكن لديهم أي استعداد لقبول فكرة أنهم يمكن أن يرتكبوا أخطاء على الإطلاق. إنهم يتكلمون عن أنفسهم كما لو كانوا آلات لا كائنات بشرية . فإذا ما تصرف جندي تابع لهم بطريقة سيئة فإن تلك، وكما يقول كبار مسؤولي قوات الأمم المتحدة، هي مسؤولية الحكومة المعنية . وإذا ما اتسمت سياسة ما باللا أخلاقية فتلك غلطة «التفويض». وعندما تظهر المساوىء أو التصرفات الخاطئة في دائرة الضوء، فإن الأمم المتحدة تتحرك بسرعة لكي تبرىء نفسها من أي اتهام بانتهاك لحقوق الإنسان أو الفساد المنظم من جانب العاملين في صفوفها في أي منطقة من المناطق التي تشملها مهامها في البوسنة . ولقد تم إرسال لواء نمساوي اسمه جونتر جريندل لمساعدة ياسوشي آكاشي، الموفد الجديد ممثلاً شخصياً للسكرتير العام للتحقيق في الاتهامات بالفساد . وقبل ذلك بشهور قليلة كان أكاشي يدير عملية الأمم المتحدة في كمبوديا وما كان يعلمه عن الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة كان عن طريق التقارير. ومن ناحيته كان جريندل، وهو قائد سابق في

قوات الأمم المتحدة في قبرص، خبيراً في عمليات حفظ السلام. وكان معظم الغرباء يرون أنه يفتقر تماماً إلى نوع الموضوعية المطلوب لتناول الموضوع بحيادية. لقد كان الأمر مثل شرطي يطلق نيرانه على شارع في مدينة ثم تتم محاكمته من خلال مجلس يتكون بكامله من رجال شرطة. ولم يكن مدعاة لأي دهشة ألا يتحدث جريندل إلى الصحفيين، وقد اعتاد بعض المحليين ــ بل أنه حتى في سراييفو اعتاد المحليون المطلعون ـ أن يقولوا: «خمر حمراء وعوازل حمل من الفرنسيين، وكافيار وديزل من الأوكرانيين». وهو لم ير مطلقاً البغاء الذي كان واضحاً حول معظم ثكنات الأمم المتحدة في المدينة وبدا غير مدرك لواقع أن معظم الصحفيين، وأنا منهم، كنا نشتري بنزين السوق السوداء من جنود قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الخيرين من مختلف الجنسيات. قال جريندل في تقريره إنه بالرغم من وجود بعض الحالات الفردية للفساد فلا يوجد أي فساد منظم داخل أي من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بما فيها سراييفو.

لكن فساد الأمم المتحدة كان أهون ما في الأمر، فلو أن جنود جيش محتل تصرفوا فقط بفساد (ورغم كل تظاهرهم بأن وجودهم في البوسنة كان لمرافقة المعونات الإنسانية فقد كانت قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة وبخاصة في سراييفو، جيش احتلال باستثناء قوة واحدة جيدة نسبياً) لاعتبر السكان المدنيون أنفسهم سعداء الحظ. ففي البوسنة على الأقل لم يذبح جنود قوة الحماية المدنيين، كما اتهمت العديد من منظمات حقوق الإنسان الدولية أفراداً من كتائب الأمم المتحدة بذلك في الصومال. كانت جرائم الحرب والحرمان والتدهور المستمر للوضع السياسي هي التي تتلاحق بلا هوادة. كان الناس في البوسنة، والذين يعيشون أوقاتاً عصيبة ـ يرددون كثيراً ـ ولو بعد شيء من التفكير «حسناً، فعلى الأقل لقد عشنا الأسوأ». ومع ذلك فالشيء الذي يمكن التيقن منه في البوسنة هناك أسوأ قادم في الطريق. وإذا ما كانت الكارثة لم تتزايد مادياً بصورة أشد ـ كانت هناك أوقات تخف فيها حدة القتال أو يعبر المزيد من المعونة الإنسانية إلى منطقة محددة ـ فقد كان من المؤكد حدوث ذلك أخلاقياً ونفسياً. إن السفر عبر البوسنة يعني أن تواجهك على الفور الحقيقة التي كانت قابلة للقياس إحصائياً وجديرة بالإذاعة الإخبارية وهي: الجثث والقرى والمدن

المدمرة وجنود الصرب غير النظاميين المنتشين بالنصر، واللاجئين الفعليين والمحتملين المنتشرين في كل مكان.

لكن استخلاص معنى ما كان يدور في البوسنة كان معناه أن تواجه الكارثة الأخلاقية التي صاحبت الكارثة المادية والسياسية. وبمرور الوقت سارت هذه الكارثة نحو الأسوأ. فقد كانت البوسنة قبل الحرب دولة غنية نسبياً، حتى ولو كان ذلك بسبب عدم توفر الكثير ليشتريه الأشخاص العاديون بعد وجود المنزل والسيارة . وعندما بدأ القتال كان لدى عدد كبير من البوسنيين بعض العملات الأجنبية غطت مصاريفهم إلى حد ما خلال الشهور الأولى من القتال. ولكن بعد ستة شهور، ثم سنة ثم سنتين فقد استنفدت النقود أخيراً. وكان من آثار ذلك ليس فقط الضنك للعائلات بمفردها بل انهيار الحياة التي تعود الناس عليها. وبالطبع فقد استمرت الحياة المدنية في البوسنة، فالناس يتزوجون ويطلقون ويقيمون الدعاوى وينجبون الأطفال ويوقعون عقود الإيجار ويعزفون الجيتار. ولكن في مجتمع صناعي مثل البوسنة لم يعد هناك معنى لذلك من النوع من العمل المكتبي الذي كان يمارسه غالبية سكان المدن.

وقد يواجه الموظفون المكتبيون رصاص القناصة في سراييفو، وقد يظهر عمال المصانع في مصانعهم في زينيكا. ولكن عندما يصلون إلى هناك هناك لم يكن هناك شيء حقيقي يفعلونه. فقد كانوا يجلسون معظم الوقت لفترة وغالباً في أماكن تقبتها نيران القذائف ويجمعون المؤن التي يسمح لهم بها لذهابهم إلى العمل ثم يعودون لمنازلهم.

قال لي كثير ممن قابلتهم في البوسنة أنهم وجدوا أن تحمل العيش أثناء القصف والقنص كان أسهل من محاولة التأقلم مع مجتمع وحشي جديد وجدوا أنفسهم يستوطنونه. ولم يكن الأمر متعلقاً بواقع أنه لم يكن لديهم شيء حقيقي يفعلونه، بل يكمن في أنهم لم يعودوا يعرفوا دورهم. كان هذا المعنى أكثر حدة بصفة خاصة في المناطق التي تقع تحت إدارة الحكومة البوسنية حيث كان الصراع من أجل البقاء شديد الحدة، رغم أن الناس في المناطق الكرواتية أو التابعة لصرب البوسنة غالباً ما كانوا يعبرون عن كثير من الشكاوى المشابهة. ولأسباب واضحة كان الأمر أقوى ما

يكون في سرايفو المحاصرة حيث كانت مصاعب الناس في الذود عن أنفسهم أخطر ما يكون. كان سكان سرايفو يعتمدون على المصاعد وأنابيب الغاز والسيارات وخطوط الترام والأسواق المركزية والكهرباء مثل أي سكان مدينة حديثة متقدمة. وعلى حين غرة نزع منهم كل هذا. ومع ذلك ولأنهم محاصرون، فلم يكونوا يستطيعون الهرب إلى مناطق لا يضطرون فيها إلى صعود خمس عشرة درجة من السلالم حاملين وعائي ماء أو يمشون ثلاثة كيلو مترات إلى أقرب مركز لتوزيع الأغذية. لقد أضافت الدرجة التي تحولت بها البيئة التي ترعرعوا فيها فجأة لا بيئة متسمة بالخلل الوظيفي فحسب، بل بالخطورة كذلك، أضافت المزيد من الصعوبة إلى الصعوبة التي عانيها الناس في مواجهة ما يحدث لهم. . لقد خذلهم تمدينهم.

أما في وسط البوسنة أو في جيب بيهاتش أو في توزلا في الشمال الشرقي وهي بيئات كانت غالباً حديثة مثل سرايفو فعلى الأقل لم يكن هناك حصار. فقد كان يمكن الحصول على الإمدادات، رغم ضآلتها، من الريف المجاور وبخاصة لمن له أقارب في القرى. وقد شمل ذلك كثيراً من سكان المدن في البوسنة، حيث كان مثل الطابع الحضري ظاهرة جدّت بعد الحرب العالمية أساساً. ولأن هذه الأماكن لم تكن محاصرة ولم تضطر إلى الاعتماد كلية على المعونات الإنسانية أو على السوق السوداء فإن الشعور بأنهم داخل جرة قاتلة، أياً كانت حدة ادعاءات الناس المبررة، لم يكن تقريباً في بقية «البوسنة الحرة» بمثل حدته في سرايفو. وكانت بعض أكثر المناطق عزلة هي الأكثر اكتفاء ذاتياً. وقبل أن تبدأ قوات صرب البوسنة هجومها على غوراجده في أبريل ١٩٩٤، مقلصين الجيب أخيراً من ثلاثين كيلو متراً مربعاً مع عدد من القرى إلى مساحة نصف قطرها ثلاثة كيلومترات من مركز المدينة، لم يكن لدى سكان القطاع الستين ألفاً فقط كفايتهم من الطعام، بل كانوا يستطيعون كذلك إرسال الإمدادات إلى قطاعات وادي درينا الأخرى، سربرينتشا وجيبا.

ولكن لم يكن الأمر متعلقاً في الغالب بمجرد مسألة ما فعله حرمان الناس من اكتفائهم المادي في أخلاقياتهم. فلم تسر الأمور دائماً على النحو الذي كان يمكن توقعه. فبعد أن قلص الصرب سربرنتشا إلى حظيرة كبيرة تأوي المسلمين فقد أصبحت مكاناً تحللت فيه الأخلاقيات حيث كانت الفتيات يقدمن أنفسهن للغرباء

من أجل بضعة سجائر. ولكن كانت هناك أماكن أخرى في البوسنة وبخاصة شرق موستار الذي كان تحت سيطرة حكومة البوسنة وضاحية دوبرينيا في سراييفو - التي عزلت عن المدينة تماماً لتعاني من حصار داخل الحصار - حيث لم تفرز الندرة والخطر الشديد الفساد بل النظام والعزيمة الفولاذية. ففي شرق موستار، على سبيل المثال، كان كل شيء مقتناً إلى آخر جرام من الطحين. وكانت هناك فترة في ١٩٩٣ في سراييفو - عندما أصاب عناصر من جيش البوسنة سعار القتل مروعين الناس الذين من المفترض أنهم يحمونهم - عندما فكر قليل من سكان المدينة جدياً في الرحيل إلى ما تندروا بتسميته «جمهورية دوبرينيا الشعبية» للهروب من العصابات والمتهزين الذين سيطروا على معظم أحياء العاصمة. قال لي صديق في ذلك الوقت: «من المحتمل أن تقتلني رصاصة من التشتينك هناك ولكنني على الأقل لن أخاطر بأن يسرقني بعض الشباب مستخدمين الكلاشنكوف في كل مرة أغادر خارج عتبة بيتي».

لقد تمثلت الحقيقة في أنه بشكل أو بآخر استطاع القليلون الإفلات من الفساد الذي صاحب كارثة البوسنة. وكانت السوق السوداء والعصابات هي العلامات الأكثر وضوحاً للمشكلة. كان هناك كذلك الفساد الفكري الذي ولده تحول وسائل الإعلام لدى كل الأطراف إلى أدوات للدعاية. وحتى صحيفة «التحرير» التي كانت رمزاً بطولياً للمقاومة البوسنية لم تنج من ذلك. فمع استمرار القتل، بدأ محررو الجريدة يرون أنهم أصبحوا ملتزمين أكثر وأكثر بمساندة حكومة البوسنة على طول الخط. والواقع أن صدور الجريدة كان بمثابة معجزة. فقد دمر مبنى مقرها الرئيسي العالي الحديث والواقع على بعد ٥٠ متراً من الخط الأمامي لصرب البوسنة. وكان محرروها وعمال الطباعة يعملون داخل ملجأ القنابل الذرية في سرداب حطامها. وتحت تلك الظروف لم يكن من الغريب أنه رغم محاولة نظام عزت بيجوفيتش تحطيم استقلال الجريدة السياسي قبل عام من بداية القتال، فقد شعر محرروها أن عدم فعل أي شيء يقوض جهود الحرب يأتي في أولويات الأمور. وإذا كان ذلك يعني إفقار اللغة التي يكتب بها المراسلون - في قصص الجريدة كان الصرب دائماً هم المعتدون الفاشيون وكان طرف الحكومة البوسنية هو «البطل» بشكل ثابت - فلم يكن ذلك مجرد ثمن بسيط يدفعونه بل كان كذلك واجباً رغم كل شيء، الجريدة الوحيدة التي

تصدر في سراييفو.

وبشكل ما كان محررو جريدة «التحرير» على حق، فقد كان التشتنيك ممثلين فاشيين بكل معنى الكلمة وكان الدفاع عن سراييفو بطولياً بالفعل. ومع ذلك فيا كان يدور حوله الصراع، في مواجهة ظروف مستحيلة، لاستمرار الجريدة خلال لاحصار، وكما كان يصر محررو الجريدة، هو الحفاظ على نوع الصحافة الذي يحاولون ممارسته من قبل. ومع ذلك لم تستطع الجريدة إلا أن تعكس الإنهاك واليأس وجنون الاضطهاد لدى قرائها وبخاصة مع استمرار القتال. ودائماً ما توفر الكوارث أرضاً خصبة لمنظري المؤامرات، وقد كان للبوسنة نصيبها وافراً. فبحلول عام ١٩٩٣ قامت جريدة «التحرير» بعملية استطلاع للآراء أعطت تفسيرات إضافية للسبب في أن الغرب لم يساعد البوسنة. وقد اتهم مواطن غاضب ساداكو أوجاتا، رئيستهم بالمفوضية العليا للاجئين في أحد هذه الاستطلاعات بأنها لم تكن راغبة في مساعدة البوسنة لأنها كانت ماسونية ومرتبطة بمكاتب للحركة الماسونية في صربيا. وما كان أكثر شيوعاً وخطورة أنه أصبح شيئاً عادياً في سراييفو، كما قالت لي ذات مساء الناقدة الفنية نرمينا أن كوسبا هيتش الأخت غير الشقيقة لرئيس تحرير الصحيفة، كمال كوسباهيتش أن «أوروبا تكره المسلمين. وما يفكرون فيه حقيقة هو أن الصرب يقومون بالعمل عنهم».

في هذا الجو، كان من المتوقع أن تقوم الجريدة بمساندة حكومة عزت بيجوفيتش وتمجيد صراع الجنود، وإعطاء متنفس للتوترات المرضية والأليمة في التفكير في البوسنة. وفي سيرهم في ركاب الحزب الحاكم كان محررو الجريدة يحاولون كذلك الحفاظ على جريدتهم من هجوم حكومة عزت بيجوفيتش. ولكنهم كانوا فاشلين في ذلك بصورة متزايدة، فبحلول خريف ١٩٩٤ كان مقاتلو الحزب الحاكم المقربون للحكومة يهاجمون الجريدة بشكل منتظم بسبب استقلالية هيئة التحرير.

وإذا كان هناك شيء واحد تفرزه الكارثة فإنه التقوقع. فلم يكن البوسنيون يريدون ما يذكرهم بأن العالم وقف لم يعترض سوى بالشجب الكلامي فقط بينما قام الجيش الوطني اليوغسلافي بتحويل مدينة فوكوفار المسيحية إلى ركام، بل الأدهى أن حكومة بيجوفتش ولأسباب حكيمة مفهومة ولكن غير مقبولة لم تتخذ هي الأخرى

أي موقف من القتال في كرواتيا عـام ١٩٩١ . كذلك لم يكن الأفراد من أهل سرايفو على درجـة كبيرة من الانزعاج لما كـان يجري في كـرواتيا في ذلك الـوقت. وقـد فسر كثيرون منهم ذلك بقولهم بأنهم كانـوا في غايـة الرعب مسبقـاً بينما كان آخـرون أكثر استنكاراً لأنفسهم متذكـرين في عجب أنهم كانوا ببساطـة لا يعتقدون أي شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث في البوسنة. وقد قال لي صديق: «لقد تعودت على تحويل القناة عندما يبدأ بث رسائل إخبارية من فوكوفار لقد كان علي أن أبدي اهتماماً أكثر.

ولكن كما تعلم كانت سرايفـو مكاناً لطيفاً ومتحضراً. لقد ظننـت أن القتال قد ينشب في الريف أما هنـا فقد كنـا نعيش في يسر لا يسمح بتوقع حدوث مثل هـذا الأمر».

إنك إذا لاحظت ذلك كلـه فلن يعني أن تقول بأن البـوسنيين كانـوا مخطئين بعد ١٩٩٢ بالتفكير في أنفسهم وفي وطنهم. وكون البـوسنيون لم يستطيعوا حشد غيرتهم المزعزعة ليقدموا استنكارهم مع عبارات المساواة لأنجولا وأفغانستان، وكون بعضهم عبروا أحياناً عن هذا التقوقع داخل الذات بأساليب هجومية أو مبالغ فيها ـ مقارنين سرايفو باوشفيتز ومحتجين بأنهم أوروبيون وليسوا صوماليين أو مصريين، أو كما عبر عنها قـائد عسكري في موستار، بأن الحرب في البـوسنة هـي أكثر الحروب ضراوة في تاريخ العالم ـ كان مصدر إزعاج لبطرس غالي ومساعديه لا يمنع أن ذلك كله بدا لي دائماً وببساطة وضعـاً إنسانياً. وأتذكـر ركوبي في سرايفو مع مسؤول لـلأمم المتحدة ومروري على جـدارية سرايفـو الشهيرة التي تقول «مرحباً بكم في الجحيـم» بعرض مبنى مهدم في منطقـة أصابتهـا القنابل على طريق المطار. وقـد أشار المسـؤول إليها وشـخر قائلاً: «تلك هي المشكلة هنا. الـوضع سيء بالطبع ولكن كل فرد يبالغ على الدوام. وهذا هو سبب عدم قدرتك على التوصل إلى اتفاق سلام».

وعندما قلت له أن ما يعنيه باتفاق سلام هو استسلام البوسنيين هز كتفيه فقط. كـان موقفـه نمـوذجاً لاتجاه معين في التفكير داخل الأمم المتحـدة يـرى أن حكومـة البوسنة هي المشكلة الحقيقية ، لقـد ارتكب الصرب جرائم فظيعة بالطبع واعترف كل شخص بذلك. أما الآن فقد كـان مسؤولو الأمم المتحدة يصرون على أنهم مستعدون للجلـوس حـول مائدة المفـاوضـات من أجل السـلام. فلماذا لا يسـاير البوسـنيون

الوضع. ولكن عندما توضح لهم أن ما تطلبه الأمم المتحدة إنما هو الاستسلام بالنسبة للبوسنيين فإن توضيحك لا يقدم ولا يؤخر. فقد كانت الأمم المتحدة تهتم بالسلام وليس بالعدالة. وظل كبار المسؤولين يذكرون بأن التفويض لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة لم يكن الحماية البوسنيين بل لحماية جهود الإغاثة الإنسانية أياً كان اللبس الذي يثيره إسمها. وقد ذكر الجنرال ماكنزي بعد مغادرة البوسنة أنه يعتقد بأن اسم «قوة الحماية التابعة اللأمم المتحدة» كان له ضلع كبير فس مشكلة الأمم المتحدة هناك. وكان محقاً في ذلك حيث لم يستطع البوسنيون أن يفهموا سبب إرسال كل أولئك الجنود إذا لم يكونوا سيفعلون شيئاً لحماية سكان سراييفو وتوزلا وبانيالوكا.

وفي واقع الأمر، كان الاسم الأول لقوة الأمم المتحدة الذي اختارته إدارة عمليات حفظ السلام هو «القوة المؤقتة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة» ولكن الحروف الأولى للاسم هي UNIFFY ـ وهي قريبة من كلمة UniFy ومعناها يوحد للدرجة لا تجعل أحداً يقبل به. ولكن أياً كان الاسم الذي انتشرت تحته قوات الأمم المتحدة فسرعان ما تعلم البوسنيون أن الأمم المتحدة لن تحجم عن حمايتهم فقط بل إنها في الأساس لم تتعاطف معهم. لقد كان لدى قوة الحماية تفويض بحفظ السلام، وبحلول ١٩٩٣ كان البوسنيون قد أصبحوا العقبة الرئيسية أمامها لإكمال تلك المهمة.

من هنا لا عجب أن يكون البوسنيون، مع إحساسهم بالإهمال، قد انخرطوا في أوهام فضيلتهم الأساسية وعزفوا على أوتار تفرد معاناتهم. وعندما كتب إينيس كاريتش رجل الدين المسلم الواسع التأثير، والذي أصبح فيما بعد وزيراً للتعليم، وهو مثل إحراجاً لسراييفو «متعددة الثقافات»، في قصته الخيالية «اقتباس من مجلة صوفية صدرت عام ٢٠٩٢» يقول: «قبل كارثة البوسنة عام ١٩٩٢ لم تكن المضايقات ضد شرف وكرامة المرأة معروفة» فقد كان يعبر عن الشعور المشترك في البوسنة بأن العالم الخارجي مازال يرفض أن يستوعب ضخامة ما كان يحدث. وهو لم يكن ـ كما لاحظ مسؤول من الأمم المتحدة ملاحظة عندما أريته المقال (مؤكداً في إهمال أن كاريتش يشكك في أي شيء يحبه الناس) «ناسياً بسهولة ما فعله الجيش الباكستاني في بنجلاديش برغم أن البوسنيين ينسون دائماً أنه توجد وقد ظلت توجد مآس في هذا

العالم المخيف الذي نعيش فيه غير مأساتهم هم».

ولقد كان الجزء السهل هو الدفاع عن أحزان البوسنيين والتقوقع البوسني أمام الرفض السطحي الذي قدمه هذا البيروقراطي. ولكن كان الأمر الأصعب تقبله هو أن تلك التعبئة العامة للمشاعر، مهما كانت مفهومة، وكان لها ثمنها الرهيب على البوسنيين أنفسهم. لقد أصبح السؤال حول ما إذا كان مجهود حربي قائم على حشد الجماهير (رغم أنه في الواقع لم تنفذه الحكومة البوسنية بشكل منظم وهو ما كان متوقعاً منها) وإجماع أيديولوجي، يتطلب من المواطنين ألا يتفرقوا عن جبهة موحدة أم أن على الناس أن يكونوا ملتزمين بالاستمرار في قول ما يعتقدونه أياً ما تطلبت النتائج العملية، هذا السؤال أصبح محل خلاف على الأقل منذ برشلونة الجمهورية أثناء الحرب الأهلية الأسبانية. ولقد كان هذا النقاش هو ما حلله أورويل في «المجد لكتالونيا». ولعله لم تكن هناك إجابة شافية، غير تلك الأكثر عرضية، للمشكلة حول ما نفعله إذا تصادمت الحقيقة مع العدل في موقف طارىء. وكلما أحس البوسنيون أنهم بلا أصدقاء ـ وكانت اللطمة التي مثلتها عداوة الأمم المتحدة الظاهرة عنيفة ـ كلما مالوا إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن المخاطرة باختلاف داخلي. صاغت ذلك جوردونا نيسيفيتش، نائبة رئيس التحرير لجريدة «التحرير» الصربية، والتي كانت أحد باعثي الحياة فيها خلال القتال وكان زوجها إيفو الكرواتي وزيراً للإعلام في الحكومة البوسنية حين قالت: «قبل الحرب لم تساند الجريدة أياً من الأطراف الوطنية الثلاثة في البوسنة، ولكن بمجرد نشوب الحرب ذهب كمال إلى الرئيس عزت بيجوفيتش، وقال له أثناء الحرب سنساند السلطات الشرعية في البوسنة والهرسك كجزء من الدفاع وقت الحرب، ولكن بعد الحرب، وبمجرد أن تضع هذه الحرب أوزارها، سنعود ثانية إلى موقع المعارضة، وفي تلك الأثناء، لن نفعل شيئاً يقلقل الدولة في وقت يستحيل فيه التغيير السياسي الديمقراطي».

وبرغم ذلك فحتى حينما يرى رجال الإعلام البوسني الأكثر استقلالية أن من واجبه للأسف أن يقدم قدراً كبيراً من الدعاية في ثنايا الأخبار فإن التأثير المخرب على كل من القارىء والكاتب على السواء لابد أن يكون كبيراً ــ أياً كانت الدوافع فاضلة أو مفهومة. كانت جوردونا نيسيفيتش ملتزمة من الناحية البيوجرافية والفكرية

بالنموذج البوسني متعدد الثقافات والذي تشككت فيه قيادة الحزب الحاكم SDA قبل القتال. ومع ذلك فقد قالت إنه ليس لديها شك في أن الطريق الذي تسير عليه «التحرير» هو الصحيح. وأشارت إلى أن الدعاية من الطرف البوسني، بافتراض صحة التعبير، كانت لا شيء إذا قورنت بما كان يصدر عن بالي وبلجراد وأيضاً عن زغرب، بحسب الطريقة التي تستمع بها الحكومة الكرواتية. ومن الظلم تماماً مقارنة محاولات البوسنيين للتضامن بعالم المشاعر عديم الرحمة المتمثل في الشعار «الوحدة فقط تنقذ الصرب» والذي أدى إلى كثير من المعاناة والموت.

إن ما لم تكن نيسفيتش راغبة في مواجهته هو احتمال أن أي فساد في الفكر، حتى في قضية عادلة وأياً كانت إنسانية ومفهومة، يصعب محوه طالما تمت الموافقة عليه. ولقد وضعت معظم الحروب أوزارها قبل وقت طويل من ذبول العقليات التي أفرزتها. ومع ذلك فلو أن هذه القاعدة النفسية للحرب كانت الطريقة الوحيدة الذي تحول بها المجتمع البوسني بفعل القتال فربما لم يبلغ الدمار العقلي الذي قال كثير من الناس أنهم يعانون منه تلك الدرجة التي وصل إليها. وذلك لأنه إذا كان هناك شعب على مدى ما تعيه الذاكرة الإنسانية له الحق في تبسيط وضعه وتمجيد فضائله وتجاهل ما يخصه من المسؤولية عن دمار بلده وتصوير أعدائه والمجتمع الدولي، لعدم رغبته في رفع إصبع واحد لمساعدته، في صورة الشيطان، لكان شعب البوسنة الذي ارتكبت في حقه الآثام ـ وبخاصة المسلمين. ولكن وفي كل مكان في البوسنة، لم يكن هناك فقط الرضا بالمبالغات البلاغية في تبسيط الحرب ـ فهذه رغم كل شيء ليست غريبة على البوسنة ـ بل إن الفساد في الحياة اليومية بلغ مداه كذلك.

إن أحد أولى وأعمق وأوسع الآثار للقتال هو قلب الهرم الاجتماعي رأساً على عقب. لقد دمرت البرجوازية وفقدت قيمها بفعل الحرب. ومع كل شهر يمر يزداد وضعها المادي سوءاً. وانقلب الوضع بالنسبة لمن كان لديهم القليل قبل بدء القتال. وقد وجد الشبان البسطاء من الريف والشباب الأقوياء من المدن أن بنادقهم تمكنهم من أن أن يكونوا هم المبادرين بجمع الماركات ومختلف الامتيازات، الجنسية وغيرها. لقد تحول الوضع في أغلب الحالات إلى أن الرأس صار ذيلاً والذيل صار رأساً. وسواء كان ذلك في سرايفو أو توزلا أو موستار، فقدكان يمكن مشاهدة

الشباب في هيئة رامبو جالسين في المقاهي أو مصاحبين للفتيات في السيارات المدنية القليلة التي تركت في أي منطقة. وقد أدت درجة تشبههم بشخصيات شاهدوها في أفلام مثل «رامبو» و«محارب الشوارع» بالمخرج المسرحي ابن سرايفو حارس باسوفيتش إلى أن يهمس لي أنه يأمل، بعد عودة السلام، أن تكون هناك محاكمة لجرائم الحرب. وعندما أخبرته أن عليه ألا يتصور أن تكون الأمم المتحدة جادة في ذلك أو أن الذين يتفاوضون مع كارازديتش وجنرال ميلاديتش سيحاولون وضعهما خلف القضبان لاحقاً، هز رأسه في نفاذ صبر وقال ضاحكاً «لا، لا، إنني لا أعنيهما. إنني أعني سيلفستر ستالوني، فهو المسؤول عن كثير مما حدث هنا!».

ولم يكن الأمر ببساطة، كما في إسرائيل مثلاً، مسألة مزايا أو تدليل يوهب عن رضى للرجال الذين يقومون بالقتال والقتل. ففي الطرف البوسني كان كثير من المحاربين من الشباب الذي تربى على أفلام العنف من هوليود والذين كانوا يلبسون ويتصرفون وكأنهم يظنون حقيقة أنهم ستالوني أو ميل جيبسون. كانت الطريقة التي يتبخترون بها خارج الخدمة وذخيرتهم داخل جرابها فوق صدورهم - لو أنهم ارتموا فجأة للحماية لكسرت أقفاصهم الصدرية - حاملين أكبر قدر من السلاح، طريقة هوليودية بحتة. وبالطبع كان الوضع لدى صرب وكروات البوسنة أكثر تطرفاً حيث افتقر البوسنيون إلى السلاح والذخيرة. ولكن التوجه لم يختلف كثيراً. ولم يكن من المدهش، وقد عرفنا من يقوم بمهام القتال، أن تسير الحرب والسوق السوداء في البوسنة جنباً إلى جنب.

و سبب ذلك تاريخي في جزء منه، ففي الطرف الصربي، تم جلب أشد المتطرفين من التشتنيك شبه العسكريين من مافيا ما قبل الحرب في بلجراد، وعندما كان محاربو أركان أوسيسلي - وهما قائدان في ميليشيا التشتنيك كانا من شخصيات عالم الرذيلة قبل تفكك يوغسلافيا - يدخلون مدينة مسلمة، كان هدفهم السلب والدم معاً. ولكن الحكومة البوسنية وجدت نفسها تعتمد على مجرميها كذلك. ومع أملها في درء شبح الحرب عام ١٩٩٢، لم تنشيء حكومة البوسنة جيشها الخاص على أراضيها، كما حدث في كرواتيا وسلوفينيا. فقد قال عزت بيجوفيتش: «إن الحرب تكون بين طرفين ونحن لن نحارب». ولكن بالطبع لا يلزم طرفان للقيام بمذبحة، وهذا ما

حدث على أي حال، رغم جهود عزت بيجوفيتش بألا يظهر شديد النهم للحرب. ولو أن الأمر كان بيد سياسيي الحزب الحاكم والطبقة المتوسطة المتحضرة فربما كانت سراييفو قد سقطت في يد الصرب بنفس السهولة التي سقطت بها بانيالوكا. وفي واقع الأمر، فقد طلب عزت بيجوفيتش من مسؤولي الأمم المتحدة قبل القتال أن تنشر قوات حفظ السلام. ولكنهم رفضوا، بحجة أنه لم يفوضوا بوضع قوات في إقليم من دولة لكي يسهلوا انفصال هذا الإقليم.

وجاء القتال وعلى الفور تجمعت قوة من العامة تألف معظمها من العصابات وسكان المدن المسلمين للدفاع عن المدينة. لقد كانوا خليطاً شاذاً. فبعضهم ينتمي إلى مجموعة مسلمة شبه عسكرية تدعى التجمع الوطني بينما جاء العدد الأكبر من عالم الرذيلة في سراييفو. وقد دفعوا بمسدساتهم والكلاشينكوف جنود الجيش الوطني اليوغسلافي إلى التلال واقتحموا ثكناتهم وفي النهاية، ولشدة غضب وسطاء الأمم المتحدة، أقاموا كميناً لطابور من قوات الجيش الوطني اليوغسلافي الذين كانوا في طريقهم للانسحاب من المدينة حسب وقف لإطلاق النار تم الاتفاق عليه. ومع كثافة القتال دخلوا إلى المناطق المجاورة التي شبوا فيها متملقين ومشجعين ومهددين لرفاقهم في الدراسة لينضموا إلى القتال. كان أحد قادتهم صاحب مصنع محترم للمنتجات الجلدية، وكان آخر في التاسعة والعشرين واسمه موسان توبالفيتش موسيقياً في أحد النوادي ويعرف باسم كاكو، وشخص ثالث يعرف باسم سيلو كان قاتلاً محترفاً له هيئة أبطال كمال الأجسام وقد خرج لتوه من السجن بعد ثماني سنوات بتهمة الاغتصاب. وبعد انتهاء هذه الفورة من القتال بدأ الجيش البوسني في تنظيم صفوفه وقبل سنة من قيام كادر صغير متفان من الضباط النظاميين السابقين في الجيش الوطني اليوغسلافي الذين ظلوا في الجانب البوسني ـ وكان من بين رتبهم العالية عدد من الصرب والكروات ـ بالبدء في إعادة تشكيله وتزويده ببعض جوانب القوة النظامية المنضبطة.

كان الدفاع عن سراييفو قصة ملهمة تكونت منها مجموعة الأغاني الشعبية للبلقان في قرونها السابقة. ولكن مع استمرار القتال فقد كان انخراط العصابات من كل جانب يعني ليس فقط أن القتال اتخذ صفة أكثر ضراوة وخروجاً على القانون بل

إن الأهداف السياسية للحرب أصبحت تتداخل بشكل ميؤوس منه على المستوى اليومي مع نشاط المنتفعين وتجار السوق السوداء. وكانت الشجاعة نفسهاالتي دفعت كاكو لقتال الجيش الوطني اليوغسلافي أياً كان افتقاره للسلاح، هي التي جعلت منه أقرب مرشح لتهريب المؤن التي تحتاجها سراييفو ويجبي الأرباح الطائلة من وراء ذلك. ولم تكن لدى كاكو وسيلو والآخرين «القصة نفسها دراث بين صرب البوسنة ومحاربي HVO» أي خطط لتوزيع ما أدخلوه مجاناً. كما لم تكن الحكومة البوسنية في وضع يسمح بالأمر بتوقف تلك الأنشطة حيث إن المقاتلين الموالين لهم كانوا يدافعون بشكل فردي عن مناطق استراتيجية على الخط الأمامي. ولم تتداع قبضة العصابات على سراييفو حتى قبل سلادزيتش رئاسة وزراء البوسنة في أواخر خريف ١٩٩٣ واشترط لذلك إزالة تلك العصابات. وكان الموقف مشابهاً لذلك في أجزاء أخرى من البوسنة: مجتمع هش انخرط فجأة في العسكرية مع زيادة في الخروج على الشرعية، محاولاً التمسك بمثله في وجه حرب شرسة شنت عليه مع لا مبالاة من العالم ومع المساومات التي اضطر إليها في الداخل من أجل البقاء.

ومع هشاشة الدولة البوسنية لم يكن من المرجح فعل الكثير لتجنب تلك المتناقضات. ولكن غض حكومة سراييفو لوقت طويل عن نشاطات رجال مثل كاكو وسيلو جعل الكثير من البوسنيين العاديين أكثر سخرية بأسرع مما كان محتملاً لو كان الوضع غير ذلك. ومع استمرار القتال فإن اليأس من الوضع العسكري أدى بكثير منهم إلى الشك ـ وهي نظرة هيمنت بشكل خاص في سراييفو وتوزلا ـ في أن الغرض الحقيقي من الحرب لم يعد النصر بل الربح. ولم يساعد كثيراً احتواء إقطاعيات سيلووكاكو الخاصة. فبعد موتهما فإن كثيراً من الذين كانوا يرهبونهما في حياتهما كانوا ينظرون إليهما بصفتهما المحاربين الوحيدين اللذين يملكان الشجاعة الحقيقية على أقل تقدير. كما شك كثيرون في أن تصفيتهما لم تكن تمثل سوى الوقوع بين اللصوص، كما أن كثيرين استرجعوا بطولة كاكو في بداية القتال، بعد موته (أطلق عليه الرصاص أثناء محاولة الهرب، كما ذكرت الحكومة بأسلوب رقيق). وبحلول صيف ١٩٩٤ كان الجنود العاديون على خط القتال يقولون في مرارة أنهم لم يكونوا يدافعون عن بيوتهم بل عن السوق السوداء. ولم يرفع من معنويات الناس وجود

عـائلات أصحاب المنـاصب العليا في حكـومة البـوسنة خـارج البلاد . وقـد أخبرني مقاتل في شرق موستار أن «سلازديتش أرسل عائلته إلى باكستان والآخرون على نفس المنـوال . إن الأمر سهل بـالنسبة لهم . فهـم لا يهتمون إذا استمـرت هذه القـذارة إلى الأبد» .

وسواء صح ذلك أم لا، فقد انتشرت هذه المشاعر بنهاية ١٩٩٣ . وفي عالم الواقع لا تـؤدي المعاناة إلى التسـامي بل إلى الإفســاد . ففي كل يـوم للحرب في البـوسنة كـان النـاس العـاديـون يجدون أنفسهم في مـواجهــة ظـروف لم يعطهم شيء من تعليمهم وخبراتهم السابقة أي أساس للتوافق معها . فمع تعودهم على العيش في رفاهة ، كان عليهم أن يتكيفوا مع أشد حالات المشقة . فالنـاس الذين لم يشعروا قط بالبرد عدا في مـواقع التزلج أصبحـوا فجأة يقـاسون البرودة لعـدة شهـور متتاليـة . والـذين كانـوا يستحمون مرتين يوميـاً اضطروا للتعود على أخذ حمام بارد مرات قليلـة في الشهر . أما الذين اعتـادوا السفر فكان عليهـم أن يعتادوا أن يظلوا حبيسين في الغـرف الضيقة . وأولئك الذين كانـوا يتفاخرون بأمانتهم وجـدوا أنفسهم يتخذون أقصر السبل لتدبير أمورهم . وربما كـان القصف قد أساء إلى سلامة عقولهم - هناك تقـديرات تقول إن أكثر من ثلث أطفال سراييفو يعـانون إلى درجة ما من أعراض توترمـا بعد الصدمة ، وهو مـا يعرف بصدمــة القصف - ولكن الظـروف التي اضطروا إلى معايشتهـا كانت إساءة إلى حساسهم بأنهم مخلوقات حية .

لقد كانت التفاصيل الدقيقة أسوأ من أي شيء آخر ، وبدا أنه كلما كان الشخص قبل ذلك مكتفياً ذاتياً ، كلما صعب عليه أو عليها أن يتعلم الاعتماد على الآخرين أو أن يستجدي المعـروف أو أن يطالب بمعاملة خـاصة . وكان سكان الريف والطبقة العاملة يبدون أكثـر مرونة فقد عايشوا تلك الضرورات قبل بدء القتـال . أما بالنسبة لأفراد الطبقة المتوسطة المضربة فإن معايشة هـذا الواقع الجديد كان بمثابة الصدمة . فقد قالت لي ذات مساء في سراييفو سيدة اسمها «إميلا سيمتيش» : «لقد تعبت من قول شكـراً ، واعتقد أن أقصى مـا أتطلع إليه وقت السلم ألا اضطر مطلقـاً إلى قول شكراً مـرة ثانيـة . يا له من تعبير رهيب . أعتقـد أنني سأرسل لأصدقـائي مظاريف بداخلها نقود وصناديق الشيكولاته . سوف أعطيهم الهدايا وسأعود كما كنت» .

وكانت سيميتش، وهي شخصية أدبية مرموقة ومترجمة معروفة في سرايفو هي الأولى التي اعترفت بأنها هي وزوجها، جوران الشاعر الصربي، كانا مميزين نسبياً بمقاييس سرايفو. فقد كان لهما أصدقاء في الخارج يحاولون أن يرسلوا إليهما الأشياء، وكانا على علاقة طيبة مع كثير من الصحفيين الأجانب في سرايفو والذين كان يمكن الاعتماد عليهم عادة في محاولة المساعدة. ولكن الضغط النفسي لكونك متلق للصدقات، بل والأكثر مرارة، المهانة وراء ذلك تزايد كثيراً مع استمرار الحصار لدرجة لا تطاق. لقد تعودت على زيارة إميلا وعلى محاولة ألا أقبل منها كتاباً أو أسطوانة أوبرا ثمينة أو إيشارب أو بعض الأغراض المنزلية الصغيرة. وكانت تقول دائماً: «إنني لا أحتاج إلى تلك الأشياء». ولكن ما كانت تقوله في الحقيقة هو أنها تريد استعادة بعض التوازن الطبيعي وبعض التحلل من الضغط الذي ولده لديها كونها مدينة لزوار أجانب. كانت تريد استعادة الشعور بالذات والكرامة التي سلبتها إياها سنتان من الحصار.

وصحيح أن إميلا كانت تتشكك في دوافع زوار سرايفو. فقد كتبت إلى صديقة تعيش في الخارج تقول: «لقد كنت أحاول أن اكتشف ما يجعلنا محبين إلى الناس الذين يفدون هنا. ولماذا يبدون إعجابهم ويجاملوننا ويحلفون أن ذلك من أجل الصداقة الخالدة؟ . . . إنني أتصور أن الأمر يحدث على هذا النحو. فالصحفي (أو عامل الإغاثة إلخ) يأتي إلى هنا متوقعاً أنه في أدغال «فمعظمهم غير مثقفين» ويكتشف أن هناك بعض الناس في تلك الأدغال مهندمين وعلى درجة من النظافة النسبية، بل ويتكلمون لغة أجنبية. . . سيكون غاية في الظرف أن نرى ما إذا كانت تلك الصداقات ستعيش على الجانب الآخر من الحدود عندما تتوقف «السلامات» في سرايفو. لا أعتقد هذا ومن هنا أقاوم الإعلان بأننا ضحايا وأبطال إلخ». وفي نهاية خطابها أضافت في استسلام «علينا أن نكون سعداء لتوفر فرصة» استخدام بطولتنا. وذلك، وكما تعلم هي تماماً، لأنه مع استمرار الحصار فإن الوضع في سرايفو يصير إلى التبعية الكاملة. وأكثر من ذلك، فقد تحول إلى وضع تسود فيه شريعة الغاب. وبالطبع فإن ما كانت تشير إميلا سيميتش إليه إنما هو أسلوب معاملة الصحافة والأمم المتحدة لسكان سرايفو كأناس مستعمرين. وحتى اللجنة

العليا للإغاثة، وقد اختزنت تجاربها في العالم الثالث، حيث تولدت لديها عادة الشعور بأنها تعرف ما هو الأفضل وأن على «المحليين»، كما يطلق عليهم مسؤولو الأمم المتحدة ـ وهو تعبير يبدو للأذن الغريبة لا يزيد عن كونه نسخة حديثة وليس بالضرورة محسنة لكلمة «السكان الأصليين» ـ أن يفعلوا ما يؤمرون به. وحتى في أفريقيا في التسعينات كان لين عريكة الناس بهذا الشكل موضع تساؤل. أما في البوسنة، وبخاصة في المدن، فان أعضاء اللجنة العليا للإغاثة واللجنة الدولية للصليب الأحمر من المحليين كانوا أكثر تأهيلاً في عملهم من الأعضاء الدوليين الذين تم إرسالهم من جنيف، وهو ما كان يثير شعوراً بالمرارة لدى أهل سراييفو، كما وضح في خطاب إميلا سيميتش، في إشارتها إلى نقص ثقافة الأجانب. وكان ذلك مدعاة لحيرة معظم الأجانب.

ومع ذلك ففي نهاية المطاف لا يهم إذا كان أهل سراييفو يملكون شهادات أعلى أو كانت لهم قراءات أكثر من الأجانب الذين جاءوا للمساعدة، أو كما في حالة قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة، للسيطرة عليهم رغم كل النوايا والأهداف المعلنة. فلم يعد هناك معنى كبيراً للمهارات التي تعلمها البوسنيون في مجتمعهم المتحضر على طريقة الطبقة المتوسطة. وهناك آخرون، أقل غروراً من إميلا سيميتش أو ربما أكثر واقعية، استسلموا ببساطة للوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه وكونوا صداقات مع المراسلين الأجانب، الذين يدرك أي مراقب ذكي أنهم لا يستطيعون الخروج عن هذا التفاعل المتبادل، أو بأمل الحصول على بعض فناجين من القهوة أو مشروب أو حتى فرصة توصيله بالسيارة. وسواء وجد البوسني أنه لن يكلفه الأمر شيئاً من الناحية النفسية إذا هو تكيف مع وضع التبعية أو وجد الأمر شديد الإيلام والمهانة، فإن أحداً لم يخرج سالماً من هذا الوضع. لقد كان ثمن هذه المزايا الضئيلة المتاحة في أماكن مثل سراييفو وتوزلا ـ وحتى بالنسبة للأجانب كانت الحياة أسبرطية، فلم يكن لدينا الكثير لنبذله ـ هو التبعية للأجانب. بينما كان ثمن رفض مثل تلك الاتصالات ـ ما لم يكن الشخص في وضع ينال فيه الحظوة لدى المافيا المحلية أو الجيش أوالشخصيات السياسية أو كان جزءاً من ذلك سلفاً أو لديه ما يتاجر فيه، كما كانت الفتيات يتاجرن بأجسادهن، هو الحياة في البرد والظلام والعوز.

سألتني سيدة كانت يوماً قاضية، في حفل استقبال في صالة للفنون أقامها السفير الفرنسي الوافد حديثاً على سراييفوا: «هل تعرف أسلوب حياتنا قبل ذلك؟ وهل بمكنك تخيله وأنت تنظر إلى حطام ما كنا فيه؟ لقد كنا نعيش أفضل منكم فأنا أعرف الكثير عن نيويورك وجرائمها وسكانها الفقراء. لم يكن ذلك لدينا شيء من ذلك في البوسنة. كنت تستطيع أن تمشي في الشوارع في سرايفو إلى أي وقت متأخر تشاء» وهنا امتلأت عيناها بالدمع «تلك الحياة الرائعة، إنني في شوق يائس إلى عودتها، لم أكن نفس الشخص الذي تراه الآن. فلم أكن المرأة التي تراها الآن، الرثة الفقيرة في تلك الملابس الرثة الكريهة التي لم تستطع أن تخفيها كل الروائح عندي. وكما ترى أن الإنسانة التي كنتها» ثم ابتسمت وبعد صمت كررت: «بالنسبة لنفسي سأكون دوماً نفس الإنسانة التي كنتها قبل كل ذلك».

كان لدى الكثير من أهل سرايفو الشعور نفسه. لقد كانوا يمقتون ما اضطروا إلى القيام به من أجل البقاء واستدركت السيدة قائلة: «لم أحسد أحداً مطلقاً قبل الحرب أما الآن فإن الحقد يقتلني. فأنا أفكر في الأشياء التي تملكها جارتي وأحياناً أفكر في نفسي قائلة: وغداً عندما تذهب لتحضر الماء سأتسلل وأسرقها. والأسوأ يكون عندما يأتيها زائر فأتساءل: «ماذا أحضر لها؟»، ثم أفكر: يا الله، لقد كنت قاضية قبل أن تصبحي لاجئة بائسة. هل حقاً حولتك هذه الحرب إلى أحد المجرمين الذين تعودت أن توبخيهم قبل أن تقومي بحبسهم؟» ونظرت في اتجاه آخر. كان ضابط فرنسي يعطي قارورة للزوجين البوسنيين اللذين كانا يحدثها. ثم هزت رأسها قائلة: «أترى؟ لقد تعجبت وقتها لماذا كنت أتكلم معك. فأنت لم تعطني شراباً. ذلك ما وصلت إليه وما وصلنا إليه جميعاً في البوسنة. لقد صرنا أمة من الشحاذين».

وأثناء حديثها كان «يتمشى» حولنا كاتب بوسني أعرفه قليلاً. كان الجو بارداً وكان يلبس عدة طبقات من السترات تحت الجاكيت الجلدي البني. وكان يصغي بتركيز يتجاوز قدرة شخص كان مخموراً. وقال فجأة مقاطعاً لها كما يفعل الرجال البوسنيون سواء أكانوا مخمورين أو وواعين، مع النساء البوسنيات: «نعم شحاذون. إنها كارثة أخلاقية. كارثة أخلاقية. قل لي من فضلك، ما هي الأخلاق، وما الذي أعتقده إذا

لم يكن هناك إله ولا ديمقراطية ولا مبادىء للولايات المتحدة؟ لقد أحببت تلك الأمور والآن كيف أعيش إذا كانت تلك الأمور غير حقيقية؟ وما الذي يمنعني من قتلك، أو قتلها، أو أن أفعل ما أريد من البذاءات؟

لم تكن تلك هي الطريقة التي تربت عليها أو تربيت عليها ولا الطريقة التي علمنا أولادنا أن يتصرفوا بها. لقدعرفت كارادزيتش فقد كنا زملاء في اتحاد الكتاب وكان شخصاً لطيفاً. وقد أحببته دائماً حتى وأنا أعتقد أنه طبيب أكثر منه شاعر. أما الآن فهو رجل مجنون وسفاح. لذا أين يتركني ذلك؟ إنني أؤمن بالشعر لا بالسياسة، هل يفترض أن أصبح رجلاً مجنوناً أنا أيضاً؟» ثم توقف وبدأ يلفظ الكلمات ببطء شديد وفي تأن «أفعل... بالضبط... ما... تريده... أنت». ثم أسرع في الحديث وبدأ بطرح السؤال الذي كان العملة السائدة في الحديث بين الأجانب والبوسنيين: «ما الذي تفعله الأمم المتحدة على النهر الشرقي؟ ماذا تفعل؟ في هذه الأيام يتكلمون في نيويورك كما يتكلمون دائماً. لقد مات هنا طفل في الرابعة قرب مصنع في فيليكسا كافا. لماذا؟ ليس لدي أدنى إدراك للسبب». كانت القاضية قد تحركت بعيداً وكنا وحدنا.

قال: «هل تستطيع مساعدتي»؟

وفي سرية دسست يدي جيبي الداخلي وسحبت ورقة بمائة مارك وأعطيتها له. فشكرني وقبلني على وجنتي وابتعد. وعادت القاضية. كانت قد شاهدت المنظر كله وأصبحت نبرتها الآن أكثر وثوقاً مما كانت عليه عندما بدأت الحديث معها وقالت: «إنني غير واثقة مما هو الأسوأ، الطريقة المهينة اتي استجدي بها النقود منك، أم تعبير الفهم والمعرفة الذي ارتسم على وجهك عندما أعطيتها له. كما ترى. نحن شحاذون. وأنتم أيها الأجانب سائحون. ولا أقول ذلك بأي نية سيئة تجاهك. إنها ببساطة طبيعة الوضع. لقد أفسدتنا تلك الحرب جميعاً. ولست واثقة عما إذا كنا سنتعافى. فالمباني يمكن إعادة بنائها فربما سوف يشعر الأوروبيون بذنبهم بحيث يرسلون إلينا بعض المال. وسوف يرغب العرب في إعادة بناء المساجد على ما أظن. ولكننا أصبحنا بضاعة مدمرة ـ جيل من الشحاذين من مصدومي القصف».

وحلقت السيدة نحو السفير الفرنسي، الذي كان يتبعه حرسه على بعد محسوب وهو يودع كبار البوسنيين الذين كانوا في استقباله. وكان المعرض، التي يتألف من أعمال لفنانين فرنسيين والذي كان تعبيراً عن «التضامن» مع سراييفو وجزءاً من مشروع أوروبي لخلق «جسر فني» نحو العاصمة البوسنية، كان يموج بالتأكيدات بأن سراييفو ستعيش.

راقبت القاضية ذلك بعينها في ثبات ثم قالت: «جميل جداً. لكن كان أمراً في غاية السوء في الوقت ذاته ألا يرسل الفرنسيون جنوداً إلى هنا لحمايتنا. لقد كانوا يستطيعون ذلك، كما تعلم، لقد كانت لديهم القدرة طول الوقت. كان الأمر غاية في السهولة بالنسبة لهم. لكنهم بدلاً من ذلك تركونا للموت».

الفصل السابع

أيا كان طول الفترة التي ظلت مسيرة الموت والتطهير العرقي فيهما محتدمة ومتواصلة في البوسنة، وأيا كان تكرار مسؤولي الأمم المتحدة سرا وعلانية أن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة متواجدة في البوسنة للتدخل فقط «لحماية أنشطة المساعدات الانسانية خلال الحرب»، كما قالها ماراك جولدنج وهو رئيس سابق لادارة عمليات حفظ السلام التابع للأمم المتحدة، فإن البوسنيين العاديين لم يستوعبوا مطلقا أن الأمم المتحدة تعني ذلك حقا. فقد كان المفروض أن تكون الأمم المتحدة أكثر أخلاقية من اكثر الحكومات استنارة، ومع ذلك فما كان يحدث في البوسنة كان سقوطا أخلاقيا صريحا. كان المفروض أن تساند الأمم المتحدة السلام وقد اصر مسؤولوها على أنها قامت بذلك. وفي التسعينات حتى حافظو السلام كانت لهم شعارات العلاقات العامة. فقد قامت الأمم المتحدة في البوسنة بطبع آلاف الملصقات والمعلقات كتب عليها: « قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة، لنعمل من أجل السلام» وفي كل مكتب للأمم المتحدة في البوسنة كانت هناك كومة من الأوراق. كانت أحداها موجة للأطفال بعنوان «ما تفعله الأمم المتحدة من أجل السلام». وفي العالم المثالي لذلك الكتيب لم ترد إشارة إلى عملية التفويض أو الى القيود. كانت تزعم أن «قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة» هي «مجموعة كبيرة من الناس من عدد كبير من الدول الذين جاءوا إلى يوغسلافيا السابقة لمحاولة ايقاف الحرب. انها تحاول أن تحمي الناس من الأذى في القتال الدائر تماما كما يفعل المدرس الذي يمنع الاولاد المشاكسين من ضربك في المدرسة».

كانت المأساة تكمن في أن العالم الذي صوره ذلك الكتيب هو العالم الذي تخيل كثير من البوسنيين أنهم يعيشونه عند بدء القتال. وقد تكون كلمات كتيب الأمم المتحدة طفولية في بساطتها، ولكن كان موقف البوسنيين على نفس الشاكلة ولكنهم لم يكونوا يؤذون بل كانوا يذبحون. وبدلاً من القيام بعمل ما هو ضروري لحماية

البوسنيين بالقيام بمهمة توصيل المساعدات الانسانية فقد بدا أن الأمم المتحدة لم تفشل في منع الذبح فقط، بل أجازته ضمنيا. كان هذا على أقل تقدير هو ما اتضح على أرض الواقع في البوسنة. وحتى حينما اتضح، بالنسبة لكل من البوسنيين والصحفيين الأجانب، ان مسئولي الأمم المتحدة لايصلون بنزاهتهم المتبجحة إلى درجة التعاون الفعالة التي يبدونها مع صرب البوسنة، فقد كان تقاعسهم مصدر إحباط وارتباك.

لقد بدا وكأن مسؤولي الأمم المتحدة أرادوا إنكار الحقيقة الجوهرية لما حدث في لبوسنة. وبمرور الوقت فإن الكثيرين، وبخاصة داخل قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة ـ كان مسئولو المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة يميلون إلى أن يكونوا في صف البوسنيين أكثر ـ أصابهم الإحباط مما رأوه من رفض الحكومة البوسنية القبول بهزيمتها. ولم يكن تفكيرهم غامضا. فقد كانت مهمة قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة تسهيل عمل المفوضية العليا للإغاثة في توصيل المساعدات الإنسانية. فماذا كان يقف في طريقهم؟ القتال. ومن كان يساعد على استمرار القتال؟ إنه جانب الحكومة البوسنية التي لم تكن مستعدة لقبول تمزيق الوطن.

لقد أصبح البوسنيون، بالنسبة للكثيرين في الأمم المتحدة، هم «العقبة في طريق» جهود المساعدة وذلك بمواصلتهم في المقاومة.

ولم يكن غريباً، في ظل تلك الظروف، أن يبدو مسئولو الأمم المتحدة مغتبطين عند الإشارة إلى أن الصرب لم يكونوا وحدهم الأشرار في مأساة البوسنة. قال لي عقيد أمريكي يعمل في قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة في سراييفو مشيراً إلى موقف كل من الصرب والكروات والحكومة البوسنية: «هناك قبعتان سوداء وواحدة رمادية في هذه الحرب» ولكن عندما كان مسئولو الأمم المتحدة يستطيعون أن يطرحوا جانباً عداواتهم الشخصية نحو البوسنيين لإطالتهم الحرب، فإن معظمهم كانوا مستعدين للإعتراف بأن ما حل بمسلمي البوسنة كان إبادة جماعية. وعندما سمع البوسنيون بذلك، ولكن مع سماعهم أيضا بأن الأمم المتحدة ليست «مفوضة» بعمل شيء إزاءها، فقد أخذوا الاعتراف بالجريمة بجدية أكثر من التحذير الرسمي واستنتجوا أنه إن عاجلاً أو آجلاً ستثوب الأمم المتحدة إلى رشدها.

لقد كان يجدر بالتأكيد أن يكون وقف الإبادة الجماعية أكثر أهمية ، بالنسبة لأناس رأوا على الطبيعة ما كان يحدث ، من مجرد التقيد بتوجيه يصدره مجلس الأمن هناك بعيداً في نيويورك . وبالتأكيد فإن أية سلطة اخلاقية يمكن للأمم المتحدة أن تأمل في ممارستها مستقبلا ستعتمد على فعلها شيئا ما في البوسنة .

فإذا كان كل ما تنوي أن تقوم به الأمم المتحدة هو إحضار الطعام والدواء ، أفلا يعني ذلك مجرد إبقاء الناس أحياء لفترة أطول حتى يتوافر للصرب مزيداً من الفرص لقتلهم؟ ألا يبدو متناقضاً أن يخاطر جنود الأمم المتحدة وسائقو قوافل اللجنة العليا للاغاثة بحياتهم واحيانا يفقدون أرواحهم لجلب الطعام إلى المناطق المعزولة ولكنهم يرفضون بعناد اسكات البنادق التي كانت تسبب هذه الطوارىء؟ إن من غير المتصور أن تقنع الأمم المتحدة بالاستمرار في هذا الاسلوب بلا حدود .

لو أن البوسنيين إنتبهوا إلى سخرية فريد كاني ، وهو موظف إغاثة أمريكي ذكي وذو خبرة عسكرية وانسانية واسعة أرسل من قبل رجل المال جورج سورو الأمريكي الهنغاري الاصل لإقامة نظام جديد لامداد الماء إلى سراييفو، لربما أدركوا أنهم كانوا على خطأ . أراد كاني أن يقول في لكنة تكساس الهادئة : «لو وجدت الأمم المتحدة عام ١٩٣٩ ، لكنا جميعاً نتكلم الألمانية الآن» .

هناك عبارة في التلمود تقول ما معناه : «لزام عليك أن تقول للناس ما يمكنهم سماعه ، لزام عليك الا تقول للناس ما لا يمكنهم سماعه» . وحتى بعد عامين من المذبحة لم يكن كثير من البوسنيين مستعدين لسماع أنه يجب عليهم أن يتوقفوا عن الثقة في الأمم المتحدة ، كما أخبرهم كثير من الأجانب . لم يستطع الكثيرون الإنصات لأن ذلك يعني ضياع مستقبلهم ، وكثيرون آخرون لم يستطيعوا الإنصات لأنهم في عهد تيتو كانوا يرون الغرب في صورة مثالية بحيث لم يتخيلوا أن الغرب يمكن أن يخونهم . ورغم أن تشخيصهم لذلك لم يكن خاطئا ، حتى وأن أخطأوا في الاستنتاج ، فقد كانت الأمم المتحدة بالنسبة لهم أداة للغرب .

وقد صورت جوردانا كينسيفيتس ذات مرة بقولها «لا يمكن ان تتصور مدى مبالغة الناس في سراييفو في فضائل الغرب . فقد افترضوا أن إزدهار الغرب شهادة

على فضيلته تماماً كما كان فقر الشيوعية مقترناً بطغيانها . فكثير من الذين عرفتهم إعتقدوا بحق انكم في الغرب قد خلقتم إمبراطورية من العدالة . وذلك هو السبب في أن الناس الذين ربما كانوا أكثر إحاطة بالأمور اصابتهم دهشة بالغة عندما لم يحدث تدخل . لقد شعروا بمثل ما تشعر به وانت تسرق عنوة على مرأى من رجل الشرطة الذي لا يفعل شيئا لإنقاذك . والآن أنا أعرف وأنت تعرف أن الغرب لا يريد في الواقع أن يكون رجل شرطة - ليس نيابة عن مسلمي البوسنة على أي حال - ولكن الناس في البوسنة لم يكونوا يعرفون ذلك . وعندما أرسل العالم شيئا أسموه قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة كان من الطبيعي أن يتصور الناس أنها أرسلت لحمايتهم وليس لمجرد حماية إمدادات الاغاثة وعمال المساعدات الانسانية» .

كان من الصعب تجنب تلك التوقعات في سراييفو . وبين حين وآخر كانت تطبع بالنبرة العنصرية الواضحة للأوربيين الذين يتوقعون معاملة خاصة من التاريخ . قال لي مرة رجل اعمال من سراييفو في نبرة آسى : «لا أستطيع أن أفهم لماذا لا تفعلون شيئا من أجلنا . إننا لسنا أفارقة ، نحن اوروبيون متحضرون مثلكم تماماً!» صدرت عنه هذه الكلمات عند مشاهدته لمعرض شرائح تم تنظيمه في سراييفو في معرض أوبالا وهو معرض طليعي للفنون استمر طوال الحصار بالرغم من كل الظروف . قدم المعرض اعمال مصور بريطاني شاب هو بول لوى ، الذي كان قد عمل في الصومال والبوسنة . كان مجرد العرض يتطلب شجاعة كبيرة ، حيث أن ذكر المأساتين في وقت واحد لم يكن أمراً مقبولا في سراييفو . وللحق لم يكن ذلك نتيجة لعدم مبالاة رجل الاعمال بمأساة القرن الافريقي ، بل لأنه رفض المقارنة التي حاول لوى ومدير المعرض ، ميرو بوريفاتر ، عقدها بين الوضعين .

إن التقوقع داخل الذات غالباً ما يكون إحدى النتائج المترتبة على المعاناة الشديدة ، ولم تكن نظرة رجل الاعمال غير المتفحصة تجاه مآسي الآخرين نمطاً خاصاً بسراييفو ، بل لكل الناس في اي مكان الذين لا يتوقعون البقاء على قيد الحياة بقية الاسبوع . فإذا كان البوسنيون يمثل هذا «التقوقع على أوربيتهم» الذي لا يعني في حالتهم سوى التقوقع الذاتي ، كما كان يحب مسئولو الأمم المتحدة القول بسخرية ، فقد كان هناك لون من العنصرية المعاكسة كامن في توقع أن يبدأوا شكاواهم بتعبيرات

التعاطف مع الصوماليين أو الافغان أو أهل روانـدا. ومع كل ذلك فلم يكن ذلك أيضا ما كـان يحب أهل كيجالي أن يسمعوه، في مايو ٩٤، عن البوسنة. إن ما كان يميز رد فعل كثير من البوسنيين بحق هو الدهشة من أن ما كان يحدث إنما يحدث لهم هم. فقد تخيلوا، مثل مواطني العالم الغني الآخرين، أنهم سيشاهدون مثل تلك المآسي على شاشة التلفاز لا أن تعانيها أجسادهم. وقد لخصت شابة كانت تعمل في إحدى وكالات الأنباء العالمية ذلك الارتباك المؤلم عندما أعلنت في إحدى أمسيات الصيف أنها كانت تنوي أن تمضي بقية اليوم في «أخذ حمام شمس»، واضافت تقول: «بما أن الأمم المتحدة لا تعاملنا كأناس بيض البشرة، فإن ما يلزمني هو اللون الأسمر».

على أن ما كـان يتأرجح في الميـزان بالنسبة للبوسنيين لم يكن، على المستوى الأعمق، وضعهم كأوروبيين بيض بل إيمانهم بالعالم كمكـان أخلاقي. وبعد عامين من القتال، أصبحت الاحداث في البلاد الاخرى شيئاً غير محسوس بالنسبة لهم على أي حال. فقـد كان البوسنيون العاديون يقلقون بشأن طعامهم وشرابهم ويشغلهم تجنب القناصة والقنابل والاحتفاظ بـدفئهم، وبعقـولهم. وقد يستمع أهل الطبقـة المتوسطـة إلى BBC أو صوت أمريكا على الموجة القصيرة أو يسألوا الـزائرين عما «يحدث» في باريس أو لنـدن أو نيـويـورك ولكـن مع فقـدانهم لحياتهم اليـومية كمستهلكين للأشياء وللمعلومات. فلم يكن باستطاعتهم معظم الوقت سوى أن يركزوا فقط على ما كـان يجرى لهم: على آلامهم وعلى دهشتهم. لقد دأبوا على السؤال عن السبب، كما كان اليهـود يسألون في أعقاب الهولوكوست وكما يسأل الضحايا في كل مكان لماذا لم تكفهر السماوات.

كانت هناك بلاشك أسباب دعائية لدى مسؤولي الحكومـة البوسنية في حديثهم عن المذبحة في بلدهم وطرحهم مفترق طـرقٍ اخلاقي أمام الغرب. لكن مهما تصور المتشائمـون فقد كانت دهشتهم حقيقيـة كذلك. فمن المفارقات المحزنة في الوضع البوسني ان حزب عزت بيغوفيتش لم يكن ملتـزماً كما يجب قبل الحرب ببوسنة متعددة الثقافات. ولم يكن ذلـك من منطلق الأصولية بالمفهـوم الإيراني، ولكن على المستوى الثقـافي على الأقل كـان كثير من قـادة البوسنـة يجنحـون إلى عـودة سكان البـوسنـة

المسلمين إلى الإسلام. ولكن مع استمرار القتال، ومعاناة وموت البوسنيين باسم الحفاظ على دولة متعددة الأعراق، أصبح التزام قيادة الحزب بالتعددية شديد الجدية. ولم يكن ذلك يعني انه لم يكن في الحزب أصوليون، أو أن القتال لم يخلق عالماً من المتعصبين الذين يصرون على ترديد «السلام عليكم» بدلاً من «نهارك سعيد» وينادون بأنهم مجاهدين. لكن الاتجاهات السائدة كانت تسير في الاتجاه المعاكس على مدى السنتين الأوليتين من القتال، بصرف النظر عما راود هؤلاء الذين أرادوا إستبعاد الصراع البوسني كحرب أهلية لا مناص منها أن يتصوروه. ولم يبدأ الاسلاميون يستمتعون ببعض النجاح في التقليل من شأن مبدأ التعددية الثقافية في البوسنة الحضرية وبدأ الحزب نفسه في الانجذاب نحو القومية الإسلامية، إلا في أواخر عام ١٩٩٤، عندما فقد معظم المسلمين الأمل تماما في اي نتائج عادلة.

وحتى ذلك الوقت استطاع أغلب البوسنيين القادرين على وصف محنتهم في عبارات عقلانية أن يقوموا بذلك بأسلوب التشبيه الأخلاقي. ولم يكونوا في ذلك يلعبون على أوتار الرأي العام العالمي فحسب، بل كانوا يتحدثون بنفس الأسلوب مع بعضهم البعض: كرر حارس سيلازيتش مراراً في التلفاز البوسني: «إذا لم يتم عمل شيء لصالحنا فذلك يعني أنه لا وجود لشيء إسمه الاخلاقيات في شئون العالم» وذات مرة أضاف: «هل يريد الناس فعلاً في أمريكا وبريطانيا وفرنسا أن يعيشوا في عالم كهذا؟ إنني ببساطة لا أستطيع أن أصدق ذلك». إذا كان البوسنيون يريدون محاولة كسب اهتمام الغرب أو إثبات فكرة أنهم كأناس متحضرين يستحقون معاملة خاصة فلم يكن يجدر بهم أن يسارعوا بالصاق الكارثة التي حلت بهم إلى التداعي الروحي للعالم الغني. ولقد كان علي عزت بيغوفيتش بشكل خاص ميالا إلى هذا النوع من التفكير. فقد أبدى لي ملاحظة حول أن خمسين عام من الراحة جعلت الناس في الغرب «مرتخين أخلاقيا»، كما يميل سيلازيتس إلى الاشارة إلى الأزمة الروحية التي تهدد أوروبا والتي كانت اللامبالاة بقضية البوسنة، كما صورها بهدوء مذهل «أحد أعراضها الثانوية».

وهناك آخرون، وهم الذين كانوا إما براجماتيين أو متيمين بالثقافة الغربية لعنوا أنفسهم لسذاجتهم وعدم قدرتهم على نبذ الأمل. فقد قال السينمائي

ادميركينوفيتش، والذي لم يكن ساذجاً سواء من الجانب الشخصي أو السياسي، ذات مرة: «ربما أنني مجرد بلقاني أبله لكن أيا طال أمد هذا الوضع، فإنني لا أستطيع أن أتصور أن العالم سيقف متفرجاً بينما نذبح نحن جميعا. ولكن ها نحن نذبح هنا، وأنا مازلت على أمل» كذلك قال لي مسئول في مركز الجماعة اليهودية، وهو رجل أعمال صارم عمل في يوغسلافيا السابقة، بلهجة نصف ساخرة ذات مساء: «لقد تربيت على أفلام رعاة البقر. وفي تلك الأفلام يأتي الفرسان دائما عند النهاية. ولعله يبدو لك من الغباء أنني عندما أنظر إلى السماء وأرى طائرات حلف الناتو تطير فوق رأسي أواصل التفكير: «هذه الطائرات هي فرساننا المنقذين المحدثين، لكنهم لا يفعلون شيئا من أجلنا».

إن ما لم يكن البوسنيون من كل لون قادرين على تقبله هو التفكير في أنه لا يبالي بهم أحد. فإذا كان الغرب يخاف الصرب أو أنه منحل أخلاقياً، كما يعتقد عزت بيجوفيتش وبعض سياسيي حزبه، فذلك كله يبدو مفهوما على الاقل. وإذا كان عدم التدخل مبني على نقص في المعلومات والمطلوب إخبار الناس في الغرب مرة أخرى بالمضمون الكامل للمذبحة، فذلك مفهوم كذلك. أما الذي لا يحتمل أي فهم فهو التفسير الذي يستحيل طرحه على أي واحد من أهل سراييفو والقائل أنه بصرف النظر عما أدت إليه خمسون سنة من الرخاء من تراخ أخلاقي فإنها جعلت الغرب جاف المشاعر على نحو غير أخلاقي، وأنه اذا لم يكن هناك تدخل في البوسنة فذلك لأن القوى الغربية لا يهمها مصير البوسنة بالقدر الذي تضحى فيه حتى بأرواح عدد قليل من جنودها. ومن الناحية الإنسانية كان هذا الإنكار مفهوما. أو كما يحب زورافكوجريبو (وهو استاذ في القانون أدار أفضل محطة إذاعة مستقلة في سراييفو، راديو «زد» ـ وزد معناها حائط ـ وكذلك عمل منسقاً لمؤسسة المجتمع المفتوحة في البوسنة التابعة للممول جورج سوروس)أن يردد دائما: «كل هذا وهم بالطبع ولكن على الناس أن يعيشوا على شيء ما» ولقد كان من غير المعقول أن نتوقع من كثير من أهل سراييفو أن يسيروا على نهجه العقلاني هذا في التفكير تماما مثلما نتوقع من الناس أن يستمروا في التصرف بمثل تلك البطولية التي أبداها الكثيرون في سراييفو وأماكن أخرى دون أن يتوفر لهم أي أمل في النصر أو النجاة.

ولقـد اعتقـد كثير من مسئولي الأمم المتحـدة، المقتنعين بأنـه لم يكن هنـاك أدنى احتمال بتدخـل عسكري غـربي مطلقا، أن مـؤيدي البوسنة الأجانب ـ وبخـاصة الصحفيين ـ قد ألحقـوا أذى كبيرا بتعزيز تلك الأوهام. ولم يكن الأمـر يتعلق بما يقال للبـوسنيين، بل تمثل بـالاحـرى، وكما أصر بعض رجـال الأمم المتحـدة، في أن الصحفيين، بجعلهم إعلان الحكومة الأميركية باستحالة التـدخل أمراً غير مستساغ سياسياً، وبجعل السخط الشعبي حيـاً في أوروبا الغربية وبخاصة في فرنسا، عززوا آمالاً كـاذبة وحرضوا السلطات البوسنيـة على قراءة للموقف السيـاسي مضللة في أساسها. وقـد صرح لي مسؤول مدني رفيع في قوات الحماية التابعـة للأمم المتحدة بأن ما كان يمكن أن يفعـل الكثير للتخفيف من معاناة الشعب البوسني هـو إعلان عام من الأمريكان بأنهم لن يأتوا. وبـدلاً من ذلك فقد استمرت إدارة كلينتون حتى ربيع ١٩٩٤ في التلويح بالأمل في التدخل.

ولـو أن واشنطن كانت غير مخلصـة في ذلك منذ البـداية إلا ان الامـور اختلطت عليهـا، أو أنها أسقط في يـدها وهـو مـا يبدو واضحا بصـورة متزايـدة باسترجـاع الاحداث، فإن ايـدي الرئيس كلنتـون ومستشـاريه ستصبح مخضبـة بدمـاء البوسنيين مثل الجنـرال ميلاديتش. ذلك ان امكـانيـة تدفق المسـاعـدة العسكريـة، بين وقـت وآخر، هو الذي صلّب موقف الحكومة البوسنية فيما يتعلق بمواصـلة القتال. وكانت الأمم المتحدة محقة في ذلك. وقد يصر رئيس وزراء البوسنة حارس سيلازيتس على أن جيش البوسنة سيهزم الصرب، ولكنه يعرف الى اي مـدى كان الوضع متـدهوراً على أرض المعركة. فبدون التدخل العسكري كان تقسيم البوسنة بشروط ليست في صف الحكومة أمراً محتوما لا محالة ـ قبلت الحكومة البوسنية سراً مبدأ اجراء نوع من التقسيم منذ أيام خطة فـانس/ أوين ـ وحقيقـة أنه منـذ أواخر خـريف ١٩٩٤ بدأ الجيش البوسني في تحسين وضعه في ميدان القتال لم تغير الوضع بشكل جذري.

ولكن إذا كـان للمـرء أن يحكم بـالاقـوال الصـادرة عن واشنطـون او من بعض السيـاسيين في باريس كـذلك ـ مع غـرابـة ذلك حيث عارض الفـرنسيون التـدخل بصرامة منذ البدايـة ـ لكان من الصـعب الاستنتاج بأن الضربات العسكرية الغربية ضـد الصرب ستتوقف. كـانت هناك فترات قصيرة بين ١٩٩٢ ، ١٩٩٤ حينما بـدا

وكأن الولايات المتحدة كانت تتأهب إما للعمل بمفردها أو لإلزام نفسها بالضغط على حلفائها لتأييد التدخل العسكري خلف الناتو. وبعد ذلك، تعود البوسنيون على منظر الزيارات الطائرة لجنرالات الناتو الأمريكيين وعلى وصول الصحافة بالجملة إلى فندق هوليداي إن في سراييفو، مرسلين من رؤساء التحرير الذين كانوا يتوقعون على ما يبدو سقوط القنابل في أية لحظة. وقد يتصنع ذو الخبرة السخرية ولكن حتى هم كان يمكن ان يكونوا عصبيين لأيام قليلة. كان من الصعب في هذا الجو حتى على البوسنيين الذين استوعبوا أخيراً النهاية المؤلمة من أن أحداً من الخارج لن يمد لهم يد المساعدة، الاستمرار في الاعتقاد أنهم سيتركون ليواجهوا مصيرهم.

وبالنسبة لمسئولي الحكومة البوسنية لم يكن أمامهم إلا أن يستمروا في محاولة حث الحكومات الأجنبية، وبخاصة الولايات المتحدة، على التدخل. وحتى مع احتمال حدوث التدخل فقد ذكر صغار الضباط البوسنيين في عام ١٩٩٣ أن معلميهم كانوا يخبرونهم بشكل روتيني أن تدريبهم يهدف إلى إعدادهم لهجوم بوسني أخير لن يتم قبل عام ١٩٩٦ على أقل تقدير. ولكن في تلك الأثناء، حتى وهم يتطلعون إلى التدخل وينتظرونه، فقد استلزمت متطلبات البقاء يوماً بيوم من جانب حكومة البوسنة أن يبحث البوسنيون عن المساعدة ليس من الناتو ولا من الفرقة الأمريكية ٨٢ المحمولة جواً، ولكن من اللجنة العليا للإغاثة وقوة الحماية التابعتين للأمم المتحدة. فقد كانت القوى الوحيدة التي تقف بين البوسنيين وقوات الجنرال ميلاد يتش.

وفي سراييفو وفي وسط البوسنة والقطاعات الشرقية لسريبتشا وغوراجده، وبخاصة بعد ان احتل الصرب المناطق المحيطة بتلك الجيوب، أصبح هذا الاعتماد كاملا تقريبا. فكلما زاد إجبار الناس على الاحتشاد في المدن، كلما زاد الجوع وانعدمت الراحة وزاد اعتمادهم على المساعدات الإنسانية. ولفترات طويلة نجحت أماكن كثيرة مثل ماجلاي ـ والتي كانت مدناً تجارية وتضاعف عدد سكانها مرتين أو ثلاث بعد التطهير العرقي للمناطق المحيطة ـ من الهلاك بفضل الإمدادات التي كانت تسقطها طائرات النقل الأمريكية. وبشكل عام، باستثناء وضع سراييفو حيث أنقذ الجسر الجوي للجنة العليا للإغاثة بالفعل أرواح آلاف كثيرة من الناس من الموت جوعاً، فإن جزءاً قليلاً فقط مما قدرت اللجنة العليا للاجئين حاجة الناس إليه هو

الذي كان يصلهم فعلاً . وقد أوجز ضابط في اللجنة العليا للإغاثة في نهاية ١٩٩٣ ، وهي إحدى أسوأ فترات القصف ونقص الحاجات الأساسية في العاصمة ، الوضع بقوله : «بحسب معدل تدهور الأمور في كل مكان آخر، وأياً ساءت الأحوال هنا فستظل سراييفو جنة البوسنة حتى بقية هذا الشتاء» . وكما قال لاري هولنجورث ، العقيد الإنجليزي السابق ذو اللحية البيضاء والذي كان أحد مسؤولي الإغاثة في البوسنة الأكثر تأثيراً والأكثر صراحة ، فإن الصرب استمروا ليس فقط في «التهام القرى واحدة بعد الأخرى» بل انهم احتجزوا أعداداً من القوافل أكثر مما سمحوا به . وبرغم كل ما يقال عن ان وجود قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة لتسهيل برنامج الإغاثة فلم يكن من سلطة الجنود استخدام القوة عند منع القافلة التي يرافقونها على الحواجز . إذ كان يفترض أنه إذا أمكن المرور بقوة السلاح مرة فسوف يترتب على ذلك ان يكون مرور القوافل التالية أمراً مستحيلاً . وبرغم مزايا هذا الجدل فإن النتيجة العملية هي أن النذر القليل من المساعدة كان يصل إلى الأماكن التي هي في أمس حاجة لها . وكمثال واحد على ذلك أنه خلال الفترة من أغسطس ١٩٩٢ حتى مارس ١٩٩٣ تمكنت ثلاث قوافل فقط للجنة العليا للإغاثة من المرور إلى سربيتنشا . ولأن حرب البوسنة لم تكن مسرحية أخلاقية ساذجة ، فإن كثيراً من ذلك النذر القليل لم يذهب إلى السكان الأكثر حاجة اليه بل أخذ طريقه في النهاية إلى المحاربين على جبهة القتال . وكان من المألوف أن ترى أن مواقع الحكومة البوسنية تحميها أكياس الرمل المصنوعة من أكياس أغذية الإغاثة أو من ألواح البلاستيك التي أرسلتها اللجنة العليا للإغاثة للاستعاضة عن النوافذ التي دمرتها القذائف . ولم ير أي من البوسنيين الذين التقاهم المرء غضاضة في ذلك . فالحرب تأتي في المقدمة .

ومع ذلك فقد كان من الصعب على أي مستوى الحفاظ على الجهود السياسية والديبلوماسية والإنسانية في أطرها الصغيرة المنفصلة .

فإذا كان للأمم المتحدة أن تستمر في تسيير قوافل الإغاثة الإنسانية ، فعليها أن تغمض عينيها عن طريقة استخدام بعض الإمدادات . ومن جانبها سرعان ما أصبحت القيادة البوسنية في سراييفو تعتمد على كرم ومعروف قوات الحماية ، حتى وهي تستنكر عدم فعل المزيد ، حتى في أمور أساسية مثل الدخول والخروج من

المدينة المحاصرة. وعلى مدى القتال، استطاع البوسنيون أن يحفروا نفقين من المدينة، تحت خطوط الصرب والمطار الذي تسيطر عليه الأمم المتحدة، إلى قرية تحت إدارة الحكومة واسمها بوتمير. كان هذان النفقان، والذان كانا في منتهى السرية حتى ١٩٩٣ عندما سمح لتشاك سوديتيك من نيويورك تايمز ان يعبر في أحدهما (سرت إشاعة عن نية الأمم المتحدة أن تذيع نبأ وجودهما) وسيلة احضار معظم السلاح والمواد الغذائية من السوق السوداء ووسيلة الجنود وبعض المواطنين للخروج. ولم يكن المرور سهلاً فقد كان النفق منخفضاً ومعتماً ويصعب السير فيه لأي شخص سوى الصغار والأقوياء. فعندما أراد علي عزت بيجوفيتش، وهو رجل الرابعة والسبعين، ان يزور قواته في وسط البوسنة - وهي رحلة لن تسهلها قوات الحماية - فقد قيل أنه لزم ركوبه على عربة يد داخل النفق. وعلى أية حال، كان النفق بالنسبة لمعظم أهل سراييفو يبدو في كوكب آخر. فالحياة اليومية في سراييفو كانت حياة في مدينة أحكم عزلها من جانب الصرب في المقام الأول بالطبع وكذلك من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة.

وللوهلة الأولى بدا تحديد الأمم المتحدة لقواعد الدخول والخروج من سراييفوا أمراً لايمكن احتماله، فالمدينة في النهاية عاصمة لدولة عضو في الأمم المتحدة.

وفي ضوء هذه الحقيقة ونتائجها المباشرة والمتمثلة في ان الصرب في بالي كانوا القادة غير الشرعيين لتمرد ضد دولة معترف بها دولياً، فبإمكان المرء أن يتوقع إذعان مسئولي الأمم المتحدة لرغبات عزت بيجوفيتش ورفاقه. ومن المؤكد أنه كان من المذهل ان ترى مسئولي الأمور المدنية التابعين للأمم المتحدة يأخذون على عاتقهم تنفيذ الادارة الفعلية لحصار الصرب بتحديد العدد القليل من أهل سراييفوا - معظمهم من رجال الحكومة والصحفيين المحليين -الذين يستطيعون الطيران على رحلات الإغاثة التي يستخدمها الصحفيون الأجانب والشخصيات المرموقة من الزائرين في الاياب والذهاب.

كانت طائرات النقل التابعة للناتو التي تستأجرها اللجنة العليا للاغاثة تعود فارغة في رحلات العودة إلى قواعدها في سبليت وأنكونا وفرانكفورت، وإذن لم يكن الموضوع مسألة وجود مكان. ولكن ذلك لايهم. فحسب أقوال الأمم المتحدة لم يكن

لديها «تفويض» بنقـل الناس . وعلى أية حال- رغم عدم وجـود نص مكتوب- فإن منع الناس من المغادرةكـان جزءاً من الاتفاق بين قوات الحماية التابعـة للأمم المتحدة والجنرال ميلاديتـش عندما تخلى الصرب عن المطار ليكون تحت سيطرة الأمم المتحدة في أوائل صيف ١٩٩٢ .

ولم يحرم البوسنيـون فقط من التصريح بالسفر على رحلات الطـائرات بل سرعان مـاحـددت فقط ٦ رسـائل يحملهـا الصحفيـون الأجـانب عن أهل سرايفـو عنـد مغادرتهم . قـال لي شرطي مدني سـويدي تـابع للأمم المتحـدة عندمـا اكتشف مخبأ للرسائل في جيب سترتي وصادر معظمهـا : « أنت صحفي ولست ساعي بريد . ولن اسمح لك بأخذ تلك الرسـائل فقد يكون في احداها متفجرات بـلاستيكية» وعندما سألتـه ما إذا كـان قد وجـد اي سيمنكس او فورمكس اجـاب بمنتهى الأمانـة : «لا ليس بعد . . . شكراً» ثـم تحول الى صحفي بوسني معرفتي به قليلـة وأفرغ كل أشياء الرجل الصغيرة ودس يديه فيها . فلا هذا الشرطي ، الـذي كان بالمقارنة أقل غطرسة من الفرد العادي في قوات لـلامم المتحدة (كان يمكن الاعتماد على كتيبة صغيرة من الكولومبين فقط في التعامل الانساني ، اما الكنديين والاسكندنافيين فكانوايتصرفون مثل حراس السجون) ولا أي من رؤسائه الذين تحدثت معهم أحسوا بشيء خاطيء في سلـوكهم أو نـاقشوا مـدى الليـاقـة في أن يحددوا مـاومن يـدخل أو يخرج من سرايفو . وعنـدما يـرى المرء الجندي التـابع لقوات الأمم المتحدة اثنـاء العمل ، يفهم السبب في أن كثيراً من الناس في العالم الثالث يتشككون في استخدام عمليات الأمم المتحدة لعمليـات حفظ السلام لاقامة شكـل جديد من الاستعمار. لقد كـان رجال الشرطة المدنية ورؤسـاؤهم في الشؤون المدنية الذيـن قابلتهمفي البوسنة ، أنـاسأ كان من الممكن أن ينـاسبوا تمامـا المقدمة في منطقـة نـائية من الهنـد البريطانيـة يفرضـون القوانين على أجناس دنيا أعطيت لهم السلطـة عليهم . ولاشك أن الشرطة الامبريالية عام ١٨٩٣ كانت مستعدة لتبرير سلوكها بطلب «تفويض» من المكتب الاستعماري في لنـدن كما يحيل الآن مسؤلـو الامم المتحدة جميع الاستفسـارات الى مجلس الامن في نيويورك .

لم يكن دور رجـال الأمم المتحـدة كحراس بـوابـات محصـوراً في الإهـانـة ونـزوة

استعراض السلطة -باسم منع أي تهديد إرهابي محتمل- على القليلين الذين منحوا تصريحاً بالسفر على رحلات الإغاثة. بل كانت قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة تجوب أيضاً ممر المطار لتعيد الأشخاص الذين خاطروا في يأس في مواجهة القناصة الصرب لكي يغادروا سراييفو. وقد مات كثير من أهل سراييفو عندما كانت الأضواء الكاشفة لجنود الأمم المتحدة التي تستخدم في تحديد اماكنهم على المدرج تفيد في تسليط الأنوار عليهم للقناصة الصرب القريبين. كما كانت هناك قصص كثيرة عن افراد من جنود الامم المتحدة يهينون بشكل روتيني اؤلئك النفرمن أهل سراييفو الذين يمسكون بهم. وقد انكرت الأمم المتحدة ذلك. ولكن حتى عندما كانت تظهر بعض الامور التي يتسم انكارها مثل حادثة ١٩٩٣ عندما قامت ناقلة افراد جنود مصفحة تابعة لقوات الحماية اثناء دوريتها بالسير فوق البوسنيين المنكمشين قرب مدرج الإقلاع- فإن مسؤولي الأمم المتحدة بدوا غير نادمين مؤكدين ان منع الناس من المغادرة كان جزءاً من اتفاقهم مع الصرب. وعندما يقول لهم احد أنه باسم الانسانية كان يمكن أن يجوبوا بدورياتهم بهمة أقل، حيث أن هناك في النهاية الكثير من الجوانب في التفويض لم يستطيعوا او لم يرغبوا في تنفيذها - كحماية الملاذات الآمنة الست التي حددها مجلس الأمن على سبيل المثال- كانوا عادة يجيبون بأن عدم مرورالدوريات سيجلب عليهم غضب الصرب ويعرض للخطر النقل الجوي الإنساني.

وقد يكونون على صواب، رغم أنه يبدو أمراً بعيد الاحتمال، ، حيث إنه عندما أراد صرب البوسنة أن يغلقوا المطار لم يبد مطلقاً انهم يحتاجون الى ذريعة لذلك. فقد كانوا يطلقون بعض من القذائف او يطلقون النار على طائرات الأمم المتحدة. لكن كانت سمة قرارات الأمم المتحدة في البوسنة أن قوات الحماية لم تحاول مطلقاً أسلوباً أرق مع البوسنيين ولم تنتظر مطلقاً لترى اذا كان الصرب سيقومون بالانتقام. كان يمكن للأمم المتحدة أن ترسل دوريات أقل وكان يمكن أن تغمض عينها عن النساء من دوبرينيا او سراييفو وهن يعبرن المطار واذرعتهن محملة بالطعام وهن عائدات من المدينة أو بحقيبة صغيرة اذا كن يحاولن الهرب بها كما كانوا يغمضون أعينهم عن السوق السوداء التي كانوا يروجونها هم. فقد كان من الأسرار المكشوفة في سراييفو أن

يقوم أفراد من الكتيبة الأوكرانية لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بتهريب الصرب الذين كانوا يريدون مغادرة سراييفو الى بـالي مقابل ألف مـارك . كان العبور غـاية في الخطورة حيـث كان القناصة الصرب يضعون تلسكوبا بالاشعـة تحت الحمراءعلى بنادقهم ويطلقون النار. ولكن قوات الحماية كـانت لاتكل ولاتتعب من أرسال الدوريات لاستعادة الناس الذين تقبض عليهم وعادة ماتصادر الأطعمة التي يأتون بها إلى المدينة . أما ماكـان مزعجاً في ذلك كله، حتى اكثر من السيـاسة نفسها، فهو انعدام الخجل لدى الأمم المتحدة وهي تنفذها . لقد بدا الأمر وكأنهم عاهدواأنفسهم على أنهم الطرف الفاضل – الطـرف الفـاضل الـوحيد حسب تفسيرهم –في المأسـاة البوسنيـة وكل مايفعلونـه كان فاضلاً حتى الغلظـة في سـلوك قوات الحمايـة في مطار سراييفوا . وبهذا التقـدير المبالغ فيـه للذات المنتشر بين مسؤولي الأمم المتحـدة، كان من السهل ان يتولد لديهم الاحساس بأن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة اعتبرت نفسها الطرف الحقيقي المضطهد في البوسنة .

ومع ذلك وبـالضرورة كانت الحكـومة البوسنيـة مضطـرة إلى التعاون مع قـوات الحماية حتى في مسائل الدخول والخروج من المدينة .

فاذا احتاج حارس سيلازيتش او أي مسؤولين حكوميين آخرين مغادرة سراييفوا لحضور جولة اخرى من المفاوضات في جنيف، فإنهم يستطيعون ذلك فقط على متن طائرات الأمم المتحدة . ولهذا الغـرض، كان يمكنهـم الوصول إلى المطـار بأمان فقط عند ركوب ناقلة المصفحة التابعة للأمم المتحدة . وعندما كان مسؤولو قوات الحماية يتضـايقـون بـالفعل فإن أول خطـوة يتخذونها كـانت في العـادة أن يهددوا بـايقـاف استخـدام المسؤولين البـوسنيين للنـاقلات المصفحـة . ذات مرة شـاهـدت مظاهـرة للبـوسنيين ضد الأمم المتحـدة قال خـلالها ضـابط فرنسي كبير هـو العقيد فـالتين لمسؤول بوسني متواجد إنه « اذا لم يتوقف ذلك فوراً، ففي المرة الثانية التي يريد فيها جانيك (نائب الرئيس) أن يذهب إلى المطار فليذهب على قدميه» . وحتى ساداكو أوجاتا مندوبة اللجنة العليا لـلاجئين نفسها كانت ضالعة في هذا النوع من التكتيك فبعد فترة عصيبة من القصف وعنـدما دعـا عمدة سـراييفو إلى إضراب عـن الطعام أجـابت أوجاتـا وكأنها تتعامل مع مجمـوعـة من الأطفال الاشقيـاءبأن علقت النقل

الجوي حتى تراجعت سلطات المدينة عن الاضراب .

كان الأمر استعراضا محضا للقوة . في ذات الوقت، كانت مخازن اللجنة العليا للاغاثة في سرايفوا مكدسة وكان يمكن لها أن تستغل الفرصة لإعادة ملئها . ولكن بالنسبة لأوجاتا بدا أن الأكثر أهمية ان تعيد إلى الاذهان أنه مع كون البوسنة دولة مستقلة فأن اليد العليا كانت لقوات الحماية ومندوب اللجنة العليا للاجئين التابعين للأمم المتحدة .

وعندما يحدث خطأ، حتى في امر بسيط مثل نقل مسؤول بوسني من أو الى المطار، تسرع الأمم المتحدة الى لوم الجميع عدا نفسها . ففي يناير ١٩٩٣ كان نائب الرئيس، قدرة دكتور حاكيا توراليس، وهو أبرز عضو في حكومة عزت بيجوفيت، عائداً إلى سرايفو في عربة لنقل الأفراد بعد اجتماع مع مسؤولي الاغاثة الانسانية الاتراك في المطار. وعند منحني عند منتصف الطريق الى المدينة، حيث أقام صرب البوسنة بعد ذلك نقطة تفتيش- رغم حقيقة انه بناء على اتفاقية المطار كان يسمح لهم مسبقاً بتفتيش امدادات الاغاثة في المطار وانهم قد تخلوا كما هو مفترض عن السيطرة على الطريق للأمم المتحدة- فقد اوقفت قافلته من قبل مائة وخمسين من مقاتلي الصرب وعدد من العربات المصفحة . وتلى ذلك تحفظ عليها . وبدلا من أن يطلب المساعدة من قوة الحماية الموجودة في المطار فقد قام قائد الكتيبة الفرنسية، العقيد باتريس سارتر، بإبعاد عربات القتال البريطانية التي تصادف وجودها في موقع الحداث . وعندما عرض قائدهم الكابتن بيترجونز الانتشار حول ناقلةالجنود المدرعة التي كان يجلس فيها توراليتس صرفه سارتر قائلاً« هذه مشكلة فرنسية» . وبعد قليل سمح سارتر بفتح مؤخرة الناقلة ليظهر للصرب، كما قال لاحقا، أنه لاتوجد أسلحة أو « مجاهدين» يركبون مع توراليس وعند ذلك بكى توراليس حسبما قاله فرنسي بجند يركب معه . وقد كان لرعبه مايبرره ففي حضور سارتر صوب مقاتل صربي مسدسه ببساطة خلف كتفه وداخل مؤخرة العربة ومزق دكتور توراليتيس إرباً .

وقد برأت لجنة تحقيق تابعة للأمم المتحدة الجنود الفرنسيين وأشارت إلى أنه كان خطأ من البوسنيين بخلق « جو من التوتر» بين الصرب ذلك اليوم . وادعى التقرير ان الصرب « انزعجوا» من وصول الطائرة التركية . ولم يعط البوسنيون قوات الحماية

إشعاراً في الوقت المناسب عن الرحلة .

أما بخصوص العقيد سارتر، فبدلا من إعـادته لوطنه ، سمح له بمواصلة العمل في البوسنة ، وعند عـودته إلى فرنسـا ، نال نـوط الشرف مكافأة لـه ، ثم ارسل لاحقا لقيادة أحـد عناصر قوة التـدخل الفرنسية في رواندا . ولم تكن هنـاك مدعاة للـدهشة لتبرئة لجنة تحقيق قـوات الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة لسـارتر بـالنسبة اى شخص يعرف كيف كـانت قوات الحماية تعـاملموظفيهـا فالتغطية على التنفيـذ السيء للأمم المتحدة كان واضحاً مسبقاً من خلال رفضها قبول الإحتمال بتورط افراد قوات الحماية في سوق سوداء واسعـة ، وهو ما نبه إليه الصحفيون كثيراً . وقـد أرسل القائد الفرنسي لقـوات الحماية ، الفريق فيليب مـوريون بـالفعل بعضـاً من الجنود الاوكـرانيين إلى بلدهم ولكنه اصر على ان بذاءاتهم كانت حـوادث منفصلة . ويبدا انه لا الفساد ولا التقصير كانا سبباً يـدعوا إلى التقيـم الذاتي لدى الرتب العليا في قـوات الحماية التابعة للأمم المتحدة .

وعلى ذلك فقـد كـانت لـدى البوسنيين أسبـاب كثيرة ليفقـدوا ثقتهم في قـوات الحماية تماثل على الأقل مـاكان لديهم للترحيب بهم . ولكن أحد الاشيـاء التي تعلمها المرء في البوسنة هـو أن الناس قـادرون على الابقـاء على العديـد من الآراء ، بل وربما هويـات متعددة ، في وقت واحد داخل عقولهم . واكثـر الامثلة وقاحة وإزعـاجاً على ذلك بالطبع هـو قدرة الكثير من صرب البـوسنة على ان يتصوروا أنهم متـديـنين تماماً وقبليين في الأسـاس في آن واحـد . وعلى جانب الحكومـة البوسنية كـان من المحزن أن تدرك أنه أيا كـان تكرار استنكار الناس للأمم المتحدة ، وفي سراييفـوا بصفة خاصة ، وغضبهم تحت احتلالها الجزئي الحميـد ، فقد توقع البـوسنيون كـذلك أن تقوم الأمم المتحدة بـدور اكبر من أجلهم وليس فقط ارسال قـوافل وطائرات نقل محملـة بالمواد الغذائية والدواء . أمابالنسـبة للأمم المتحدة فإن البوسنيين ، وإن لم يكونوا أولادا طيبين ، فهم على الأقل الجانب الواقع عليـه معظم الظلم والذين اضطروا لـلإستسلام من أجل مصلحتهم . وبالنسبة للبوسنيين فربما كانت قوات الحماية يدها قد رفعت يدها وتتصرف بدون فـاعلية ولكن لو أن قواتها انتشرت في البـوسنة فإنها عاجـلاً أو آجلاً كانت ستدخل إلى جانبهم لإنقاذهم .

لقد كان الجنرال ماكينزي محقا في ربط ذلك الاعتقاد الخاطىء بالأمل في أن التدخل العسكري للأمم المتحدة آت في آخر المطاف ، وبالنتيجة المترتبة على ذلك الاعتقاد وهي الشعور الحاد بخيبة الأمل عندما لم يتم ذلك وكذلك بالنسبة لمشكلة تسمية جيش الأمم المتحدة إلى البوسنة «بقوة الحماية» . ومع ذلك فإن الصعوبة الأساسية كانت تكمن في أنه إذا كان معظم البوسنيين قد اعتقدوا عام ١٩٩٢ ، ومازال كثير منهم يأملون فيه عام ١٩٩٤ أن قوة دولية ستنقذهم ، فقد كان ذلك لأنهم اعتقدوا انهم يستحقون الانقاذ. وربما يكون ذلك هو شعور جميع الشعوب الضحية في العالم ولكن ماجعل البوسنيين مختلفين عن الافغان أو الروانديين أن حياتهم قبل الحرب قد طبعت في أذهانهم الافتراض بأن مايستحقونه سوف يناولونه كذلك .

عندما اتجهت البوسنة نحو التقسيم ، كان من الواضح ان ذلك هو خطؤهم القاتل .

فقد تصورت حكومة البوسنة أنه إذا استطاعت فقط الدعاية للقضية البوسنية بشكل كاف واثارة الغضب في الغرب فعندئذ ستضطر القوى الكبرى ، والولايات المتحدة على الأخص ، إلى التدخل أخيراً. وعندما ذهب وارن كريستوف ، وزير خارجية أمريكا ، إلى أوروبا في مارس ١٩٩٣ ظاهرياً لمحاولة أخذ الدعم للموقف الأمريكي وأنهاء المعارضة المتشددة من قبل الانجليز والفرنسيين لأي تدخل ، سواء عمداً أو لعدم الكفاءة (كانت هناك مدرسة فكرية في واشنطون ترى أن الامريكان لم يريدوا أبدا عمل أي شيء في المقام الأول ولكنهم يحاولون ارضاء الرأي الداخلي للطبقة العليا) فقد كان يجب ان يكون واضحاً للسلطات البوسنية أنه لم يكن في ذهن الامريكان أي شيء . فبدلا من أن يتحدث وزارة الخارجية عن خطة الولايات المتحدة ، كما كان يفعل سابقوه ، فإن وارن كريستوفر دعا إلى مناقشة محكوم بعدم فائدتها .

وبالطبع لم تكن جولة الدبلوماسيين- بمناقشاتها التي لا تنتهي للخيارات الاقليمية ، واعتبارات السياسة الداخلية ، والتي لا تعني الكثير لدى البوسني - العادي (نادراً مايكون للغة السياسة معنى عند من جربوا نتائجها) لم تكن بأي حال العائق الوحيد

أمام الغرب . فقد ظل كثير من المخططين العسكريين في كل من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة وفي وزارات الدفاع الغربية ، وبخاصة البريطانية ، يصرون على صعوبة عمل اي شيء يردع صرب البوسنة عن مواصلة من الحرب . وأيد كثيرون صوراً أقل رشاقة من صيغة هربرت أوكون الساخرة القائلة ان «الصرب يقتلون بدون وخز من ضمير ويموتون بدون شكوى» ورغم أنهم لم يبادروا بقولها ، فقد تصرفوا وكأنه ليس أقل من هجوم أرضى على بالي من أجل منع الصرب من الحصول على كل مايشتهون في البوسنة .

كانت الصفات العسكرية لصرب البوسنة مجرد جزء من القصة كلها .

ولتأطير الخيارات المتاحة أمام الغرب على أساس إنها أما الإذعان لأهداف حرب الصرب أو الحرب الشاملة ضده ، كان معناه أن تحدد مسبقاً ماسيكون عليه الخيار النهائي ويوضع مثل هذا الهدف الأقصى فإنك في الواقع تجعل العظيم عدواً للطيب . أن القوة الجوية قد لاتستطيع رد الصرب ولكنها كانت تستطيع ان ترفع حصار سراييفو . (كل مافعله وقف اطلاق النار هو ايقاف القصف ولكن الحصار ظل على حاله) . كذلك كانت تستطيع منع الجنرال ميلاديتش من تحطيم القدرة الاقتصادية في جيب غورازدي . ولكن عند الاستماع لموظفي المكتب الصحفي للأمم المتحدة في سراييفو وزغرب ومحللي الدفاع في لندن وباريس فقد كان من الصعب ألا تشعر بأنه كلما زادت إهانة صرب البوسنة لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة ، كلما زاد اعجاب العسكريين الغربيين بهم . ان الطريقة التي بدا أن ا التعليقات الصحيفة لمكتب الأمم المتحدة تميل إلى اتباعها في التركيز على مناقشة مدى صلاحية البوسنة لحرب العصابات وكيف يصبح من السهل على الصرب شل طوابير المدرعات على الطرق عند عودتها وكيف ان لدى الصرب عادات في القتال تعود الى الحرب العالمية الثانية عندما قضوا على سبع وعشرين فرقة من الجيش الالماني ، كل هذا الحشد من البيانات كان معياً مسبقاً ضد مساعدة البوسنيين .

وما كان يقوله العسكريون لم يكن صحيحاً من الناحية التاريخية أو يعكس حتى التجربة الصغيرة للأمم المتحدة والقوى الغربية مع الأسلوب الذي رد به صرب البوسنة على التهديد بالقوة من قبل الغرب منذ بداية القتال عام ١٩٩٢ .

فقصة انصار يوغسلافيا الذين قضوا على «الفيرماخت» (القوات المسلحة الالمانية) قد صارت حدوتة شعبية اوروبية لم تؤكد الذاكرة صحتها. أما الحقيقة فهي أنه رغم بطولة المقاومة وقدرتها على تحطيم جهود حرب الألمان في البلقان، فإن قوات تيتو أمضت في الحرب متقهقرة أمام الألمان أكثر مما أمضت تجبرهم على التقهقر. وقد تضمنت مسيرة حرباً شرسة من ثلاثة محاور بين كل من غير الأنصار والكروات وكروات البوسنة من اليوستاشا وقوات الصرب الملكية بقيادة جنرال ميهايلوفيتش - وليس حرباً ضد الألمان. وقد خدم مسلمو البوسنة مع كل من الكروات الفاشيين الأنصار وبالنسبة لتعدداهم فقد كانت الخسائر في الأرواح بينهم أكبر من اى مجموعة قومية اخرى في البوسنة. وأما من حيث قصة السبع وعشرين فرقة للفير ماخت فتلك هي الخرافة بعينها. فلم يشترك في حرب المحاربين الأنصار سوى فرقتين المانيتين على الجبهة. ولكن راهن تشرشل ضد مبادىء المحافظين وعلى تيتو الشيوعي اثناء الحرب. فقد قال: «كل ما أهتم به هو من يقتل اكبر عدد من الألمان»، وعندما اعترض سياسي محافظ بأن تيتو كان شيوعياً أجاب تشرشل في نبرة لاذعة: «هل تخطط للعيش في يوغسلافيا بعد الحرب؟»

وبعد أن إنشق تيتو عن روسيا عام ١٩٤٨، عندما بدأ الغرب بالاهتمام بدعم نظام بلجراد، فقد كان ترديد قصص تيتو عما حدث بين ١٩٤٠ و١٩٤٥ مادة للدعاية المرافقة لكل المساعدات التي كانت تتدفق على يوغسلافيا وفق خطة مارشال. لم تكن هناك وسيلة لجعل تيتو الشيوعي شخصية مقبولة، ولكن تيتو بطل المقاومة كان شيئاً آخر مرة ثانية. فالعزف على أوتار انتصارات قوات الأنصار كان جانباً ايجابياً في النظرة الغربية التي أغفلت باصرار الطبيعة القمعية لدولة تيتو (حدثت عملية مماثلة واجهت رومانيا - شاوشيسكو حتى لحظة لصق «عبقري الكارباثيان» بالحائط واطلاق النار عليه)، واختارت فقط تأكيد استقلاله في السياسة الخارجية عن الكتلة السوفيتية. . وبمجرد تفكك يوغسلافيا، أثبتت نفس الأساطير أنها متأصلة تفكير البعض بما يكفي لاقناعهم أنه لايوجد مخرج عسكري فعال لوقف الصرب في البوسنة، ولأن تكون ذات فائدة للآخرين - مجموعة متناوبة كانت تضم على فترات معظم الشخصيات الرفيعة في الحكومة البريطانية والفرنسية

- الذين لم يريدوا التعهد وبالتدخل او حتى رفع حظر السلاح عن الحكومة البوسنية .

وكانت هناك عوامل اخرى . فالى حدما ، اغتبط الضباط البريطانيين والفرنسيين لتقديم تلك التقديرات لأنهم كانا يواجهون بإصرار قليل الخبرة والمعلومات من جانب بعض مساندي الحكومة البوسنية على أن التدخل الغربي سيكون سهلاً نسبياً . ولم تعمل الاصوات المطالبة برفع حظر السلاح عن البوسنيين حساباً للحقائق العسكريةعلى أرض الواقع . فحول السؤال عن كيفية وصول الاسلحة الى سرايفو او توزلا كانت اجابات مؤيدي هذا الاتجاه غامضة على أحسن تقدير . وعند الضغط عليهم لتقديم إجابة ، يعترفون بأن بعض القوى الخارجية ستقوم باحضار الاسلحة التي يحتاج إليها البوسنيون . ومع ذلك ، فإذا أخذ المرء بكلامهم ، فإن مايدعون إليه كان التدخل العسكري بحذافيره . كان حلف الناتو فقط هو الذي يملك القدرة على اخماد نيران صواريخ وبطاريات مدفعية الصرب المنصوبة حول مطاري سرايفوا وتوزلا . كما أن حلف الناتو وحده هو الذي يملك لديه الطائرات المهاجمة القادرة على اسقاط أو على الاقل ، التهديد باسقاط الطائرات الصربية التي ستقوم باعتراض أي محاولة لاحضار الأسلحة الثقيلة أو حتى نظم الصواريخ المضادة للدبابات .

و الواقع أنه لم تكن هناك أية إمكانية مطلقا لوصول الأسلحة بكميات تكفي قوات حكومة البوسنة بدون تدخل عسكري محدود على الأقل . فربما تراجع عندئذصرب البوسنة . ولكن لايمكن ان يوافق أي مخطط عسكري في كامل قواه العقلية على أفتراض أن مثل هذا العمل يمكن أن يتم مع تجنب حدوث قتال في الوقت ذاته . فما لم تكن للقوات المتدخلة صلاحية القتال فلا محل للتقدم . فالجنود الذين سيقومون بالفعل بعمليات الموت والقتل لهم كل الحق في طلب ذلك من حكوماتهم . كان الأمر خداعاً أخلاقيا ان تتظاهر الحكومة البوسنية أنها فقط تريد السلاح . فقد كانوا يحتاجون إلى جنود الناتو ليأتوا لهم به . وكان من قبيل الحماقة الأخلاقية مهما بلغ تفهمنا للأمر، أن يتظاهر الناشطون في تأييد البوسنةبغير ذلك .

تصرف بعضهم على هذا النحو لأنهم لم يفهموا بصورة حقيقية أبعاد ما يقولون . ويصبح ذلك بشكل خاص على الغربيين المؤيدين للبوسنة المنتمين لليسار

الأوروبي والأمريكي، والذين كان كثير منهم يساندون الدوائرالعسكرية في حكوماتهم هم لأول مرة في حياتهم. ولأنهم أمضوا شبابهم معارضين للقوة، فإنهم لم يمعنوا التفكير فيما ينطوي عليه استخدام القوة. لقد كانت الخيارات في البوسنة ضيقة. فحتى الاستخدام المحدود للقوة العسكرية محكوم بقوانين الحرب - وهو أسلوب آخر للتعبير عن مقتضيات الحرب القاسية. فإيقاف الصرب يعني قتل الكثيرين من الصرب بمن فيهم غير المحاربين الابرياء. فالحرب هي الحرب. وليس بإرسال شرطة مفخمين للقبض عليهم أو يجعلونهم يكفون عن عدوانهم.

ومع ذلك، فلا يقلل من قدرات قوات الجنرال ميلادتش أو الجيش الوطني اليوغسلافي ان نصر على ان الصورة التي تشبث بها عسكريو الأمم المتحدة طول قامة الصرب الذي يبلغ عشرة أقدام كانت مبالغاً فيها مثل الافتراض الحالم لمؤيدي التدخل من أنهم أقزام (٢ قدم) أما النفاق الاكبر فهو الادعاء من جانب مسؤولي الأمم المتحدة أنهم يصلون إلى هذه الاستنتاجات على أساس دقيق للمعايير العسكرية الموضوعية. وقد يختلف الرأي فيما يتعلق بالمشروعية، ولكن كان هناك على الأقل دليل يؤيد فكرة عدم تحصن الصرب مطلقاً أمام ضربات الناتو الجوية وأن بعضهم يعلم ذلك، مثلما كان هناك افتراض بأن مثل تلك الهجمات ستكون ضعيفة الأثر على أي من السلطة العسكرية أو على الروح المعنوية للقوات الصربية. فقد ظل الضباط ذو الرتب العالية الامريكان والأوروبيين الغربيين يرددون، وبدقة كافية، أنه لم يتم أبدا كسب حرب من الجو - وهو مايعني ضمنا أنه طالما ظل الناتو غير راغب في ارسال قوات أرضية فلن تخدم الحملة الجوية اي هدف. على أن المهمة المطلوبة لم تكن تتمثل في هزيمة الصرب بل للنيل من روحهم المعنوية وتدمير الكثيرمن معداتهم وادخال تلك النوعية من المعدات العسكرية التي تلزم البوسنيين لجعل جنرال ميلاديتش واعوانه يعيدون التفكير في الحكمة من استمرار حملتهم.

قد يموت الصربيدون شكوى ولكنهم ليسوا ممن لايقهرون فحتى والميزان العسكري في جانبهم بشكل جذري، كانت هناك مناسبات كثيرة في العامين الأولين من القتال اهتزت فيها روحهم المعنوية. ففي بانيا لوكا في خريف ١٩٩٣ كانت عناصر من جيش صرب البوسنة على وشك العصيان. ورغم ان مقاتلي التشتنيك، وكثير منهم

كانـوا «محاربي نهاية الأسبوع» الذين جـاءوا إلى البوسنـة من صربيا والجبـل الأسـود، وبأعداد قليلة مـن المانيا والنمسـا . ، للقيام بأعمال قصيرة على جبهة القتـال، كانت لديهم شهية القتال، فقد قابلت كثيراً من جنود جيش صرب البوسنة في شتاء ١٩٩٣ الذيـن ابدوا تبرمهم . ومن الـواضح أنه كـان من الأفضل ان تكون محاربـاً صربياً في غرفـة حصينة فوق سرايفـو أو أن تجلس وتشرب خمر سليفوفيتـز على جبل فيز شرق توزلا من أن تكـون أحـد المدافعين عـن أي من تلك المدن المعرضين للنيران داخل خنادقهم. وأيـاً ماكان إصرارهم - وإعتقـادهـم- أنهم راضون في القتال للأبـد، فقد كانت الحياة بالنسبـة للمقاتلين على الخطوط الأمامية للصربتتصف بالسهولة مقارنة بغيرهم فحسب.

وإذا كان الجنـدي العادي من صرب البوسنة يشعـر غالباً بالبرد والمطـر، وبالحنين لأسرته، فقـد كانت ثقتـه مفرطـة نتيجة سلسلـة الانتصارات في القتـال. ففيما عدا أماكن قليلة مثل المنطقة حول بريكو، حيث أحرز الجيش البوسني والكروات بعض التكافؤ التكتيكي، فأننا نجد أنه حتى بالنسبة لكتائب صرب البوسنة التي تم نقلها ببساطـة من تبعية قيادة الجيش الوطني اليوغسلافي السـابق بعـد أبريل ١٩٩٢ ، إلى قيادة جنـرال ميلاديتش غـالبا مـاظهرت بمظهر الجنـود غير النظاميين، لقـد حولهم الافراط في التلميع والتنظيف الى مايشبه هيئة رامبو. ان مشاهدة هؤلاء الجنود يمشون متبخترين بأشرطة الـرأس واللحى حاملين في الغالـب ليس مجرد بندقية بل مـدفعاً رشـاشاً ومسـدسـاً مع تشكيلـة من السكاكين المؤثـرة، كـان يـدعو للخـوف ولكن بلارهبة. وقد علق لي مراقب عسكري تابع للأمم المتحدة ذات مرةعلى ذلك بقوله إن هـذا الاستعـداد كان لقتل المدنيين وليس جنـود العـدو. وقـال انه لـو كـان الصرب يتصورون أنهم ذاهبون لمواجهة اناس سيردون على النار بشكل فعال لكانوا حملوا مؤونة أكبر وسلاحا أقـل ولكانوا أطلقوا نيرانهم بـالدفعات القصيرة اللازمـة لاصابة الهدف وليس بهذا السيل الهمجي من الدفعات لمحاربين لا يبالون كثيراً أين تسقط طلقاتهم آخر الامر.

ذات مرة أخبرني عسكـري أجنبي آخر، وهو بـريطاني من مـراقبي حفظ السلام التابعين للجماعة الأوروبية - هؤلاء المراقبون في زيهم الابيض وكان معظمهم ضباطاً

سابقين في من الجيوش الغربية ويعرفون في انحاء يوغسلافيا السابقة «برجال الايس كريم» ويشك في كونهم جواسيس– قال ان أكثر ما أثر فيه فيما يتعلق بالأسلوب الذي حاربت به جميع الأطراف أنه « لايبدو ان احداً يهتم بفهم الأمور عن بعد» . ولم تكن شكوكه تتفق تماما مع القلق حول قدرات الصرب القتالية التي عبر عنها في ورع زملاؤه في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . ومع ذلك ، وكما أشار هو ، فإن التكتيك الذي استخدمه صرب البوسنة – القصف العنيف ثم التصويب العشوائي من أسلحة صغيرة لإحداث أكبر قدر من الرعب في السكان المدنيين ، والاغتصاب اذا صدقنا الروايات عنه – كان تكتيكا أجيد اختياره إذا كان التطهير العرقي هو الهدف الحقيقي . قال : « عندما تطلق سلاحاً أوتوماتيكاً ، فالحرفية كلها تكون في الضغط على الزناد ثم التوقف فوراً عن الضغط . وحتى في هذا الوقت ستتشتت بعض الطلقات ، لكن هؤلاء الاشخاص بالطبع لايصوبون على جنود آخرين . إنهم يصوبون على القرية بأكملها وذلك أن تقول أنه من وجهة نظرهم فإن كل طلقة يطلقونها ستصيب الهدف» .

كان جنود الجيش الوطني اليوغسلافي الذين يكونون العمود الفقري لجيش صرب البوسنة على درجة عالية من التدريب . ولكن في السنة الاولى للقتال ، لم يواجهوا اى معارضة تقريباً . فقد بدأ جيش حكومة البوسنة في التشكل في عام ١٩٩٣ فقط في هيئة تزيد قليلاً عن ميليشيا المواطنين . وكان ذلك كافيا لجعل الصرب مفرطي الثقة في أنفسهم . أضف إلى ذلك حقيقة ان دعاية صرب البوسنة أصلت فيهم بلاحد فكرة أن العالم كله كان ضد الصرب وخائفاً منهم في وقت واحد– رغم الكلام العنيف للرئيسين بوش وكلينتون لم يكن هناك تدخل – وتحولت الثقة بالنفس الى رضاء عن النفس .

ولقد كان المشهد المحزن– عندما مارست قوات الحماية أخيراً حقها الشهير في طلب ضربات جوية لحماية أفراد الأمم المتحدة في غوارجده ، في إبريل ١٩٩٤ – للطائرات المهاجمة وهي تقصف وتسقط قنابل محدودة ثم لاترد لاحقاً بقوة عندما إستهدف كوماندوز بريطاني كان يعمل مراقباً جوياً متقدماً للضربات وقتل بنيران الصرب وعندما اسقطت طائرة هاريير بريطانية وتكرر اسقاط الطائرات الفرنسية ،

كل ذلك كان بمثابة لمفاخرة نائب الجنرال ميلاديتش ، الجنرال جفرو، بأن جيش صرب البوسنة هو « ثالث أفضل الجيوش في أوروبا . »

فلا عجب إذن بحلول عام ١٩٩٤ أن يكون هذا الجيش غير مكترث بطريقة وضع أسلحته الثقيلة . فالمرء يخفي بطارياته عندما يخاف ان تدمرها نيران العدو وليس لمجرد ان يكلف العساكر بعمل شيء .

ومن الواضح ان الصرب لم يجدوا مايبرر ذلك الجهد . فالذي يمكن أن يخطر لهم عندما يسمعون المتحدثين باسم قوات الحماية وهم يوكدون صعوبة ضرب استحكامات جيش صرب البوسنة؟ كانوا يعلمون ان أسلحتهم كانت مكشوفة للهجمات الجوية . وتولد نفس الإنطباع لدى كثير من المراسلين المتمركزين في سراييفو الذين كانوا يتحركون جيئة وذهاباً عبر الخط بين العاصمة ورئاسة رادوفان كارادزيتش في بالي . وعندما تقود سيارتك على طول « طريق الحرب» الذي بناه الصرب على خط سلسلة الجبال حول المدينة ، كان المرء يمر على خنادق واستحكامات للمورتار والمدفعية لانهاية لها، وبدون أي ساتر يمنع تدميرها من الجو وضعت الاسلحة ظاهرة للعيان على بعد أمتار قليلة من الطريق . ومن الواضح أنه عندما يتقدم الصرب فإنهم يقيمون مواقع أمامية جديدة، ولكن في معظم أجزاء البوسنةظلت الخطوط ثابتة شهراً بعد شهر ولم تنقل الأسلحة على الإطلاق .

وحتى في سراييفو المحاصرة، والتي تحظى بأكبر قدر من إهتمام الإعلام العالمي ومن ثم كانت لوقت طويل أنسب مكان يضرب فيه الناتو، فقد ظلت أسلحة الصرب حيث وضعوها اول الأمر منذ لحظة خروج الجيش الوطني اليوغسلافي من سراييفو والبدء الجاد في الحصار وحتى آخر ساعة من آخر يوم لإنتهاء الانذار الاخير للناتو في فبراير ١٩٩٣ والذي أجبر الصرب على الانسحاب أو على تخزين أسلحتهم الثقيلة . إن مجرد إنسحاب الصرب، عندما طلبت القوى الدولية بشكل جدي أن يفعلوا ذلك ، يوضح أنهم لم يكونوا مستهزئين بقوة الناتو كما تظاهروا بذلك .

ولكن على مدى معظم الفترة التي رزحت فيها سراييفو تحت الحصار، لم يصدق اي من جنود الصرب العاديين ولاقوادهم ان الغرب سوف يستجمع إرادته ويتحرك

ضدهم . وعندما كان المرء في بزور تلك الاستحكامات كان الجو السائد يوحي بالضجر وليس بالقتالية . كان الجنود يتحدثون عن اسقاط أي طائرة للناتو أو للأمريكان تتجرأ على مهاجمتهم ومن وقت لآخر يستعرضون صواريخهم الأرض- جو المحمولة على الاكتاف أمام الكاميرات ولكن نبرات صوتهم كانت تظهر بجلاء أنهم لايتوقعون حدوث مثل تلك الهجمات . فما كان يسمى من قبل في واشنطون «بتأثير مقديشيو» وجد طريقه الى جبال البوسنة . وقد تفاخر مسؤول من صرب البوسنة وقال مرة « إنكم تظنون أن الرأي العام الأمريكي عندما انزعج قتل ثمانية عشر من جنودكم في إفريقيا . انتظروا حتى تبدأ الأكفان في العودة من البوسنة . إنكم لم تعودوا أمة قوية . إنكم لاتستطيعون أن تواجهوا فكرة موت أطفالكم . أما نحن الصرب فنستطيع مواجهة الموت . فنحن لانخاف وهذا هو السبب في أننا سنهزمكم إذا حضرتم لمساعدة أولئك الأتراك الذي تهيمون بحبهم» .

كلمات جريئة ومألوفةبالنسبة لأي شخص قضى وقتاً على الجانب الصربي .

كان كارادزيتش يحب ان يردد «سوف نكون لكم فيتنام التالية» ، ومع ذلك فكثيراً ماكان المزاج العام يتغير ويبدو لفترة وكأن الامريكان على وشك الضرب حقاً . وعندما تلوح تلك التهديدات يتراجع الصرب .. وكان ويحدث نوع من التقهقر البلاغيّ يلجأإليه فجأة نفس المسؤولين الذين كانوا يتباهون بالقدرة الصربية التي لاتقهر حيث يبدأون الحديث عن في رغبة الصرب في الاستشهاد . فيتحولون من نبرة التباهي إلى الإحتجاج والسؤال عن سبب عدم التفهم المطلق من الصحفين الأجانب للصرب وتفسيراتهم الخبيثة لأهدافهم . ذات مرة قال كارادزيتش لشبكة لمراسل cnn كريستيان أما نبور في في لحظة انفعال مفعم : «عليكم أن تساعدونا على إرساء السلام» . ولقد كان دوماً يقول ان الصرب يريدون فقط العيش فيي سلام وأنهم يريدون وقف القتال وأنهم يطلبون فقط حق العيش بين اناس لهم نفس العقلية « أي مثل غرب فرجينيا التي لم ترد أن تكون جزءاً من الكنفدرالية أثناء حربكم الأهلية» .

والأكثر أهمية أنه عندما تبدأ القيادة الصربية في الخوف من أن تكون قد تمادت كثيراً وأنهم بسبب نزوة تعطش للدم يدفعون الغرب للتحرك ، كانت تبادر بالسماح

فجأة لكل أشكال المساعدات الإنسانية للأمم المتحدة بالمرور. وسواء كان ذلك برفع الحواجز أمام امدادات الإغاثة المحشورة في مطار سراييفو او بالسماح لقوافل اللجنة العليا للاغاثة بالتحرك بحرية عبر نقاط تفتيش جيش صرب البوسنة نحو المناطق المحاصرة، مثل ماجلاني شمال وسط البوسنة أو تقوم، كما في حالة سراييفوا في فبراير ١٩٩٤ وغوراجده في ابريل ١٩٩٤، بسحب الأسلحة الثقيلة من المنطقة المحظورةبأمر الناتو، فقد أعطى الصرب كل دليل على أنهم لا يخافون فقط الضربات الجوية بأكثر مما ذكروا، بل على أنهم كانوا يعتقدون في فاعليتها أيضا بأكثر مما أعتقد المسؤولون العسكريون للأمم المتحدة. ومن ثم، وفي خلال يوم واحد، يتحولون من موقف التصلب الكامل ليصبحوا فجأة متعاونين لدرجة تجعل الزائر خالي الذهن يتعجب من كل تلك الضجة التي تثيرها اللجنة العليا للاغاثة حولهم. ولكن بعد أن يتحول إنتباه العالم عن مذبحة البوسنة ويقل الضغط الشعبي على الحكومات للضغط على الصرب، يعود التصلب والتشدد من جديد ويبدأ إيقاف القوافل ولايسمح لإمدادات الإغاثة في مطار بالمرور سراييفو من قبل الصرب المحتشدين فيما بدأوا يسمونه بنقطة عبور حدودية دولية بين المطار والمدينة - وهي نقطة تفتيش اعترضت عليها قوات الحماية في البداية ثم سرعان ماقبلت به كما سبق وقبلت كل صياغة جديدة للاتفاقات التي عقدتها مع الصرب. اما في القرى التي قطعت عنها الإغاثة فقد بدأ الجوع في التزايد وافتقرت المستشفيات ثانية إلى الأدوية. أما العالم، الذي ارتاح في سعادة من عبء السخط على مايحدث في البوسنة، فقد اشاح بوجهه بينما جدد الصرب، في جرأة أشد، هجومهم على آخر أجزاء البوسنة التي اشتهوها ولم يكونوا قد احتلوها بعد.

الفصل الثامن

كان المديرون الحقيقيون لعملية حفظ السلام من مقر السكرتارية العامة في نيويورك معارضين منذ البداية للتورط في البوسنة . ولقدقد كانت عملية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في الأصل مقصورة تماماً على كرواتيا وتم تنفيذها بعد التوقيع على إتفاق وقف إطلاق النار الذي توسط فيه سايروس فانس بين الصرب والكروات في نهاية عام ١٩٩١ . وكانت ، بالأسلوب الفني المتبع في الأمم المتحدة ، عملية حفظ سلام كلاسيكية وتقليدية ، بمعنى أنه كان وضعاً خوّل فيه مجلس الأمن قسم عمليات حفظ الطلام DPKO نشر قوات بين جانبين سبق وأرادا وقف القتال ولكن يلزمهم قوات محايدة لمراقبة وقف إطلاق النار المتفق عليه . ورغم وضع مراقبين عسكريين قليلين للأمم المتحدة في البوسنة ، ورغم اختيار قوات الحماية الدولية لسراييفو كمقر رئيسي لعملياتها حتى ينظر إليها على أنها لا تحابي أياً منا لصرب أو الكروات فلم تكن هناك في البداية نية من جانب الأمم المتحدة لاقتراح توسيع التفويض ليشمل البوسنة .

ولا يعني هذا أن ذلك لم يطلب من الأمم المتحدة . وقد استغلت هذه الحقيقة من قبل أولئك الذين اعتقدوا أنه بإعلان استقلال البوسنة فقد قدم عزت بيجوفيتش بذلك مسوغ موتها . وتقول تلك النظرية ان الاثنين وثلاثين بالمائة الصرب من تعداد البوسنة لم يكونوا سيقبلون مطلقاً بالبوسنة المستقلة وكان تجاهل ذلك من قبل سراييفو بمثابة انتحار. ولكن الحقيقة تكمن في أن عزت بيجوفيتش وقع في مصيدة خيار هوبسون ، وبمشاركة رئيس مقدونيا ، جليجوروف ، حاول عزت بيجوفيتش في يأس طوال عام ١٩٩١ أن يخرج بمعادلة لاتحاد كونفدرالي يوغسلافي هش .

وكان سلوبودان ميلوسيفتش هو الذي سيخرج خالي الوفاض من ذلك كله ، ولذلك أصر على أن ما يجب أن يحدث في يوغسلافيا هو زيادة في المركزية — وهي طريقة أخرى للقول بزيادة القوة للصرب وله شخصياً . وكان البقاء في يوغسلافيا

ميؤساً منه لقيادة الحزب البوسني SDA وكذلك مغادرتها . وفي النهاية ، وفي ظل ما سيثبت أنه انطباع كاذب بشكل مأساوي من أن أوروبا ستضمن استقلالها ، فقد اختارت حكومة البوسنة إجراء استفتاء على استقلالها والذي تم تأييده بفارق واسع ، بمساندة من الغالبية الساحقة للمسلمين البوسنيين والكروات (فيما عدا مقاطعة توزلا ـــ معقل الجناح اليساري أياً كان تكوينها العرقي ، وهو أمر يدعو للغرابة) وبمقاطعة من معظم الصرب .

ولكن في حين أن عزت بيجوفيتش أثبت أنه تمادى في تفاؤله عما سيفعله أو لا يفعله الغرب ، فقد كان يعرف تماما أن الطريق الذي اختاره شديد الخطورة . وهذا هو السبب في أن عزت بيجوفيتش ناقش انتشار قوات حفظ السلام في البوسنة مع فانس وعدد من مسئولي قسم علميات حفظ السلام أثناء زيارتهم لسرايفو قبل بدء القتال بقليل . وكان المسؤولون الدوليون مدركين تماما لما يمكن أن يتلو من أحداث . ففي ذروة الحرب الكرواتية وحين كانت البوسنة في سلام كتب فانس إلى هانس ديتريش جنشر ، وزير الخارجية الألماني ، يحذره من أن إصرار ألمانيا على الضغط على المجتمع الأوروبي للاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا سيجعل الحرب في البوسنة حقيقة مؤكدة . ومع ذلك فلم يوافقا على التوصية بإرسال جنود الأمم المتحدة . وحول ذلك قال لي مسئول رفيع في الأمم المتحدة وهو يسترجع الأحداث : «كان يطلب منا في الواقع أن ننتشر في مقاطعة من دولة مستقلة لكي نساعد على انفصال تلك المقاطعة» .

كان ذلك هو الموقف الذي أبت إدارة عمليات حفظ السلام على اتخاذه حتى بعد أن بدأت المذبحة . ففي مايو ١٩٩٢ ، بعد شهر من حصار سرايفو ، بعث ماراك جولدينج نائب الأمين العام للشؤون السياسية الخاصة والرئيس السابق لادارة عمليات حفظ السلام ، بمذكرة إلى مجلس الأمن قال فيها إنه مع عدم وجود تفويض بحفظ السلام ترتضيه الأطراف ـ أسلوب مهذب للقول إن كلا الجانبين يريدان القتال ـــ فإن الوضع في البوسنة ليس «ناضجاً» لحفظ السلام . ويوافق الذين شهدوا المداولات على أن الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ، وبضغط من الرأي العام المحلي ، فضلوا تجاهل التوصية رغم عدم الاتفاق فيما بينهم على ما يجب عمله في البوسنة . وبعد إصدار سلسلة من النداءات غير المجدية لوقف القتال ، أصدر

المجلس في ٣٠ مايو ١٩٩٢ قراراً بفرض عقوبات على «بقية» يوغسلافيا ـ أي صربيا والجبل الأسود . كما صدق على إرسال بعثة الإغاثة الإنسانية إلى البوسنة تحت إشراف المفوضية العليا للاجئين وكلف قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لمساعدة الوكالات الإنسانية في هذا العمل ولضمان إعادة فتح مطار سراييفو، والذي كان وقتها تحت سيطرة الصرب . وفي ٥ يونيو توصلت الأمم المتحدة إلى اتفاق مع الصرب، وفي ٨ يونيو أجاز مجلس الأمن انتشاراً موسعاً لقوات الحماية في البوسنة .

ورغم أن مجلس الأمن أصدر بعد ذلك عدداً مذهلاً من القرارات الخاصة بالبوسنة ـ أكثر من خمسين على مدى السنتين والنصف سنة التالية ـ فقد حددت تلك التحركات الأولية كيفية تفسير الأمم المتحدة فيما بعد لما هي مخولة أو غير مخولة بعمله . فقد كانت الأولوية بالنسبة لإدارة عمليات حفظ السلام في نيويورك وقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في الميدان لاستمرار الجهود الإنسانية على أي شيء آخر رغم ان نشاطات مجلس الأمن تضمنت قرارات فرضت مطالب أخرى على المحاربين . فقد تطلب قرار واحد على الأقل وجوب وقف ممارسة التطهير العرقي . وكانت الأمم المتحدة قد فرضت مناطق حظر الطيران فوق البوسنة و إعلان سراييفو وتوزلا وبيهاتش وغوارجده وجيبا وسربرنيتشا مناطق آمنة . وكانت تلك إجراءات يتعذر ترجمتها في عبارات إنسانية صارمة حيث أنه عندما تم التصديق على القرار فإن الصرب هم الذين يقومون بالقصف من الجو وكذلك بكل عمليات التطهير العرقي تقريباً (كان هذا قبل وقت طويل من محاولة HVO طرد السكان المسلمين حول موستار مثيرين موضوع جرائم الحرب الانتقامية التي تنفذها قوات الحكومة البوسنية) . وفيما يخص «الملاذات الآمنة»، كما عرفت بسرعة، فقد كانت جميعها مناطق تحت سيطرة حكومة البوسنة وواقعة تحت الهجوم الصربي .

وقد عارضت السكرتارية العامة الأمم المتحدة كل مطلب بأن تفعل شيئاً أكثر في البوسنة لأنها اعتقدت أن التفويض الوحيد لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة كان لزيادة البرامج الإنسانية وأن التصريحات الأخرى لمجلس الأمن بشأن المسائل الأوسع مثل التطهير العرقي لم تحدد دور الأمم المتحدة فيها . وكانت قد عارضت بشدة قرار المناطق الآمنة وقاومت بعناد تنفيذ خطة منطقة حظر الطيران اعتقاداً منها أن كلا الأمرين يمثلان انحيازاً من الأمم المتحدة في القتال . وكان ذلك انتهاكاً لكل

ما اعتقدت إدارة عمليات حفظ السلام أن من واجبها الحفاظ عليه في جهودها لحفظ السلام. وقالوا أنهم لو تصرفوا بغير ذلك لعرضوا للخطر كل مفهوم حفظ السلام.

قال لي مرة مسئول من الأمم المتحدة في زغرب «إننا لن نفقد عملياتنا شرعيتها في العالم كله من أجل المحافظة على الدولة البوسنية». كذلك

صرح شاشي ثارور - وهو روائي هندي معروف ومسئول سابق في المفوضية العليا للإغاثة في حديث له عام ١٩٩٣ بأن تنفيذ قرار الأمم المتحدة المتعلق بمناطق حظر الطيران إنما «يعني وضع الأمم المتحدة في موقف يصبح فيه العاملون في صفوف قواتها لحفظ السلام، المرتدين الأزرق وغير المسلحين بمعدات ثقيلة، يصنعون الحرب والسلام في آن معا!! وكما أوضحت المنظمة الدولية لحقوق الإنسان Human Rights Watch في أحد تقاريرها فإن ثمن مثل هذا التصور هو حتمية أن تصبح حقوق الإنسان «جدول الأعمال الضائع» في عمل الأمم المتحدة لحفظ السلام رغم أن «الإنتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان غالباً ما تلعب دوراً خطيراً في تغذية النزاع المسلح وتفاقم الأزمات الإنسانية». وكانت الأمم المتحدة قد عينت رئيس الوزراء البولندي السابق، تاديوس مازوفيكي ليكون «مقررها الخاص» لحقوق الإنسان في يوغسلافيا السابقة. ورغم أنه كان يطالب الأمم المتحدة بإنفاذ قراراتها هي نفسها الخاصة بحقوق الانسان، وهدد مرة بالاستقالة لأنه لم تكن لديه الرغبة لأن يلعب مكتبه دور «مظلة تخفي إنعدام حيلة المنظمة الدولية» فقد أولى مسئولو الأمم المتحدة جهوده إهتماماً باللسان فقط ولكنهم لم يبذلوا أي جهد لتحديد ما كانوا يقومون به في الميدان من أجل أخذ توصياته في الحسبان والتي ادعوا أنهم يقدرونها كثيراً.

أما أولئك الذين أداروا العملية في البوسنة فلم يتزحزحوا أنملة عن التزامهم بمواصلة أداء دور قوات الحماية للأمم المتحدة على أنه محصور في تخفيف آثار الحرب. وقالوا إن الأمم المتحدة لم ترسل هنا لإنهاء الصراع أو لتعطي حماية حقوق الإنسانية الأولوية. وإذا كان ذلك ما أراده مجلس الأمن، فكان عليه أن يقول ذلك في عبارات صريحة، ورغم ذلك ففي الوقت الحالي، إذا كان لمثل هذا التحسن المطلوب في الموقف أن يتم، فان عليه أن يقوم بذلك من خلال ضغط آخر خارجي أو من خلال

المفاوضات. وهذا العمل متروك للحكومات ولرؤساء فريق التفاوض المشترك للأمم المتحدة والجماعة الأوروبية، أي فانس وأوين في البداية وبعد ذلك أوين وثرفالد ستولتنبرج وزير الخارجية النرويجي السابق والرئيس السابق للجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة الذي حل محل فانس استقالته في مايو ١٩٩٣. أما إذا أراد المجلس حلاً عسكرياً للأزمةالبوسنية فعليه إذن أن يتدخل لا تحت بند حفظ السلام الوارد في الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة ولكن تحت بند انفاذ تدابير السلم الوارد في الفصل السابع، كما فعل في موضوع الكويت. وذات مرة قال لي مسؤول في عمليات حفظ السلام: «كان ذلك أفضل لنا. لم نكن سنشكو لو أنهم سحبوا الأمر من أيدينا وأعلنوا أنهم يريدون إنفاذ السلام وليس فقط حفظ السلام، وتركونا نقوم بأعمالنا».

كانت مثل هذه التعليقات تتسم بجو من التلاعب والسفسطة البيروقراطية وقد كانت كذلك إلى حد ما. فقد كانت السكرتارية العامة الأمم المتحدة منظمة إلى حد كبير جداً من قبل موظفين مدنيين بريطانيين وضعوا بصماتهم القاتمة والمتزمتة على المنظمة. فمن سمات أسلوب عمل الأمم المتحدة ألا يقوم أي موظف مدني في الأمم المتحدة سواء بالاعتراض علناً أو بالاستقالة بسبب مسألة مبدئية حول سياسة البوسنة. وفي الواقع لو سألت المسئولين المعنيين عن سبب عدم استقالتهم تكون الإجابة أقرب إلى نظرة باهتة، كما لو أن الفكرة غير واردة في سياق عمل الأمم المتحدة، أكثر منها دفاعاً متحمساً عن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة. أما في اللقاءات الخاصة فكان مسئولو الأمم المتحدة قادرين على الاعتراف بأنه، من المنظور الأخلاقي فإن البوسنيين قد يكونو على حق، ولكن في من منظور مهمة حفظ السلام التي يديرونها كان المفروض عليهم أن يظلوا على حياد تام. وفي بعض الأوقات قد تكون تلك الحيادية مزخرفة بشكل إيجابي، كما حدثت عندما قام ياسوشي أكاشي، المبعوث الخاص للسكرتير العام بمغادرة اجتماع في بالي وأعلن للصحافة أنه يعتقد أن رادوفان كارادزيتش «رجل سلام» مباهياً «بالصداقة» التي تمت بينهما. وقد أدلى بتلك التصريحات الشاذة، وحتى غير الضرورية من الوجهة الدبلوماسية، بعد وقت طويل من توصل معظم العالم المتحضر، بمن فيهم معظم مسئولي الأمم المتحدة، إلى أن القائد الصربي هو مجرم حرب بكل المقاييس.

كانت كلمات أكاشي مثيرة لغضب الصحفيين الذين يستمعون إليه، والذين رأى كثير منهم رؤية العين كيف شن كارادزيتش الحرب. وقد بدت أسماء الشهرة التي أطلقت عليه وأثارت غضب ضباط الميدان في اللجنة العليا للإغاثة المستائين مثل «التشتنيك الميتسوبيشي» و«رئيس موظفي العلاقات العامة للصرب»، بدت مناسبة في ذلك اليوم بالذات. لقد بدا على أحسن تقدير تجسيداً لانتصار الأمل على التجربة الذي بدا أنه كان السمة الرئيسية في ديبلوماسية الأمم المتحدة، والأكثر ترجيحاً هو أن أكاشي كان ـ شأن العديد من المسئولين العسكريين في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الذين عرفهم الصحفيون، ولم يثقوا فيهم، وأنا هنا أتكلم عن نفسي ـ مدافعاً عن الصرب بوجهين، يحاول بكلماته أن يستبق موقفاً أكثر حزماً من جانب قوات الناتو. ومع ذلك كان يقال أن أكاشي من أفضل رجال الأمم المتحدة. فقد أرسل إلى يوغسلافيا السابقة بعد إنهاء واحدة من أنجح عمليات حفظ السلام للأمم المتحدة حتى ذلك الوقت وهي البعثة في كمبوديا.

فإذا ما بدا في صورة الساذج في البوسنة فإنه لم يكن بالتأكيد قليل الخبرة.

وإذا كان راغباً في الكذب بخصوص رادوفان كارادزيتش وفي معاملة القتلة وكأنهم يستحقون الاحترام والصداقة مثل ضحاياهم (ظل أكاشي يؤكد «علاقاته الخاصة الجيدة» بقيادة صرب البوسنة) فذلك لأنه ظل شديد الالتزام بالمفهوم القاصر المحدد لمهمة الأمم المتحدة في حفظ السلام. وكما أوضح عندما منع، منفرداً، هجمات الناتو على الصرب بعد تجاهل الإنذار الأخير بالانسحاب الكلي من غوارجده في أواخر إبريل ١٩٩٤، فإنه سيذهب إلى أبعد الحدود في حفظ كيان هذا المفهوم.

وقد أثبت أكاشي في هذا، كما أثبت في مجالات كثيرة أخرى، أنه لا يختلف عن أسلافه. فقد يتكلم بغير حكمة عن مشاعره الحارة تجاه كارادزيتش، ولكن كان أسلافه هم الذين قبلوا، تحت ذريعة استمرار المفاوضات، طلباً من الصرب بألا تشير الأمم المتحدة بعد ذلك إلى أن سراييفو مدينة محاصرة. فقد كان الصرب يدعون ويجادلون في أنه «تصادف» أن كل المناطق من سراييفو التي يسيطر عليها الصرب الآن كانت صربية قبل الحرب، وأنهم لا يهاجمون «المسلمين» بل كانوا فقط يحمون

الصرب من الهجوم. وبمقاييس بالي، فإن هذا الإدعاء انطوى على نوع من الهمجية لا غير. إما أن تسمع مسئولاً صحافياً محنكاً في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، وهو ضابط كنـدي محبوب ووثيق المصـادر يدعى باري فريبور، وهو يردد كالببغاء هذا السطر ويبلغ الأوساط الصحفية المفطورة على الشك أن الصرب لا يحاصرون سرايبفو ولكنهم كانوا في «مراكز تكتيكيـة مناسبة» فإنك بهذا تستمع إلى الأمم المتحدة وهي تقلب الحقيقـة (رأساً على عقب). لم يكـن مسئولـو الأمم المتحـدة المعنيون يشعـرون بالخجل وهم يكذبون لصالح الصرب، فقـد كانت عقيـدتهم متزمتة ولا تسمع إلا صوتها، وبالرجوع الى أصولها المجردة فإن العقيدة التي عاش عليها رجـال الأمم المتحدة حياتهم المهنية تطلبت منهم ان يعتقدوا أنهم غير مفوضين لعمل أي شيء من أجل البوسنيين سوى تخفيف الآثار الإنسانية للقتـال كما قالوا هم، وقد ظلوا يرددون أنه لو أنهم أيدوا التدخل العسكري لكان قد تم تصفية تلك البعثة الإنسانية. وقالوا أنه إما أن نـوصل المسـاعدات الإنسـانيـة أو أن نستخدم القـوة. وبالنسبة لحقوق الإنسان فقـد كانوا عادة مـا يهزون رؤوسهم. وكلهم تقريباً اعتقـدوا أن كل الأطراف كانوا يرتكبون جرائم حرب. وفي الواقع كان من الشائع أن تسمع قوة الحماية تصر على أن السبب الوحيد في أن الجانـب الحكومي ارتكب جرائم أقل أن فرصـة كانت ضئيلة لفعل ذلك.

(وهـذا البيت لأودين: «كل مـن ينـالهم الشر، يفعلـون الشر في المقـابل» يبـدو تشخيصاً أكثر دقـة). أما في المقابلات الخاصة، ففي حين لا يتنكـرون مباشرة للجنة جرائم الحرب التي كـونتها الأمم المتحدة، فانهم يوضحـون أنهم يشعرون بأن على المرء إمـا أن يتفاوض مع ميلـوسوفيتش وكارادزيتـش وميلاديتش والآخرين أو أن يحاول تقديمهم للعدالة، أما الإدعاء بأنه يستطيع أن أن يقوم بالعملين معاً فقد يكون شيئاً لطيفاً تقول به الحكومات الغربية أمام مواطنيها ولكنه تصور صبياني.

وكما وضح من تصرفات الأمم المتحدة في البوسنة فإن مسئوليها اعتقـدوا أنه ما لم يلتزموا بحيادهم بصرامـة فإن مهمـة قوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة لـن تستمر، وبصريح العبـارة، لا يستطيع الصرب أن يقبلوا بـالسماح لقوة الحمايـة التابعة لـلأمم المتحدة ولا للجنـة العليا لـلإغاثة بـالاستمرار في العمل إذا مـارست القوات التـابعة للأمم المتحدة العمل العسكري: فالقـوافل ستوقف وسيتم قتل أو إبعاد أفراد اللجنة

العليا للإغاثة ويوقف الجسر الجوي لسراييفو ـ وهو أنجح عمل للمجهودات الإنسانية ـ كما أن المطار محاط بالسلاح الصربي، وبالتالي لا تستطيع الأمم المتحدة أن تأمل في استمرار فتحه لرحلات النقل الجوي إذا بدأ سقوط قنابل حلف الناتو. وأي تفسير أكثر قوة للتفويض الإنساني للأمم المتحدة محكوم بعدم واقعيته. فنظرياً، أعطيت السلطة لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة باستخدام كل الوسائل الممكنة بما في ذلك القوة العسكرية ما تتطلبه من أجل تأمين وصول قوافل الإغاثة إلى غايتها. أما من الناحية العملية، فقد استنتجت الأمم المتحدة مبكراً أنه في حالة تخويل قوات حفظ السلام بالضرب (أو حتى التهديد بالضرب) للمرور عبر نقطة التفتيش، مهما كان ذلك مرضياً، فإن كل شيء تعمل الأمم المتحدة من أجله سوف يدمر. وهو ما عبر عنه لي سيرجيو فييرادي ميللو، وهو خبير متمرس عمل مثل أكاشي في عمليات الأمم المتحدة في كمبوديا قبل أن يصبح المنسق الإداري الأول لعمليات الأمم المتحدة في سراييفو في أواخر ١٩٩٣ قال: «تستطيع أن تمر بالقوة مرة. وبعد ذلك تكون في حالة حرب، وتنتهي من جميع النواحي العملية الجهود الإنسانية وتكون أنت الخاسر».

والمشكلة في هذه الحجة هو أنها تمثل عقيدة لدى الأمم المتحدة، وليس حقيقة قائمة على تجربة حدثت لقوات حفظ السلام في البوسنة. وفي الواقع، عندما كانت الوحدات الفردية لقوة الحماية تستخدم القوة، كان ذلك يسهل عملها أكثر ولا يصعبه، ففي شمال البوسنة، على سبيل المثال، صمم الجنود البريطانيون المسئولون عن مرافقة قوافل الإغاثة من قاعدتهم المتقدمة في قرية كلاداني إلى مدينة توزلا على طريق معروف باسم «زقاق القنابل»، وبدون استخدام البوق، صمموا على البدء في الرد بإطلاق النار على الصرب في التلال المحيطة. وبعد اشتباكات قليلة توقفت تماماً محاولات الصرب لوقف القوافل، وفي وسط البوسنة في أواخر ١٩٩٣، تولى قيادة الكتيبة النوردية المختلطة قائد جديد وهو سويدي شديد البأس واسمه هندريكسون والذي قال لي ذات مرة: «أخبرهم أن يدعوني أمر أو أفجر رؤوسهم الفارغة جميعاً. صحيح، أحيانا لا يقبلون وعندئذ على أن أعود. ولكن لا ضير إذا حاولت. فعليك أن تفعل ذلك في البلقان: أن تتصرف كالرجل الصلب أو يبولون فوق رأسك».

ومن جانبها فقد بالت الأمم المتحدة على رأس كل أولئك الذين حاولوا، مثل

هندريكسون، أن يفعلوا شيئا أكثر. فخلال حصار سربرتيشا، عندما قرر قائد قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة، الجنرال فيليب موريلون، أن يذهب إلى الإقليم وحاول من خلال بقائه أن يجبر الصرب على وقف القصف، ارتعبت السكرتارية العامة في نيويورك وأنب بطرس موريلون شخصياً وأخبر الجنرال الفرنسي أنه مذنب بـ «تجاوز التفويض»، وبعبارة أخرى فبدلاً من الكلام عن إنقاذ الأرواح وفرض السلام، قام موريلون للحظة قصيرة فعلياً بإنقاذ أرواح وفرض قدر من السلام. لم يكن الأمر وكأن موريلون قد أمر جنوده بإطلاق النار على الصرب، بل لقد ذهب ببساطة إلى حيث اعتقد أنه قد يفعل شيئاً جيداً (فالجنرال، أياً كانت القيود المحيطة به، كان لديه الشعور الديغولي القديم بالشرف والعظمة الشخصية). وبعد شهور قليلة، طرد من القيادة وأرسل إلى فرنسا وسرت إشاعة أن الحكومة الفرنسية استجابت لطلب شخصي من بطرس غالي نفسه.

بالنسبة لمن هو متعاطف مثلي مع القضية البوسنية والذين اعتقدوا أن نشاط الأمم المتحدة في محاولة منع أو ـ بعد الضربة الجوية في غوارجده عام ١٩٩٤ ـ الحد من التدخل العسكري قد جعلها، مهما كان عن غفلة وعن غير عمد، أداة في المذبحة الجماعية لمسلمي البوسنة، فلن يبرر أي شيء أن نؤكد أن رجال الأمم المتحدة تصرفوا بدافع الإخلاص العنيد لحفظ السلام كما فهموه ولتفويض اعتقدوا أن مجلس الأمن أمرهم بتنفيذه. ولكن يظل من المهم أن نحاول أن نفهم السبب في تصرف الأمم المتحدة على هذا النحو، وفي حين أنه قد يرضينا أن ننسب هذه السياسة إلى نوع من الخباثة التنظيمية الكامنة، فإن الشخصيات التي تدير حفظ السلام التابع للأمم المتحدة تعد بشكل عام من أذكى الموظفين المدنيين في العالم وأكثرهم ثقافة ويميلون لأن يكونوا أكثر تأثراً، وليس أقل، بالمذبحة من أي شخص أو بلد آخر في العالم. والواقع أن ما كان مروعاً بالنسبة للغرباء عن المنطقة هو تلك الفجوة بين الحماسة التي فهم بها كثير من مسئولي الأمم المتحدة في كل من يوغسلافيا السابقة وفي نيويورك وجنيف ماكان يحدث وبين الإصرار على أنه يجب أن يسمح للمذبحة أن تستمر.

ومع ذلك فكلما زادت مقابلاتي مع مسئولي الأمم المتحدة، وضح لي أنهم لم يكونوا قط واقعين في شرك منظمة ربما أكثر تزمتاً وبيروقراطية هرمية من أي مؤسسة فيما عدا

العسكرية، ولكنهم اعتادوا على أن يتخاطبوا معاً بلغة ذاتية المرجعية قد تكون ذات معنى لديهم ولكنها مفتقرة للمعنى في إطار البوسنة. ومن المؤكد أنه بسبب ذلك التقديس الأعمى من قبل الأمم المتحدة «للتفويض» الذي استطاع تقرير بطرس غالي إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٦ مارس ١٩٩٤، في تقييمه لما إذا كانت قوة الحماية تستمر أو تتوقف، أن يزيح من أمامه جميع الانتقادات الهامة للعملية. وفي هذا التقرير يقول بطرس غالي: «إنني أدرك أن استمرار الصراع والمأساة في منطقة عمليات قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة منذ تجدد تفويضها قد أدى إلى انتقادات كثيرة وان كانت غير مبررة، لكفاءة أداء هذه القوة» جدير بالاعتبار ولكنه غير مبرر لفعالية القوة».

واستطرد التقرير يقول ان مثل هذا النقد غير مبرر لأن تطورات معينة «مشجعة» حول سرايفو «مثل وقف اطلاق النار الذي فرضه الناتو» كانت تعني أن التسوية صارت وشيكة. ولكن الأهم أن من الظلم انتقاد ما قامت به الأمم المتحدة في البوسنة لأن انتشار قوة الحماية يجسد إرادة المجتمع الدولي في المساعدة على الوصول إلى مثل هذه التسوية... إنها مسؤولية الأطراف أن تنتهز الفرصة التي يتيحها استمرار قوة الحماية لتظهر بتصرفها أنها ملتزمة بالبحث بجدية عن طريق نحو السلام. فإذا أظهروا ذلك فإن الأمم المتحدة على استعداد، كما هي دائماً، لمساعدتهم.

إن قراءة عبارات مثل هذه بعد قضاء شهر أو إثنين في البوسنة يعني أن تدخل في عالم يبدو أن الحقيقة فيه تقف على رأسها. فإيا ما قد يقوله آكاشي أو بطرس غالي في العلن، فلم يكن الوضع مشجعا في وسط مارس ١٩٩٤، وأصبح الأمل أضعف في الشهور التالية، حيث أثبتت المنطقة المحظورة حول غوراجده المفروضة من الناتو أنها نكتة مكشوفة، وأن التهديد العسكري ليس سوى خدعة وحتى وقف اطلاق النار في سرايفو كان يزداد هشاشة. أما عن موضوع نجاح قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة فهو قول يشبه في الحقيقة قول إحدى الشخصيات في مسرحية هزلية قديمة: «لقد نجحت العملية. فقط مات المريض». ولو أن مسؤولي الأمم المتحدة تكلموا ببساطة، كما يفعل عادة بعض الأقل تبصراً فيهم، عن الأرواح التي تم انقاذها بالنقل الجوي، أو أنهم أصروا، كما فعل بعض العسكريين، على أن البوسنيين هم شرذمة من المتوحشين الذين كان يجدر السماح لهم بأن يواصلوا قتل بعضهم البعض، لكان ذلك قابلاً للفهم على أقل تقدير. إما الأمر الشاذ فهو أن تسمع أفضل الناس

في قوة الحماية وفي قسم عمليات حفظ السلام يقـولون بإخلاص وفي نفس واحد أنهم قاموا بعمل جيد بينما يعترفـون في النفس التالي أن الوضع في البوسنة تحول إلى كـارثة محققة .

هنا يأتي دور التشويه الاحترافي لمسؤولي حفظ السلام ، فكما قال لي مسؤول في قسم الشؤون المدنية التابع لـلأمم المتحدة في سراييفو: «عليك أن تتعلم كيف توزع نفسك في هذه المهنـة . فأنا أعرف مـا فعله الصرب في البوسنة . لقد رأيت الجثث وسمعت بكاء النسـاء . ولكن لا يهم أين يذهب تعاطفي أو مـا أقوله أو مـا كنت أريد أن يتم عمله لو أنني كنت صحفيا مثلك . فعملي ليس محاربة الصرب ولا شجبهم . أنا هنا لمساعدة البوسنة بقـدر ما أستطيع ، ولكي أفعل ذلك فليس علي فقط أن أبدو محايداً أعـامل الصرب والمسلمين على قدم المسـاواة ولكن حيث أن الصرب هم المتصرون في هـذه الحرب وحيث يلزمك تصريحهم بأن تقـوم بمعظم الأمور هنـا فقد كـان علي أن أكون على وفاق معهم» .

بالنسبة لكثير من مسؤولي حفظ السلام كان التعبير عن عواطفهم الأخلاقية ترفاً بعيد المنال . وقد سارع أكثرهم تبصراً بالاعتراف بالوضع الأخلاقي الغامض تورطت فيه هـذا الأمم المتحدة بسبب ذلك . كان فـريد كاني يسخر وهـو يقول أنه لـو كانت الأمم المتحـدة متـواجـدة في الـثلاثينات لكـان كل فـرد في أوروبـا يتكلم الألمانيـة ، وبالنسبة لمن تعلم منا خلال سنتين أن يزدروا الأمم المتحدة على حيادها وعلى رضاها المغرور عن نفسها في البوسنة فإن هذا يوجز كل شيء يلزم قوله عن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . (اللجنة العليا للاجئين في الأمم المتحدة أمر مختلف تماما) ولكن كان هناك مسئولون في الأمم المتحدة استطاعـوا الاعتراف بهذا ومع ذلك مازالوا يـدافعون عما قاموا به في البـوسنة . ولم يكن تعليق فريد كاني بعيـداً عن أفكـاري عندما كنت في سراييفو، لـذلك صعقت وأنا أسمع مسئولا في الأمم المتحـدة يعلق في ارتجال فيأحد الاجتماعات قائلا : « كما تعرف ، عندمـا تتكلم عما لم نستطع القيام به في البوسنة فإن ردي أنه كانت هناك كثير جداً من المواقف لم تكن أداة حفظ السـلام ببساطة ملائمة لها . فعلى سبيل المثال ، أعتقد أن الأمم المتحدة ما كـانت لتكون فعالة في التعامل مع هتلر في الثلاثينات .

واستطرد قائلا: «إننا متهمون بأننا لم نفعل أكثر في البوسنة ولكن الحقيقة أنه منذ عملية حفظ السلام الأولى عام ١٩٤٧ لم نتجاوز تفويض مجلس الأمن. وبالتأكيد لم نكن في وضع يسمح بعمل ذلك هنا. وعندما تدينا فأعتقد أن ذلك لأننا الرموز الأكثر وضوحا للعالم، وبالتالي لفشل العالم في منع الاشياء الفظيعة التي حدثت في يوغوسلافيا السابقة. ولكن عندما تديننا، فإنك في الواقع تطلق النار على الرسول الوسيط. لوموا حكوماتكم على ما حدث: كان يمكنهم ان يعطونا تفويضا مختلفا. لوموا انفسكم لعدم دفع حكوماتكم للتصرف. فلا معنى لان تلومونا فالأمم المتحدة ليست حكومة العالم. انها منظمة لحكومات العالم. وحفظ السلام ليس سوى اداة نجهزها نحن في الأمم المتحدة اذا طلب منا مجلس الأمم ذلك. إنكم تظنون أننا نتخفى خلف التفويض ولكن الحقيقة أنه يمدنا بالشرعية الوحيدة التي نملكها. إن قيامنا بعمل ما هو أقل مما يطلب مجلس الأمن شيء قد يحدث ـ وغالبا ما نكون مجبرين ـ ولكنك وزملاؤك تلوموننا لعدم القيام بما هو أكثر. ولكننا لا نفعل ذلك لأننا ببساطة لا نرى أن ذلك وظيفتنا أو حقنا. ولو حاولنا فعل ذلك، لكنا نسلب سلطة الدول الاعضاء، وأقولها لك إنهم لن يتحملوا ذلك لوقت طويل».

لقد انطوى هذا الكلام ضمنيا على فكرة أن تكون قوات حفظ السلام إما ملتزمة بموقف المتفرج المحايد المهذب أو ألا يتورطوا على الإطلاق. ورفض أي رأي بدور لها في تفسير التفويض الذي أعطي لها والقرارات المحددة التي أمرت بتنفيذها ولقد بدا أن مسئولو الأمم المتحدة غير متقبلين لفكرة أن القرارات التكتيكية التي تتخذها قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة على أرض الواقع في البوسنة يمكن أن يكون لها الأثر العميق على القرارات التي تتوصل اليها حكومات الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن سواء في الأمم المتحدة أو في المجالس العليا مثل الناتو. وأشاروا بحق إلى أن مجلس الأمن ظل يأمر قوات حفظ السلام بالقيام بأعمال صعبة وغامضة ولكن بعد ذلك لم يكن راغبا في مساندة تلك التفويضات الجديدة حتى بالقدر الأدنى من المال والرجال التي تتطلبها.

والمثال الكلاسيكي على ذلك هو ما يسمى بالملاجىء الآمنة الصادر في مايو ١٩٩٣. فقد قدرت قوات حفظ السلام حاجتها إلى ثلاثين ألف جديدة من الجنود لحماية تلك المناطق. وقال قائد القوة أنه عند اللزوم يستطيع أن يؤدي المهمة بعشرة

الآف من الجنود ـ أو «الملاجىء الآمنة الخفيفة» كما سرت النكتة في مقر رئاسة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في زغرب ـ وفي نهاية الأمر، سمح مجلس الأمن بـ ٧٥٠٠ جندي وأخيراً حدد المال اللازم بـ ٣٥٠٠ جندي فقط. وحتى تلك القوات لم يتم التفويض لها إلا بعد عام وبعد كثير من التراجع من الاعضاء الدائمين وسلسلة طويلة لمناورات السياسية من جانب مسئولي قسم عمليات حفظ السلام. وكما هو الحال مع قرارات الأمم المتحدة في البوسنة غالبا، فإن الغرض المقرر من اي قرار نادراً ما يكون مثل الهدف الحقيقي منه. فقد تم تبني سياسة المناطق الآمنة بعد أن حول صرب البوسنة سربرنيتشا إلى ساحة قتل ضخمة. وكان هناك في فرنسا، بصفة خاصة، ضغط شديد على حكومة ميتران للتدخل العسكري كما كان الضغط يتنامى في بريطانيا. وكان الرأي لدى كثير من مراقبي الأمم المتحدة، داخل وخارج السكرتارية العامة، انه يجب أن يُرى الفرنسيون والانكليز وهم يفعلون شيئا، وتحديد بعض المدن في البوسنة كملاجىء آمنة يظهـر ذلك العزم من دون تكليف الأمم المتحدة أو حلف الناتو بعمل الكثير.

وخلافا لذلك كانت الولايات المتحدة تحبذ هذه السياسة لأنها كانت على أقل تقدير تميل نحو تدخل عسكري متصاعد. ويبدأ أن إعلان مناطق آمنة تعتبر خطوة في هذا الإتجاه. وكما إتضح، بالطبع، فإن البريطانيين والفرنسيين ـ الذين عارضوا التدخل في كل خطوة وكان يلزم رؤية كل عمل لهم في هذا الضوء حتى يمكن فهمه جيداً ـ حصلوا على النصيب الأفضل في هذا. أصبحت سربرنيتشا حظيرة إيواء بالنسبة للاجئي البوسنة، كما أصبحت غوراجده بعد عام، ولم يتم عمل شيء خاص لحماية المناطق الأخرى ـ بيهاتش وزيبا وتوزلا وسراييفو. أما الولايات المتحدة، وبرغم تعهداتها بمساعدة البوسنيين ـ كان تلك هي الفترة التي ظل فيها الرئيس كلينتون يصر على أنه «يفضل» رفع حظر السلاح ولكنه لم يستطع أن يجعل الحلفاء يوافقون ـ فلم ترغض فقط أن تلتزم بإرسال قوات بل خلفت في النهاية وعدها المقطوع منذ وقت طويل بتمويل القوات الملتزمة من الدول الاخرى. وبعد سنة من إصدار قرارات المناطق الآمنة كانت أزمة غوراجده هي التي اضطرت إدارة كليتون لكي تؤكد مرة أخرى التزامها الأصلي.

وبذلك كان هناك لوم كثير في كل اتجاه. فقد كان مسئولو الأمم المتحدة مخادعون

عندما تظاهروا بأنهم الطرف الوحيد النزيه في مأساة البوسنة وفي الحقيقة، كانت قوات حفظ السلام تنفذ جدول أعمال سياسياً خاصاً جداً وجيد التخطيط منذ بداية إنتشارها. فقد كان افتراضها الأساسي بسيطاً. إذ رأت الأمم المتحدة أن مجرد تدخل واسع النطاق لمساندة البوسنيين بل وأي نشاط عسكري متزايد، سواء كان ضربات جوية للناتو أو رفع لحظر السلاح ذي الجانب الواحد ضد حكومة البوسنة، يعتبر مخاطرة بكل شيء كانت تحاول تحقيقه في البوسنة. كان معيارها غير أخلاقي باعترافهم هم - إذ رأى مسئولو الأمم المتحدة أنه لا دخل لهم في الحكم على الصواب والخطأ في الصراع. كذلك لم يكن المعيار سياسياً، حيث إنه رغم كونه حكومة البوسنة دولة معترف بها دولياً وأن «جمهورية» صرب البوسنة إنقلاب غير شرعي، فقد شعرت الأمم المتحدة بأنها مجبرة على أن تتعامل معهم على قدم المواساة «كأطراف» أو بوصفهم «الأطراف المتحاربة».

وبالاحرى، أرادت الأمم المتحدة أن تمرر المساعدة وتسهل السلام.

فقد أصر جنرال برتراند دي لابريسيل، القائد العام لقوات الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة في نهاية اكتوبر ١٩٩٤ على أن «مهمة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة هي حفظ السلام. ليس لدى اعداء. لدى شركاء».

ومن وجهة نظر قوة الحماية كانت طبيعة شروط السلام غير ذات صلة تقريباً. فلم يكن يلزم ان يكون السلام عادلاً أو حتى سلاماً يمكن حفظه. فكل ما كانت تطلبه الأمم المتحدة أن توافق عليه «الأطراف». ومرة ثانية، كان المظهر التي ظهرت به الأمم المتحدة هو أنها منظمة تحاول في حيادية أن تساعد على حل موقف رهيب. ومرة ثانية كذلك، أخفت هذه الواجهة مصالح كانت الأمم المتحدة تحجم على الاعتراف بالدفاع عنها ولكن لم يكن من الصعب معرفتها فإذا كان الغرض من مهمة هو أن توقف الحرب، وكان الطرف الفائز مستعداً للتسوية بينما الطرف الآخر، بشعوره بأنه على حق ولكنه الخاسر، مصمم على مواصلة القتال، فعندئذ فإن من يديرون المهمة يجدون معظم الوقت أن مصالحهم مع الفائزين. فهم والفائزون يريدون السلام في حين أن الطرف المهزوم، الذين استولت عليهم فكرة أن الحق معهم، يرفضون القبول بهزيمتهم، في ظل هذا الإلتقاء ومع فهم الفائزين والأمم المتحدة

لذلك، فهما يشتركان في نفس الهدف.

ذلك هو ما حدث بالضبط في البوسنة وبالطبع حزنت الأمم المتحدة على ما قام به صرب البوسنة ولكن طالما ليس لديهم تفويض بعمل شيء حيال ذلك وتفويض خاص لإنهاء معاناة الشعب البوسني فقد وجدت الأمم المتحدة أنها تحاول حث حكومة البوسنة أن تعود إلى صوابها وتستسلم. وقد لا يكون ذلك نتيجة مثالية ولكن على الأقل سيتوقف قتل الناس. وإذا تضمن هذا إلغاء شرعية عدد من دول الأمم المتحدة بصورة أساسية، فليكن ذلك.

كان من المثير للاهتمام أن اعتراض كل من قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وإدارة عمليات حفظ السلام على قرار المناطق الآمنة هو أنه لكي يكونوا عادلين و«إنسانيين» يحق كان على القرار أن يطلب نزع سلاح القوات البوسنية في المناطق الست، وإلا ستكون تلك المناطق مسرح عمل لإعادة تموين تلك المناطق للقوات الحكومية. كان ذلك معقولا في لغة حفظ السلام.

وكانت المشكلة تكمن في أنه إذا كانت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة قد استطاعت في الحقيقة أن تنزع سلاح القوات البوسنية في عاصمة الدولة، سراييفو، وفي ثاني أكبر مدينة تحت سيطرتها وهي توزلا، وفي المناطق التي كانت تمثل آخر مقاومة بوسنية في أجزاء من الدولة تم تطهيرها عرقياً بصورة كاملة، اذا كان الأمر كذلك فإنها ستلغي دولة البوسنة بصورة نهائية باسم حماية المواطنين البوسنيين من هجوم الصرب.

ولحسن حظ البوسنة، فشلت محاولة تغيير القرار. ولكن الاستعداد الذي أبدته الأمم المتحدة للتضحية بالبوسنة لإسعاف البوسنيين يملأ مجلدات لما اعتقدت انها تقوم به في الدولة. وكما أدرك أي غريب قضى أي وقت في البوسنة فإن هذا الالتقاء في المصالح بين الأمم المتحدة والمليشيات الصربية لم يكن وضعاً استثنائيا بل كشف عن نفسه في الواقع بصورة يومية تقريبا. ومع ذلك لقد كان واضحاً جداً متى سيقوم الصرب بهجوم. وعادة عندما يقومون بذلك تكون الخسائر في الأرواح بين المدنيين رهيبة وتتناولها الصحافة ويزيد الضغط في الغرب من أجل نوع من التدخل. وفي عدة مناسبات فإن الأمر الوحيد الذي منع وصول قاذفات القنابل كان حركة وقائية

من قوة الحماية .

فعلى سبيل المثال ، عندما احتلت قوات ميلاديتش اخر نقطتين هامتين فوق سراييفو يوليو ١٩٩٣ وهما جبل اجمان وجبل بيليساكا فقد بدا وكأن الأمم المتحدة قد ترسل طائرات مهاجمة لرد الصرب ، وعند تلك النقطة قام قائد قوة الحماية في البوسنة ، وهو الفريق فرانسيس بريكمونت البلجيكي ونائبه البرجادير البريطاني جاي دي فير هايز ، والذي كانت علاقاته الطيبة الواضحة مع كارادزيتش وميلاديتش مصدراً للدهشة والسخط الشديد في سراييفو ، قاما بتدبيج اتفاقية يسمح الصرب بموجبها لقوة حفظ السلام الفرنسية بالتمركز على خط الجبهة الجديد ويتراجع الصرب قليلا ولكن ليس بالقدر الذي يجعل خطوط الفرنسيين والمليشيات الصربية منفصلة بحيث تستطيع الطائرات المهاجمة أن تفعل شيئا .

كانت الأمم المتحدة تقول إن اتفاق فصل القوات المزعوم كان نصرا كبيراً للسلام ـ كان يشاع على نطاق واسع أنها من صنع هايز ورئيس الشؤون المدنية للأمم المتحدة في سراييفو فيكتور اندريف الروسي . وقد أصر مسئولو الأمم المتحدة للصحافة أنه «لا حاجة» للضربات الجوية . ولكن في الحقيقة فإنه بوضع قوات حفظ السلام قريباً من الصرب بحيث تقتل الضربات الجوية من الفرنسيين مثل عدد التشتنيك فإن الأمم المتحدة لم تتصرف كمراقب محايد بل نجحت في التأكيد على أن رغباتها ـ وفوق كل شيء الرغبة في منع التدخل ـ قد انتصرت . وهكذا مرة أخرى تتلاقى المصالح . فبوضع العقبات أمام الضربات الجوية تمكنت الأمم المتحدة من الحفاظ على مهمتها وتمكن الصرب من المحافظة على مكاسبهم على أرض المعركة . فلا عجب أن تكون العلاقة بين الصرب وقيادة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة سمناً على عسل . فأثناء معركة جبل إيجمان ، وكما في كثير من المعارك الاخرى سابقاً ولاحقاً ، كانت الأمم المتحدة أفضل صديق للصرب . وبدا الأمر وكأن طائرات الناتو لا يمكنها أن تقتل الجنود الفرنسيين . أو بمعنى أوضح ، بدا أن أيا من قوة الحماية أو المتشددين في بالي لم يكونوا غافلين عن تلك الحقيقة .

كذلك لم يكن يبدو أن مسئولي الأمم المتحدة في شك من صحة مثل تلك الأفعال . فالمهم تجنب قتال آخر وحسب . وهذا يعني أن يهدأ الوضع عندما يتمادى

الصرب ويندرج تحت هذا عادة عدم الاستجابة مطلقاً والانتظار حتى تنفجر الأزمة. فعندما قام الصرب بالهجوم على قوات الأمم المتحدة مباشرة، كما كانوا يفعلون من وقت لآخر، فإن القوة لم تستخدم مطلقاً أو استخدمت على نطاق ضيق بحيث لم يكن استخدامها فقط بلا فاعلية عسكريا بل أظهرت للصرب الا يخافوا من قوة الحماية للأمم المتحدة، كما حدث عندما أمرت بضربتين جويتين لمساعدة رجالها في غوراجده في ابريل ١٩٩٤. وقد شجع ذلك الصرب، وإن كانوا ليسوا بحاجة لذلك، على الشعور بأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون في البوسنة. فأياً ما كان يفعله الصرب مع الأمم المتحدة فقد ارادت الأمم المتحدة أن تتفاوض مع الصرب. وعلى مدى سنتين، وكما تعود المراسلون على البلاغات الرسمية المتفائلة في حذر من قوة الحماية معلنة أنه سيتم هذه المرة عقد صفقة، فقد سقطت بوسانسكي بسرود وسريسكا وجايسا وزيبا. كما تم تطهير بانيالوكا وتدمير سراييفو وتحولت سربرنتيشا وغوراجده إلى معسكرات ضخمة للاجئين المسلمين. وفي منتصف ١٩٩٣ قال ديفيد أوين «إننا نتحرك بصعوبة نحو تسوية سلمية»، وكان يجدر به أن يقول أن جنرال ميلاديتش يتحرك بصعوبة نحو النصر.

ويمكن انتقاء الأمثلة في كل فترة من الحرب على العلاقة الحميمة بين الأمم المتحدة والصرب. وربما وصل الأمر إلى أسفل الدرك عندما عقد أكاشي اتفاقاً سرياً مع الجنرال ميلاديتش لمرافقة سبع دبابات لجيش صرب البوسنة عبر المنطقة المحظورة حول سراييفو. كانت تلك قضية خانت فيها الأمم المتحدة ليس فقط التفويض بحفظ السلام، بالسماح للصرب باعادة ترتيب وضع الاسلحة على جبهة أخرى على راحتها، بل خانت كذلك قرار الناتو بخصوص المنطقة المحظورة التي يفترض ان قوة الحماية للأمم المتحدة تشرف عليها. ولم يكن أكاشي أو رؤساؤه في نيويورك آسفين على هذه الصفقة. فقد قالوا أن الصرب أعطوهم شيئا في المقابل، هو بالتحديد حق نقل مائة وخمسين آخرين من قوات الحماية إلى غوراجده وتمركز المراقبين العسكريين للأمم المتحدة على الخط الأمامي في بركو في شمال شرق البوسنة ــ وهي المنطقة التي يوجه الجنرال ميلاديتش اهتمامه اليها بعد تدمير غوراجده.

وقالت قوة الحماية وإدارة عمليات حفظ السلام تبريراً للأمر: ما قيمة سبع دبابات صربية أخرى مقارنة بتلك «الانجازات»؟ ومع ذلك أصر هؤلاء المسئولون

أنفسهم على أنهم كـانـوا فقـط ينفـذون تفـويض مجلس الأمن ولم يكـن ذلك من عنديـاتهم . ولم يحصل الصرب فقط على صفقة من الأمم المتحدة ، كما هي العادة ، ما كان يصح أبداً أن تقدم لهم ، ولكن ، عندما إنكشفت الصفقة وحاول أكاشي المحرج ان يلغيها ، تحركت دبابات جيش صرب البوسنة داخل المنطقة المحظورة على الفور .
ومنذ اضطر أكاشي للسماح بـاستخدام القـوة الجوية لم يكن هناك مـا تستطيع الأمم المتحدة أو النـاتو أن يفعلاه لوقفهم . بل إن دبـابة تقدمت على مرأى من قـوة الحماية المرافقة . كان هناك طابور من ثلاث عربات : الدبابة الصربية فوق الشاحنة ثم عربة مرافقة صربية ثم العربة المرافقة لقوة الحماية . وقد أعلن المكتب الصحفي لقوة الحماية في اليوم التالي ان العربة المرافقة الصربية بدأت فجأة في التحرك ببطء جيئة وذهاباً عبر الطـريق لحجب الرؤية عن الموجـودين في عـربـة قوة الحمايـة . وأثنـاء ذلك أسرعت الشاحنة التي تحمل الدبابة بـالتقدم . وأعلن العقيد إيريك شايبرون المتحدث بإسم قوة الحماية لرجـال الصحافة ما يلي : «لقد فقدنـاها ونبحث عنها في كل مكان داخل المنطقة المحظورة»

لم تكن قـوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة لا تجد غضـاضة فقط في تـرك الصرب يفعلون ما يحلـو لهم في البوسنيين ، بل أثبتوا طوال القتـال أنهم راغبون في ترك الصرب يفعلون ما يريدون بقوات الأمم المتحـدة . وهناك مثال صارخ على ذلك : فأثناء الفترة نفسها من صيف ١٩٩٣ ، والتي كان الجنرالان هايزو بريكمونت يتلمسان طريقاً لمنع النـاتـو من طرد التشتنيك من جبل ايجمان ، اختـار الصرب الهجوم على وحدة فـرنسية أقامت معسكراً قرب أنقـاض ستاد زيترا الاولمبي في سراييفو ، حيث قام جيش صرب البوسنة بإطـلاق اكثر من ثمانين قذيفة على الوحدة الفرنسية ودمـروا عدداً من عرباتها رغم عدم قتل أي من أفـرادها وهذا معجـزة ، وتخاذل جنرال بريكمـونت عن إعطاء الأمر بالرد مفسراً ذلك لاحقاً بأنه لم يكن يريد أن يعرض للخطر محادثات السلام التي كانت على وشك البدء ثانية في جنيف . وبينما كانت الشاحنات تسحب عربات نقل الجنود المدمرة في شوارع سراييفو ، اتضح أن السكان المحليين كانوا يهتفون في ازدراء . وقال لي أحدهم : «على الأقل هناك ثمانين قذيفة لن يصوبها التشتنيك نحونا» .

ومع ذلك فقد كان كلا القرارين ـ التعامل مع الصرب وعدم الرغبة في الرد بنفس الأسلـوب على النيران المباشرة من الخطـوط الصربية ــ متفقين تماماً مع أهـداف الأمم

المتحدة وعملياتها في البوسنة . ومن دون التأكيد على أن هايز واندريف قاما فعلاً بإعطاء ميلاديتش مخرجاً من أزمة ايهان ، فقد أخبرني أحد مسئولي الأمم المتحدة لاحقاً أنهم لو كانوا قد فعلوا ذلك فلا غبار عليهم ، حيث قال : «لقد كنا وسطاء في هذا الموقف . يقول لنا الصرب بما يستطيعون عمله ودورنا أن نقول : حسنا . إذن عليكم أن تفعلوا ذلك . . وبالطبع نحن نرحب بأن يفعلوا كل ما في استطاعتهم . هذا هو ما تدور حوله مفاوضاتنا معهم . ولكن ليس في التفويض ما يسمح بإجبارهم على اتخاذ قرار معين ، كما أنه ليس من مهمتنا أن تجبر الجانب الصربي على إتخاذ قرارهم . فكل ما نفعله هو المساعدة على إتفاق الأطراف» .

ولم تكن المسألة ببساطة أن الأمم المتحدة تجد نفسها موضوعيا على وفاق مع الصرب وليس مع موقف الحكومة البوسنية فيما يتعلق بفرض السلام بسرعة ، رغم أن ذلك كان جزءاً كبيراً منها . والواقع أنه كان من رأى كثير من مسئولي الأمم المتحدة أن المجرمين الحقيقيين في حادثة تفكك يوغسلافيا لم يكونوا كارادزيتش أو ميلوسوفيتش وبل فرانكو تودمان وهانز ديتريش غنشر وعلي عزت بيغوفيتش مع الترتيب التنازلي في إلقاء اللوم . ولقد اعترفوا أن عزت بيغوفيتش حاول قدر المستطاع الإبقاء على وحدة يوغسلافيا . لكن مع اعتبار ميلوسوفيتش فوق أي طعن فقد توصلوا إلى أن عزت بيغوفيتش يتحمل مسئولية القبول بأي شيء يرغب القائد الصربي في تقديمه له . ذلك ما اعتقدوا أنه الموقف الصحيح في ١٩٩١ وقابل للتطبيق بنفس الدرجة عام ١٩٩٤ .

ولم يكن هناك مجال لإنكار أن صرب البوسنة قد حققوا بسرعة معظم أهدافهم العسكرية وعند بداية ١٩٩٤ كانوا يضغطون من أجل وقف إطلاق النار . وكان هذا في واقع الأمر تحديدا لخطوط التقسيم في البوسنة حسبما تم في ميدان القتال . ولكن من أجل الوصول إلى السلام ، أي سلام ، كانت الأمم المتحدة راغبة في مسايرة الوضع . وبديهياً يكون الجانب البوسني ، الذي كان في مفهوم الأمم المتحدة ، كما قيل عن الايرلنديين ، غير جاد في حرية بلده ، هو المعيق لذلك . فقد كان يريد تسوية بالقوة أولاً وبعد ذلك فقط يكون وقف إطلاق النار . في عام ١٩٩١ في كرواتيا طالبت خطة فانس بالسماح بعودة من طردوا من مناطق بلدهم التي كانت تحت الاحتلال الصربي وأن تتولى الأمم المتحدة السيطرة على المناطق المتنازع عليها ، أو ما

سمي بالمناطق الواقعة تحت حماية الأمم المتحدة، حتى يتم الوصول إلى تسوية نهائية. ولكن في نهاية ١٩٩٤ لم يسمح للاجيء واحد بالعودة وكان هناك اعتراف عالمي بأن الصرب، وليست الأمم المتحدة، هم الذين يسيطرون على تلك المناطق. وفي ظل تلك الظروف، كان لدى حكومة البوسنة كل العذر في رفض ضغط الأمم المتحدة عليها للموافقة على وقف «مؤقت» مشابه لاطلاق للنار في بلدهم.

لكن مسئولي قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة كانوا أكثر اهتماماً بسلامة رجالهم من المحافظة على وحدة أراضي البوسنة والهرسك. ولايعني ذلك أن تهديد أفراد الأمم المتحدة على الأرض كان وهمياً. فقد كان يمكن أن يكون حوالي ثلاثون الفاً من رجال الأمم المتحدة على الأرض في البوسنة هم الهدف الأول للصرب لو كان هناك تهديد عسكري غربي جاد، رغم أن مسألة قتل أو أخذ رجال الأمم المتحدة رهائن شدد بالتأكيد من تصميم الأمم المتحدة على معارضة التدخل بكل ما تملك من الوسائل. وكما أوضح الصرب عندما احتجزوا ما يقرب من مائة وخمسين من قوات حفظ السلام رهائن بعد طلعات قاذفات الناتو فوق غوراجده، فإن مثل تلك التهديدات كانت فارغة. وكان رفض أكاشي بعد ذلك السماح بضربات الناتو، حتى عندما أصبح من الواضح أن انذار الناتو بخصوص غوراجده لم يحترم، ناشئا في جانب منه عن قلقه على سلامة رجاله. وبالرغم من ذلك كله، فان هذا يمثل فقط طرفاً من القصة. ففي نفس الوقت الذي كان فيه الصرب يحتجزون افراداً من الأمم المتحدة ومع اقتراب وقت الانذار الاخير للناتو فقد قام مسئول مدني رفيع في الأمم المتحدة في سراييفو، هو سرجيو فيرا دي ميلو، وقائد قطاع قوة الحماية للأمم المتحدة، جنرال اندريه سوبيرو، شخصيا، بقيادة قوة صغيرة داخل غوراجده، مما أمد الصرب في الواقع بأهداف أكثر ورهائن محتملة أكثر. وليس واضحاأن أكاشي كان يمكن أن يعطي تخويلا بضربات جوية تحت أي ظروف، ولكن وجود تلك القوات الأضافية لقوة الحماية والمسئولين جعلت اختياره سهلاً. ومع ذلك فعلى نفس النمط تحدث دي ميلو ورفاقه بأن ما فعلوه كان نصراً لعملية السلام.

كانت هناك أمثلة كثيرة على أن فهم الصرب لقوة الحماية للأمم المتحدة كان أفضل من فهم قوات الحماية لنفسها حتى أن المراسلين سرعان ما افترضوا، عند الشك، أن المحصلة ستكون زيادة في مهانة الأمم المتحدة، فقد بدأت اللعبة مبكراً

ولم تتغير بعد ذلك . فإذا استطاعت قوة الحماية وادارة عمليات حفظ السلام القبول ، كما فعلوا في ٩ ابريل ١٩٩٣ بعد اسبوع من تحرير الأمم المتحدة لقرار بتخويل الناتو بفرض حظر الطيران فوق البوسنة ، بقيام الجنرال ميلاديتش بالطيران في مروحية القيادة لحضور اجتماع مع جنرال موريلون ، فمن الواضح انها ستقبل بأي شيء يجرؤ الصرب على تقديمه . قال صديق لي من سراييفو في ذلك الوقت ساخراً : «بهذا المعدل الذي يسيرون عليه فإنهم سيطلقون على إذلال النفس إسماً قبيحاً» .

لكن محاولات الأمم المتحدة لعقد صداقة مع الصرب كانت تقوم على ما هو أكبر من شعور جنرالات قوة الحماية بالراحة مع جيش صرب البوسنة أكثر من راحتهم مع البوسنيين ، أو من تفضيل مسئولي الأمم المتحدة المدنيين للسلام بأي ثمن واستعدادهم للتضحية بأي مبدأ باسم جهود المساعدات الانسانية ـ رغم أنه مع مرور الوقت فقد وضح تماما التناقض بين موقف قوة الحماية للأمم المتحدة نحو حكومة البوسنة وصرب البوسنة . وغالبا ما علق مسئولو اللجنة العليا للإغاثة ، الذين رافقوا مسئولي قوة الحماية إلى الاجتماعات في كل من رئاسة حكومة البوسنة أو مقر رئاسة رادوفان كارادزيتش في بالي ، على مدى ارتياح قادة الأمم المتحدة لصحبة الصرب . وفي اللجنة العليا للإغاثة كانت يُشار الى أي مسئول رفيع في الأمم المتحدة بطريقة روتينية على أنه «السيدة ميلاديتش» .

بل أن أعضاء من موظفي الجنرال روز كانوا يقولون سرا أن الجنرال يعتبر أن خطة التقسيم في ربيع ١٩٩٤ غير عادلة مع صرب البوسنة وأنه ، أثناء اجتماعه مع رادوفان كارادزيتش ، أعلن عن تحفظاته عليها . إن تأثير مثل تلك التصريحات على رغبة الصرب في قبول الخطة أمر يسهل التنبؤ به . فكيف يكون الغرب جاداً اذا كان مسئول الأمم المتحدة الرفيع في البوسنة لديه شكوكه؟ لكن رغبة الأمم المتحدة في النظر إلى ما يحدث في البوسنة من وجهة نظر كارادزيتش ليست مجرد نتيجة للآراء الخاصة لمسئولين معينين ، بل كانت الأحرى دالةً للطريقة التي عملت بها قوة حفظ السلام للأمم المتحدة تاريخياً منذ بدايتها .

وطوال الصراع كان مسئولو حفظ السلام التابع للأمم المتحدة على الأرض ، في يوغسلافيا السابقة وكذلك في نيويورك وجنيف يحاولون التعامل مع صرب البوسنة

(ومع حكومة ميلوسوفيتش في بلغراد كذلك) وكأنهم جادون حيال تسوية يجري التفاوض عليها. وبسلوكهم هذا كانوا يستخدمون سلسلة من الشكليات ويعملون في إطار افتراضات قد تكون مناسبة في التعامل مع أناس يريدون ايقاف القتال ولكنها غير مناسبة تماماً في التعامل مع قادة محبين للحرب لدولة شريرة كانت في الواقع جمهورية صربيا.

وليس من المستغرب أن الصرب كانوا محصنين ضد تلك الدعوات الكئيبة للتصرف كمواطنين مسئولين في المجتمع الدولي بنفس الدرجة التي كانوا محصنين بها ضد التهديدات بالعمل العسكري الذي كانوا يعرفون أنها فارغة. ومنذ البداية، كانوا واضحين حول أهداف حربهم وواضحين حول استراتيجيتهم العسكرية والأكثر أهمية أنهم كانوا واعين لحقيقة أنه مهما قال ممثلو القوى العظمى وأياً كانت القرارات التي قد يمررونها في مجلس الأمن، فلم تكن هناك إرادة مطلقاً بين الحكومات الغربية لدعم هذا الكلام بالقوة. ولم يكن المجتمع الدولي يعرف ماذا يريد وبالتالي كان مشلولاً. كان يريد للحرب أن تتوقف وللإبادة الجماعية أن تنتهي وان يتم احتواء الصراع، ولكن كان يمكن تحقيق آخر هذه المتطلبات فقط، والتي كانت على المدى القريب على الأقل، متسقة مع إنتصار صربي مثلما هي متسقة مع هزيمة صربية، من دون تعريض حياة جنود الناتو للخطر.

ومنذ الحرب الصرب كرواتية عام ١٩٩١ كان من الواضح أنه لن يتم ارسال القوات الأميركية والانكليزية والفرنسية للقتال في البلقان. فالمساعدة على توصيل المساعدات الانسانية شيء، والقيام بحرب شيء آخر. وبالنسبة للصرب فإن رفض الغرب القيام بعمل بينما يتم تدمير فوكوفار وقصف دوبروفنيك كشف لهم - في كنين وبالي وبلغراد - كل ما يريدون أن يعرفوه. ولم يكن الصحفيون الساخطون فقط هم من يعتقد ذلك. فعندما اتهم ديفيد أوين، في اجتماع في نيويورك أوائل ١٩٩٣، بأنه كان يتصرف مثلما تصرف الإنكليز والفرنسيون في محاولة لإرضاء هتلر عام ١٩٣٨، رد ببرود: «كانت ميونيخ العام الأخيرة». ومهما يمكن أن يقال عن ديبلوماسية أوين فقد كان محقاً تماماً في ذلك. كان قد تم إرسال فانس وأوين من قبل الأمم المتحدة والإتحاد الأوروبي للتفاوض حول تسوية في البوسنة وهما يعلمان منذ البداية أنه لن يكون هناك ضغط عسكري أو حتى تهديد جاد به يظهرونه امام الصرب مع علمهم

بأن الصرب كانوا على وعي تام بذلك . ومع مضي الوقت فإن حقيقة أن أوين وفانس نفسيهما بدءا حملة نشطة ضد التدخل العسكري الغربي (مجادلين في مضيعة للوقت بأنها على وشك تخطي الوضع) لا تغير شيئا .

قال أويون في مقابلة : «كانت هناك جهود للوم المتفاوضين . ضحوا اللوم على حكوماتكم . إنني وسيط ، مفاوض . والمفاوض يعمل دائماً في جانب السلام . على أن أتمسك بتلك الحيادية . إنني أعيش داخل هذا الإطار . . لم نكن مطلقاً ضد مشاركة أكبر من جانب الحكومات . . . أن وظيفتنا هي حفظ السلام والانتظار حتى تستأنف الحكومات المشاركة في المفاوضات!!

المشكلة أنه لم يكن هناك سلام يحفظ ولا شيء للتفاوض عليه . فكل ما كان يريده الصرب هو النصر . وهذا ما كان على الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية وفانس وأوين والباقين أن يواجهوه . إنها مشكلة قديمة تواجه الليبراليين في صراعهم مع الشموليين : عدم القدرة على تصديق أن ما قاله القتلة لجماهيرهم المحليين كان يعكس ما خططوا لعمله بأكثر مما يعكس ماقالوه حول مائدة المؤتمر . فلو شاهد أحدهم رادوفان كارادزيتش أو الجنرال ميلاديتش في تلفزيون بلغراد أو بالي فسيجدهما يتحدثان عن إقامة صربيا الكبرى وعن النصر، اما إذا كانوا يتكلمون مع الصحفيين فإنهم يتكلمون (أو على الأقل فعل ذلك كارادزيتش على أي حال ، أما ميلاديتش فغالبا ما يهدد أعداءه بالدمار ويحذر المراسلين ومسئولي الأمم المتحدة بأن يتنبهوا لحركاتهم وأن يقفوا عند ذلك) عن الطبيعة الدفاعية للحرب وينكرون وضع اللوم على جانب الصرب . كان الصرب يراهنون مع الديبلوماسيين بينما في الميدان استمرت قواتهم في عمل ما كانت تفعله على طول الخط .

قال أوين ذات مرة «يعرف الصرب كيف يتعاملون مع الأمم المتحدة» . ولقد أصبح خط سير مسئولي الأمم المتحدة في البوسنة مألوفا لدى أولئك الذين إستطاعوا المضي في مراقبته : يصل الديبلوماسي أو القائد العسكري للأمم المتحدة إلى زغرب أو سراييفو واعداً بمجهود متجدد . وغالباً ما يصر، عند مواجهته لجمهرة من الصحفيين المعادين الذين طالت إقامتهم في البوسنة ، أن من الخطأ لوم الصرب على كل شيء وأنه خطأ أكبر أن نسخر من عملية المفاوضات وتبرز ثقة هادئة وإمكانية أن

ستصير الأمور اخيراً نحو الأفضل. كان يتم اعـلان ذلك إما بصراحة أو بالتلميح في الكواليس أو تحت بند ليس للنشر. ثم يحدث التخلي عـن الوهم حتماً، ذلك الصعود على منحني الوهم السحيق والـذي سار فيه كل مسئول في الأمم المتحـدة قبل مغادرة البوسنة وقد صارت سمعته البراقة إلى أشلاء.

كان الطيارون من الرتب العليا غالبا ما يفعلون ما هو أسوأ مما يفعله الانتهازيون. فعندمـا إمتد التفويض لقـوة الحماية التابعة لـلأمم المتحدة أول الأمر ليغطي البـوسنة والهرسك بالإضافة إلى كرواتيا فإن مستوى المسئولين العاديين للأمم المتحدة، بعكس اللجنة العليا للإغاثة، كان منخفضا نـوعا ما. فقد كان المسئول المدني الرئيسي للأمم المتحدة في يـوغسلافيـا السابقة وهـو دبلوماسي أنجلو ـ أيـرلندي يـدعى سيدريك ثورنبري ينظر إليه من قبل كثير من الناس في فريق أوين/ فانس وداخل اللجنة العليا للإغـاثة على أنه انتهازي لبق الحديث منهجـه الأساسي أن يبذل أقل قـدر من الجهد وأن يحول اللـوم حيثما يستطيع. وعندمـا تم تعيين يـاسـوشي أكاشي كـممثل خـاص للأمم المتحـدة في يوغسلافيا السـابقة وكذلك تعيين سرجيـو دي ميلو كقنصل مقيم للأمم المتحدة في سراييفو فإن العارفين بهما سارعوا بافتراض أن السكرتارية في نيويورك أصبحت أخيرا جادة في البـوسنة. كان هذا، وهـو ما أكده لي رجـال الأمم المتحدة، أول فريق وأن وصول قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الى نتائج مختلفة هو مسألة وقت فقط.

وفي الوقت ذاته تم استبدال جنرال بريمكونست ـ الذي كان سجله خالياً من أي خبرة قتالية والذي تعـود على أن يتنقل بين المفـاخرة للصحفيين بـوصولـه غير المسبوق إلى جنـرال ميـلاديتش (الـذي ادعى معـرفتـه قبل تفكك يـوغسـلافيـا) والشكـوى من بيروقراطيـة الأمم المتحدة في نيـويورك والصعـوبات التي يـواجهها «تحت النيران» في سراييفو ـ بالسير مايكل روز، وهو جنرال محارب فعلاً وكان قائداً سابقاً في كوماندوز الخدمة الجوية الخاصة البريطانية وعسكري محنك في الفوكلاند وفي الحرب في أيرلنده كما حصل على دورة في حفظ السـلام في كـامبرلي بكليـة العسكـريين البريطـانيـة. وبالرغم مما قاله أحد مسؤولي الأمم المتحدة، والذي كانت له تعاملات مع روز، عن «نظـرة بعيدة» تلمح أحيانـاً في عيني الجنـرال، أرجعها إلى قضـاء روز وقتـاً طويـلاً «يقتحم الغرف ويجمد كل شخص أمامه»، فلم يكن هناك شك أن روز كان ضابطاً

على كفاءة عـالية . في بادىء الأمر، وعنـد ترتيب وقف إطلاق النـار وسحب أسلحة الصرب الثقيلة حول سراييفو، ظهر حقيقة أن تلك القيادة المدنية والعسكرية الجديدة ستغير الأمور. فقد وصلت اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة إلى أماكن في البوسنة كانت تحجز عنـدها لشهـور. وفي سراييفو بدأ روز في رفع القمامـة وإصلاح خط الترام، بل وإقامة مبـاراة في كرة القدم على مرأى من الصرب المحـاصرين ـ وهو شيء لم يحلم به أحد قبل وقف إطلاق النار.

ولكن، وكما كـان يجب أن يكـون واضحـاً منـذ البدايـة، كـان وراء الأكمـة مـا وراءها . ولـو أن مسؤولي الأمم المتحـدة والحكومـات الغربية انتبهـوا أكثر إلى مـا يبثه تلفزيون بـالي، فإن أولئك الذين اعتقدوا تماماً أنهم حققوا انتصـاراً على الصرب كانوا سيدركون أن الجو في جمهورية صربيا لم يكن انهزامياً . فقد توقف الصرب من زمن عن خطتهم في أخذ كامل مدينة سراييفو. وقد علق أوين عند نهاية سحب معظم (وليس جميع، كما اتضح) أسلحة الصرب الثقيلة من حـول سراييفو بقوله «إلى حـد مـا، كان يطلب من الصرب أشياء سبق وقبلوا بها مبدئياً . . .».

وعندما يزور المرء بالي أو المنـاطق التي يحتلها الصرب في سراييفو، فإنه يلاحظ أن الحديث بين قـادة صرب البوسنـة لم يعد، كما كـان قبل ست شهـور، حول إعـادة الاستيلاء على بقية المدينة بل حول التقسيم . كـان نيكولاس كوليفتش، الناقد الأدبي الـذي أصبح وزيراً، يحب أن يحيي الصحفيين الـزائرين في بـالي بأوصاف «سراييفـو الجديدة»، أي أطـراف وضواحي المدينة التي يخطط الصرب لجعلها عـاصمتهم بعد نهاية شـاملة لـلأحقاد في البـوسنة . كـان يجري تبديل كل شيء من الأسماء الجديدة للشوارع إلى خطط الإنشـاءات الجديدة . وربما كان يجدر بـالأمم المتحدة أن تعتبر أن فتح جسر الأخوة والوحـدة بين الجزء الواقع تحت سيطرة حكومة البوسنة في سراييفو وجربيسافيكا، النتوء الذي يحتلـه الصرب داخل سراييفو، بمثابة إشـارة على أنه ليس مطلقاً خطوة نحو لم شتـات سراييفو ثانية، بل إجازة لتقسيمها قـانونياً، أو هي على الأقل قامت بـذلك عندمـا سمحت للصرب بإقامة مـركز جمارك مع شعـارات تقول «مدينة سراييفو الجديدة» و «نقطة عبور» على لافتة بجانبها .

عند رفع اللافتـة أعلن مسؤولو الأمم المتحدة بازدراء إن إقـامتها لم يكن جزءاً من

صفقتهم مع الصرب وأنه يجب إزالها . وهو ما لم يحدث بالطبع . لقد كان أوين على الأقل أكثر صراحة . ففي أوائل ١٩٩٤ كان مستعداً للاعتراف علناً بأنه مع مرور كل يوم فإن «احتمال تقسيم دائم لسراييفو يصبح أكبر» . كان مثل ذلك التقييم الصريح للوضع منعشاً وبخاصة عند مقارنته بتصريحات أكاشي المتناقضة . ولكن أوين ابتعد بذلك كثيراً عن الموقف الذي صرح به مراراً وبشكل حاسم طوال النصف الثاني من عام ١٩٩٢ وطوال عام ١٩٩٣ والقائل إنه «لن تكون هناك جمهورية صربيا الكبرى» والآن بدأت اللعبة وكان يعرف بها . والقوة فقط هي التي تستطيع إجبار الصرب على التخلي عن أي منطقة حول سراييفو ولكن وكما علق أويون «الروس موجودون هناك الآن ، وأي هجوم الآن يعتبر تعدياً على كبريائهم» .

ولكي يحبطوا الضربات الجوية للناتو قام الروس بتحريك قوات إلى الجانب الصربي من خط المواجهة قبل أيام من انتهاء مهلة الإنذار الأخير للناتو في نهاية فبراير ١٩٩٤ . قال أويون «كان حلف الناتو مستعداً لاستخدام الضربات الجوية» . ولكن مع انتشار الروس تبخر هذا الاستعداد . فقد كانت القوى الكبرى تهتم بروسيا أكثر من اهتمامها بالبوسنة وكان من المستبعد تماماً القيام بضربة جوية قد يقتل فيها جندي روسي واحد . وكان الصرب يفهمون ذلك . فعندما وصلت الكتيبة الروسية التي كانت في السابق جزءاً من قوة الحماية المنتشرة في شرق كرواتيا إلى بالي ، تم استقبالهم كمحررين حيث رفع السكان المحليون تحية الأصابع الثلاثة للقوميين الصرب ووزعوا خمر سليفوفيتز والمقانق والجبن والخبز كما رد الروس على التحية بمثلها وهم يساعدون في صعود الشباب فوق عرباتهم المصفحة . ولاحقاً كانوا يتمازحون مبادلين بالبيريهات الزرقاء للأمم المتحدة قبعات جيش صرب البوسنة التي يرتديها الجنود الصرب في الجانب المقابل . ثم انتقلوا إلى مواقع على طول خط المواجهة وبانتشارهم لم تعد هناك إمكانية أمام حكومة البوسنة لاستعادة بوصة بالقوة من سراييفو يسيطر عليها الصرب كما حاولت أن تفعل في أواخر ديسمبر ١٩٩٣م .

ربما كان كل ذلك أمراً محتوماً . أوكما قال أويسون «إننا نخدع أنفسنا إذا تصورنا أن الناس يستطيعون العودة إلى مناطق الصرب» . لكن لم يؤكد هذا التقييم أي من الأمم المتحدة أو الحكومات الغربية الرئيسية المعنية بالبوسنة . ورغم مرور وقت طويل حتى تم إعلانه ، فإن الإنذار الأخير من الناتو للصرب وما حدث في سراييفو نتيجة له تم

تقديمه وبخاصة في الولايات المتحدة ـ ربما بسبب عاطفة النخبة ، تجاه البوسنيين أو لأن كلينتون وهو مرشح للرئاسة وعد برفع حظر السلاح ضد الحكومة البوسنية حيث كان الشعور بالفشل السابق عنيفاً ـ على أنه نصر عظيم. ولكن لم يكن الأمر كذلك مطلقاً. فقد أكد ما كانت القوى الكبرى قد قررته مسبقاً: إن الحل الوحيد للأزمة البوسنية هو التقسيم مع السماح للصرب بالاحتفاظ بقدر كبير من الأراضي التي احتلوها وطهروها عرقياً. ولم يكن سيتم عمل شيء مطلقاً من أجل سراييفو لو لم تواجه القوى الكبرى بأزمة علاقات عامة سببتها الصورة المتلفزة لمذبحة السوق في ٥ فبراير ١٩٩٤ مع جماهيرها. وكان الحد الأدنى هو الذي تم.

وقد اتضح عدم تغير العلاقات الأساسية في القوة بين الأمم المتحدة والناتو وبين الصرب بعد ذلك بشهرين، في إبريل ١٩٩٤ ، عندما شن جنرال ميلاديتش هجوماً على جيب غوراجده شرقي البوسنة. وكانت غوراجده أحد ثلاث جيوب لمقاومة حكومة البوسنة في وادي درينا ، وهي منطقة كانت تضم غالبية مسلمة قبل ١٩٩٢ .

وكانت المدن الأخرى في المنطقة ـ فوكا وكانيسي وبيلايينا وزفورنيك ـ قد تم أخذها في أوائل الحرب مع ممارسة التطهير العرقي بقسوة خاصة هناك. ولكن ظلت ثلاث مناطق، كل منها يتكون من مدينة رئيسية واحدة ـ سربرنيتشا وزيبا وغوراجده وسلسلة من القرى المحيطة مع حكومة البوسنة. وظلت المناطق الثلاث شوكة في حلق الجنرال ميلاديتش. ولم تتفق خطة إقامة صربيا الكبرى الممتدة من صربيا مروراً بالبوسنة إلى كرايينا مع وجود ثلاث مناطق بوسنية محتشدة بمقاتلين من رجال العصابات على درجة عالية من التدريب يقطعون خطوط اتصالاته شرقاً إلى كرواتيا وجنوباً على طول نهر درينا إلى الجبل الأسود والأدرياتيكي.

كان ميلاديتش قد تعامل مع سربرنيتشا في أوائل ١٩٩٣ حيث نشر عدداً من قواته ومدفعيته حول الجيب وبدأ في التقدم إلى الداخل في بطء. وكما كان يحدث دائماً فقد دمج ميلاديتش الفكر العسكري للجيش الوطني اليوغسلافي «وحلف وراسو» ـ الذي يمكن تلخيصه في عدم إرسال جندي مطلقاً حين يمكن إرسال طلقة أولاً ـ مع نزوع صرب البوسنة إلى جعل المستشفيات ومحطات معالجة المياه ومراكز اللاجئين

هدفاً لهم من أجل إحداث أكبر قدر من الرعب بين السكان. وسقطت قرية بعد أخرى حتى وصلت قوات ميلاديتش إلى مشارف سربرنتشا نفسها. وفي يوم محدد تم قتل ستين مدنياً في المدينة بينهم عدد كبير من الأطفال بنيران قذائف جيش صرب البوسنة. وعندئذ فقط أصدر مجلس الأمن قرار المناطق الآمنة. وبالرغم من الهجوم القصير الذي قام به في سربرنيتشا قائد قوة الحماية في البوسنة وقتها، جنرال فيليب موريون الذي وعد الناس هناك بأنه «لن أتركتكم أبداً» لكن بعد أسبوع عاد إلى سراييفو، فقد كان تأثير القرار الوحيد أن ظل وسط المدينة المشلول اقتصادياً في يد البوسنيين.

وكانت غوراجده تكراراً لسربتنشا، لكن هذه المرة مع عجز الدبلوماسي المميز أكاشي والعسكري الصلب روز عن فعل شيء لوقف الصرب أو لتقييم مقاصدهم بدقة. فقد أعلن الجنرال روز في ازدراء عند نقطة معينة وكأنه لم يسمع مطلقاً عن مثل هذا التكتيك من جانب كارادزيتش وميلاديتش: «لقد كذبوا علي. لن أثق في الصرب مرة ثانية» كذلك بدا أكاشي كما لو كان مذبوحاً بفأس. كما حدث ذلك أيضاً للمفاوض الروسي، وكيل وزارة الخارجية فيتالي شوركين، الذي كان حتى تلك اللحظة يدافع عن كل ما يفعله الصرب. ومع استمرار قصف غوراجده طالبت قوة الحماية بضربتين جويتين غير مؤثرتين وتراجعت بسرعة. ثم أعلن الناتو عن منطقة محظورة وبعد إحدى عشرة ساعة سحب الصرب معظم أسلحتهم الثقيلة وأعلن أكاشي وروز أن الأزمة قد انتهت.

ثم انهمكت قوة الحماية في إعادة كتابة ما حدث في غوراجده. ووفق قولهم فإن الحصار لم يكن بذلك السوء. فحينما كان أعضاء رئاسة روز يقاومون الضغط من اللجنة العليا للإغاثة لعمل شيء حيال غوراجده فإنهم أعلنوا أنهم يعتبرون مسؤولي اللجنة أناساً لا يعتمد عليهم وأن تقارير الرئيس الكندي لفريق المراقبين العسكريين للأمم المتحدة الرائد بات ستوجران عديمة القيمة كذلك لأنه يبدو أن الرائد قد انهار تحت الضغوط، كما قال أحد مساعدي روز للصحفيين، وحتى بعد توقف قصف غوراجده، استمر روز وجماعته في الإصرار على أن الأزمة كلها مبالغ فيها، في تقريره - و بعد زيارته الأولى لغوراجده بالطائرة، عقد الجنرال روز مؤتمراً صحفياً أصر فيه على أن كلاً من الدمار في المدينة وأعداد الخسائر في الأرواح مبالغ فيها جداً وقال

في غضب: «إننا نقوم بإجلاء الجنود الجرحى الذين يقفزون خارج مروحياتنا».

في الواقع، كان هياجه بسبب أنه اعتقد أن قوات حكومة البوسنة استدرجت أحد جنود قوات الطيران الخاصة البريطانية، والتي تقوم بتنظيم الطيران المتقدم وذلك بدعوته إلى أحد مواقعهم وأطلقوا النار على الصرب وتركوا الضابط البريطاني ليقتل من الضرب المضاد. وعلى أي حال، يُقال إن روز كان يعتقد بينه وبين نفسه بأن مذبحة السوق في سراييفو كانت في الواقع إحدى حالات قصف البوسنيين لأنفسهم بالمورتار. وكان مساعدوه يخبرون الصحفيين الزائرين بذلك على وعد بعدم النشر طبعاً. ولكن اللجنة الدولية للصليب الأحمر وكذلك اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة والتي كان لها مسؤولون دوليون في غوراجده أثناء وبعد القصف أنكرتا تقرير روز بكل وضوح. فقد قال بيتر كيسلر من اللجنة العليا للإغاثة والذي أمضى سنة في يوغسلافيا السابقة مقابل كل شهر أمضاه روز هناك: «إننا نواجه كارثة إنسانية هنا».

وفي تلك الأثناء، أوضح صرب البوسنة أنه فيما يخصهم فإن كل ما يطلبه إنذار الناتو منهم هو وقف قصف غوراجده وسحب معظم أسلحتهم الثقيلة. وبعد أيام قليلة من افتراض سحبهم لجميع رجالهم وجميع آلياتهم كما طُلب منهم بدأ صرب البوسنة مرة ثانية في تحريك قواتهم إلى مسافة أقرب من وسط المدينة. ثم أرسلوا مجموعة من لاجئي صرب البوسنة بمرافقة جنود من جيش صرب البوسنة في زي رجال الشرطة الأزرق. وأصر كارديزيتش في تكرار سخيف لتصريحاته عن سراييفو نفسها قائلاً: «إننا لن نسلم مطلقاً الجزء الصربي من غوراجده». وفي بادىء الأمر أنكرت الأمم المتحدة التقارير عن وجود جنود ومستوطنين في المدينة. حيث قال الجنرال روز «إننا لن ندخل حرباً لأن الصرب تركوا دبابة صدئة في مكان ما» ثم اعترفت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن «قليلاً» من الصرب ربما لا يزالون داخل المنطقة المحظورة. وفي نهاية الأمر، وعندما لم يكن من الممكن المضي في إنكار تقارير أفراد قوة الحماية، اعترف الجنرال روز أنه توجد «مشاكل» في غوراجده. وبالطبع فإن الحقيقة تمثلت في أن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لم تكن عاجزة فقط، بل في أنه بعد كل ما حدث ظل أكاشي وروز يفضلان ذلك على القتال. كان الصرب يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون مع قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، فهم لن يحاولوا التدخل ولا

حتى نفخ الصافرة ما لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وكان أحد الأشياء التي يحب مسؤولو الأمم المتحدة أن يحدثو الزائرين عنها أن كل شخص في يوغسلافيا السابقة يكذب . وربما كانوا على صواب في ذلك . ولكن للذين شاهدوا القتل في البوسنة ، بدا غالباً وكأن مسؤولي الأمم المتحدة أنفسهم هم أكبر الكذابين جميعاً . فمن خلال التغطية «بورقة التوت» الإنسانية على ما كان يحدث حقيقة في البوسنة وبالتظاهر بأن اهتماماتهم لم تكن تلك الاهتمامات الضيقة الأفق لمنظمة مفلسة أخلاقياً وعقلياً أجبرها مجلس الأمن على تولي مهمة كانت غير قادرة على القيام بأعبائها بشرف ، فإن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وإدارة عمليات حفظ السلام أصبحتا مشاركتين في الإبادة الجماعية . وكما قالوا فإنهم كانوا فقط يتبعون تفويضهم . وكان لهذا رنين جميل . فهل استطاعوا أن يسمعوا صدى لجملة مشابهة صدرت منذ نصف قرن مضى ، اختلفت فقط في استبدال كلمة «أوامر» بكلمة «تفويض»؟ لكن ربما كان مسؤولو الأمم المتحدة على حق ، فربما كانت كل الأطراف في الصراع تكذب . على أن ما كان فاحشاً في تلك الأكاذيب الصادرة الأمم المتحدة ـ بالنسبة لنفسها كما للعالم كله ـ أنهم صدقوا أنفسهم وهم يتفوهون بها . كانوا يعتقدون أنهم الإنسانيون ، وكانوا يعتقدون أنهم حافظو للسلام .

الفصل التاسع

استرد العالم شرفه في البوسنة من خلال أولئك الذين يعملون في «منظمات الإغاثة غير الحكومية» واللجنة الدولية للصليب الأحمر ومكتب المفوضية العليا للاجئين بالأمم المتحدة. لقد عملوا هناك بدون أي جدول أعمال سري ورفضوا بشدة القبول بفكرة أن مصالح الدول الكبرى التي تمولهم تجبرهم على تنفيذ جداول الأعمال السياسية لتلك القوى. وإذا كانت المنظمات غير الحكومية قد حاولت أن تتصرف بحيادية فإنها لم تفعل ذلك بروح قوة الحماية الدولية التي تتظاهر بأنه من الممكن وحتى من المفضل المحافظة على «توازن» بين القتلة وضحاياهم، وعند الاستطاعة تعزيز العلاقات معهم. فلم يتفاخر روني برومان، أحد مؤسسي المنظمة الفرنسية غير الحكومية MSF «أطباء بلا حدود» بأنه كون علاقة شخصية طيبة مع رادوفان كارادزيتش، كما لم يفعل ذلك برنارد كوشنر، وزير الشؤون الإنسانية السابق في عهد فرانسوا ميتران والذي برغم اشتراكهما في تأسيس MSF معاً، لم يكن على وفاق معه.

فبالنسبة لهم، ولمعظم الناس في المنظمات الأخرى غير الحكومية العاملة في البوسنة، كان الالتزام بالمساعدة والتزام العدالة في لب الأمور وليس التظاهر بحيادية كان أساسها موجوداً في لعبة السياسة وخيال البيروقراطيين فقط. وعلى أدنى تقدير، يمكن القول إنه بالتمسك بتلك المبادىء (حتى، في وضع كوشنر، المطالب بالتدخل العسكري على أسس إنسانية ومن أجل وقف التطهير العرقي) لم تحقق تلك المنظمات أقل مما كانوا سيحققون لو أنهم اختاروا طريق الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة.

ومهما تسبب أسلوبهم في تكرار دخولهم في صراع مع قوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة، فقد خرجت تلك الجماعات من محنة البوسنة دون أن تصبح شريكة غافلة في الإبادة الجماعية.

أما عن مسؤولي قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة والذين كان كثير منهم يكنون احتراماً كبيراً بصفة شخصية لما أنجزته المنظمات غير الحكومية في كرواتيا والبوسنة،

فعادة ما كانوا يلصقون أساليبهم المختلفة بمتطلبات تفويض كل منهم . قال لي موظف في الشؤون المدنية في زغرب «لدى مسؤولي هذه المنظمات حرية قول أشياء لا نستطيع نحن أن نقولها ونحن سعداء بالتعاون معهم حيثما نستطيع ليس للعمل الطيب الذي يقوم به معظمهم ولكن لأن شخصاً ما هنا عليه أن يقول تلك الأشياء . أما إذا قالتها قوة الحماية فستنتهي مهمتنا هنا ، وبسرعة كما أتصور. جميل وجميل جداً أنت تتحدث عن وقوفك في المواجهة ولكن تصور أن ذلك هو الخط الذي التزمناه وأن النتيجة ستكون طردنا فهل سيحسن ذلك من الوضع في البوسنة؟ الحقيقة أنكم أيها الصحفيون ستكونون أول من يصرخ فينا للعودة» ، واستطرد قائلاً : «لم نقصر في تطبيق التفويض رغم أنني على علم أكيد بالاختلاف بين التفويض والحل . أنتم الصحفيون تدأبون على مطالبتنا بأن نبدي صلابة أشد وكذلك يفعل كثير من رجال تلك المنظمات . ولكننا نقف بالفعل على أعتاب المخاطرة . وأخذ طريق بالقوة بينما نقوم بتوفير المساعدة الإنسانية يظل دائماً الأسلوب الخاطيء . فازدواجهما أمر قاصر» . وتوقف ثم قال : «انظر، أياً كان تصورك ، فلدى بعض منا أقوى الشكوك الأخلاقية فيما يفعله هنا وما إذا كان علينا في الواقع أن نبقى . ولكن رجاء لا تلق بالمسؤولية على الأمم المتحدة . ولا تستمر كما يفعل معظم الصحفيين للأسف في قصر اللوم علينا . فنحن منظمة ملتزمة بالسلام . وهذا هو دورنا كما أن للمنظمات غير الحكومية دورها ولكم في الصحافة دوركم» .

كانت كلماته تمثل توتراً معيناً في تفكير الأمم المتحدة ، شديد الرفض ولكنه مصدوم نوعاً من الموقف الناقد في عنف تجاه عملية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . وكما قال مسؤول رفيع في الأمم المتحدة في رسالة غير موقعة لمجلة الشؤون الأجنبية (Foreign Affairs) من أن تصميم الصحافة على إثارة التدخل لصالح حكومة البوسنة «يغري ببعض الالتزام الشخصي ــ الجهادي في الواقع ـ الذي لا يتفق مع الإبقاء على المعايير المهنية الحقيقية» . إن من الأمور المثيرة للجدل ما إذا كان من حق مسؤول في الأمم المتحدة ، وهي منظمةلديها في الأصل كل الشفافية والانفتاح أمام تحقيقات الصحافة شأن الفاتيكان أو الجيش الأحمر السابق ، أن يتكلم في تعالٍ عن الواجب والتقصير في الواجب من الصحافة . كذلك كان أكثر تشويقاً افتراض الكاتب أنه لم يكن للأمم المتحدة دور فيما أسماه «تفكيك بالقوة لمجتمع متعدد إلى

دويلات عرقية أحادية» وهو عمل اعتبره في آخر للرسالة «معاد للقيم الديمقراطية المتفق عليها». لكن ما كانت الصحافة غاضبة بشأنه لم يكن فشل الأمم المتحدة في مساندة القيم الديمقراطية، بل فشلها في معارضة الإبادة الجماعية. وقد فهم ممثلو قوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة ذلك تماماً ولكنهم نادراً ما كانوا يرغبون في قول ذلك بصراحة. وللغرابة، فقد كان الاستثناء من ذلك هو سيدريك ثورنبيري الذي كان رئيساً للشؤون المدنية لقوة الحماية في يوغسلافيا السابقة عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣. ففي خطاب ألقاه في ستوكهولم قال: «لقد اتهمنا بصفة أساسية بعدم الالتزام في وجه نوع جديد من الهولوكوست. . . وإذا كانت الأمم المتحدة متواجدة عندما تحدث بعض الأهوال، فيمكن إلقاء اللوم علينا». ورغم إصرار ثورنبيري على أن المهمة كانت ناجحة وفق شروطها، فعلى الأقل سلم بأنهم يستحقون اللوم بمعنى ما له أهميته، حيث قال: «إن وسائل الإعلام، وهي ترانا رمزاً للمجتمع الدولي، تلوم شعوب وحكومات العالم لما تراه على أنه إخفاقها في التعامل باهتمام أكبر مع وضع صدم أوربا وأذهلها في نهاية القرن العشرين».

كان ذلك صحيحاً على قدر ما وصلت إليه الأحداث. فقد كانت الأمم المتحدة تعطي المجتمع الدولي ورقة التوت التي تستر عدم قدرة بعض دوله، مثل الولايات المتحدة، على شحذ الإرادة للعمل وفشل البعض الآخر، مثل بريطانيا وفرنسا، في أن تكون صريحة مع شعوبها حول قرارها بالسماح للقاتل في البوسنة بالتمادي في أفعاله. ولكن المحير في موقف المسؤولين داخل قوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة هو قدرتهم على تصديق أنهم يستطيعون، بعد أن قدموا أنفسهم ستاراً للقوى العظمى، أن يظلوا خارج دائرة الشك والريبة أخلاقياً عما فعلوا. ففي نفس حديثه أوضح ثورنبيري نهج الأمم المتحدة المعتاد في أن «أياً من كانوا المجرمين الأساسيين فالآن ليست هناك أطراف بريئة في سراييفو أو البوسنة وما يلزم أن نحفظه في عقولنا هو أن الوحشية تحط من قدر جميع المتأثرين بها».

ولكن يبدو أن الهيئة العليا في قوة الحماية أو في قسم عمليات حفظ السلام لم تنزعج من أن ذلك الموضوع عن الفظائع التي ارتكبها الطرف البوسني (أو ما أسماه الجنرال موريون «الطرف المسلم») والذي بكل إصرار، يمكن أن ينطبق عليهم لذلك. فلم يكن الأمر ببساطة، كما تصور أغلبهم، أن الصحافة تتهمهم ظلماً بديلاً عن

القوى الكبرى في الجرائم التي يجب أن تلقى على أعتابهم أو أنها كانت تدعو للتدخل عن غير وعي بحيث لاتدرك إنجازات قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة. بل إن ما ظل يصدم الكثيرين في الصحافة هو عجز الأمم المتحدة عن رؤية مدى خطئها أخلاقياً من دوام اختيار التوسط بين القتلة والمغتصبين وبين أولئك الذين عانوا على أيديهم ليس في البداية فقط بل بعد وقت طويل من معرفة الجميع أن القتلة والمغتصبين خططوا للاستمرار في القتل والاغتصاب برغم كل الوعود التي قطعوها على أنفسهم. ومثلما اعتقد سيدريك ثورنبيري، بحق وليس عن خطأ، من أن كثيرين في الطرف البوسني امتهنوا في القتال، فإن كثيراً منا ممن غطوا المذبحة سرعان ما استنتجوا أن الأمم المتحدة امتهنت بما يتطلبه التفويض فيما يتعلق بما تفعله وما لا تفعله.

وأعتقد أنه بسبب حضور كثير من أهل الصحافة إلى البلقان ولديهم توقير للأمم المتحدة كمؤسسة وكنموذج أكثر مما كان لدى المؤسسة نفسها، تعاظم غضبنا وامتعاضنا من كيفية إدارتها لعملياتها. وكما قال لي مسؤول رفيع في الأمم المتحدة فإن ذلك كان بالفعل حالة من الافتتان «من بعيد». ولكن سواء أراد مسؤولو الأمم المتحدة أم لا، فقد كانوا يمثلون مؤسسة تصور كثير منا أنها أداة لإرادة مجلس الأمن أو محصلة ممارسات مؤسساته وأنماطه البيروقراطية. وقد لا تكون الأمم المتحدة حكومة العالم بعد ولكن كان يفترض على الأقل في وضع متطرف كالإبادة الجماعية، أن تعمل باسم الإنسانية، وكذلك باسم حماية المصالح الاستراتيجية لدولها الأعضاء. فلو كانت قوة الحماية وإدارة عمليات حفظ السلام قد اختارت تفسير التفويض لها بهذه النظرة الضيقة، فمن المؤكد أن لذلك صلة بتخلي بطرس بطرس غالي عن التزامه بالدفاع عن المبادىء الأخلاقية التي يفترض أن تمثلها الأمم المتحدة تماماً كما تلتزم بما كان الأعضاء الدائمون الخمسة يرغبون أو لا يرغبون في تخويل قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة القيام به.

إن الغضب من الأمم المتحدة الذي أثاره هذا التخاذل الأخلاقي لدى عدد كبير من الصحفيين على الأقل ــ وليس بشكل طبيعي كما تصور مسؤولو الأمم المتحدة غالباً ــ كان في الواقع وضعاً غير مريح بالنسبة لهم من الناحية المهنية. وبالنسبة لي شخصياً، فإنني أعرف أنني وصلت إلى البوسنة وقد قاومت دائماً مطالبات بأن أكون

صـاحـب موقـف ساخط من قضيـة أو أخـرى . فقد كنـت أعتقد أن السخط عـدو للفهم ـ لو استخدمنا كلمة عبية كثيراً لدى مسؤولي الأمم المتحدة في نيو يورك ـ حيث إنه في نهاية الأمر تكون المعلومات ناتجة عن قراءة عاطفية ومبتسرة للأحداث . ولست أدري ما رأيي الآن ، وبـالطبع ، هناك معنى يمكـن أن يفهم في ضوئه التاريـخ كله ، وليس فقط تـاريخ البلقـان ، على أنـه تـاريخ للمـذابح . ولكن في البـوسنة لم يكن ضروريا ان يستمر القتل إلى ما لانهاية . فقد كان في إمكان القوى الكبرى ان توقفه . وكان جميع الاعضاء الرئيسيين في سكرتاريـة الامم المتحدة وبخاصة السكرتير العام نفسه ، يستطيعون القيام بحملة لوضع حد له بـدلاً من عمل كل ما في استطاعتهم لتسهيل عدم التدخل .

كان الصحفيـون الذين سافـرت معهم الى البوسنة على جلتهم اكثـر مني شكا . فبالنسبـة لمعظهم لم يكن ذلك اول تعرض لهم على احوال حرب داخليـة . ومع ذلك فسرعان ما أصبحوا وظلوا ، رجالا ونساء ، ساخطين على ما شاهدوه في البوسنة وعلى دور الامم المتحـدة فيهـا . ولو انهم «اصبحـوا مـواطنين» ، كما اعتاد مسئولـو الامم المتحدة وبعض زملائهم هناك في أمريكا ان يتندروا ، لما استشعروا الندم . وقد كتب جـون سويني مـراسل الاوبـزيرفـر اللنـدنية حـول ذلك يقـول : «بالنسبـة لكثير من الصـحفيين كـانت اللحظـة الحاسمة عنـدمـا اخبر متحـدث للامم المتحـدة مؤتمرا صحفيا انه قد تم الاتفاق على وقف لاطلاق النار وأراد ان يشكر الصرب على تعاونهم وفي اللحظة التالية انبطح الجميع على الارض بفعل ضربات المدفعية الصربية» .

أن مثل تلك القصص اسـوء من ان تعرف فقـد كـانت شيئا مألـوفا . كـانت تمر اوقات يبـدو فيها وكأن شعـار قوة الحمايـة التابعـة للامم المتحـدة ينبغي ان يقرأ على النحـو التـالي : « العمل من اجـل استسـلام البوسنيين» . فبعـد كل شيء ، ألم يكن الاستسلام من جانب حكومة البوسنـة هو أضمن طريق الى السلام؟ هكذا اعتقدت الامم المتحـدة مهما ليست مسوح الانسـانية . على أن المظهـر العام لما بـدا أنه محاولـة منظمة من جانب قوة الحماية والممثل الخاص للأمم المتحدة للتقليل من حجم جرائم الصرب (سـواء بالتغطيـة على المدى الكـامل لما كـان يفعلـه الصرب أو ببذل الجهـد لتوضيح أن جميع الأطراف تتصرف بشكل إجرامي) يصبح أكثر تهذيبا بالتبرير المبطن بأن كل مايتم علمه هومن أجل إعطاء فرص أكثر للسلام وأنه يتم بتكليف من القوى

العظمى . وقد ظلت الأمم المتحدة تقول أن الموقف لم يكن من صنعها ، وكأن ذلك كان تبريرا أو كأن الجرائم الكبيرة ليس فيها أبد سوى شركاء واعين .

من وقت لآخر ، يعترف مسئول في الأمم المتحدة ، بشرط عدم النشر بالطبع ، بالشعور بقدر معين من عدم الارتياح للدور التي «أجبرت» قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة على أن تلعبه في البوسنة ولكنه عند ذلك عادة مايضيف أو تضيف أن الأمم المتحدةلم تكن تستطيع أن تفعل مانفعله الصحافة ولم تكن تستطيع ان تفعل ما تفعله المنظمات غير الحكومية . وقد يبدو ذلك مقنعا إلى أن نتذكر أنه كان هناك في الواقع منظمة اخرى تابعة للأمم المتحدة في البوسنة أثبتتا وجود طرق أخرى لتفسير التفويض . فقد عمل مفوض الأمم المتحدة للاجئين على أساس أخلاقي مخالف لقوة الحماية والممثل الخاص للأمم المتحدة . فمع استثناءات قليلة ، رفض مسئولو المفوضية القبول بفكرة أن هناك أمورا قليلة يمكنهم عملها عندما يكون كل شيء آخر خارج حدود قدرتهم . ولم تتخفى اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة خلف نصوص تشريعية في التفويض ولاهي إدعت ، كما فعلت إدارة عمليات حفظ السلام ومسئولو قوة الحماية التابعين للأمم المتحدة ، بأنها بسبب عدم تعرضها مسبقا لموقف مثل البوسنة فقد كان فشلها هناك خطأ من المجتمع الدولي .

بل على العكس ، فإن مسؤولي اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة ، دوليين ومحليين على السواء ، حاربوا وارتجلوا ، وفي موقف مستحيل لم تكن له سابقة ، ومرة بعد اخرى انتزعوا ما يشبه المعجزة . وحسب قواعد الأمم المتحدة المقررة فإن معظم الأماكن التي عملت فيها اللجنة العليا للإغاثة بشكل روتيني في البوسنة كانت من الخطورة بحيث يصعب العمل فيها . ومع ذلك فقد بقيت اللجنة على أي حال . وسواء مع او بدون مرافقة عسكرية ، كان سائقوا قوافلهم يندفعون بالمساعدات متجاوزين لمجرمين همج عند نقاط التفتيش ، وغالبا تحت وابل النيران . وعلى عكس العربات لدى قوة الحماية فإن معظم عربات اللجنة العليا للإغاثة كانت غير مصفحة . والأمثلة على الشجاعة الشخصية للهيئة الدولية كانت من الكثرة بحيث بدأ أفراد اللجنة العليا انفسهم يعتبرونها أمرا مسلماً به . فقد أصبح شيئا عادياً أن يقوم مارك فاشون ، وهو ضابط شاب للإمدادات الفرنسية الكندية في مطار سراييفو في خريف ١٩٩٢ وشتاء ١٩٩٣ ، بقيادة شاحنة وقود خفيفة الهيكل عبر

خطوط الحصار في وقت كان أفراد قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لا يغامرون مطلقاً بالخروج الا في عربات مصفحة. وكان كل ما قاله «إن هذه الحرب ترفع نسبة الادرينالين في دمك». وإذا قاد ضباط «حماية» لجنة الإغاثة، كما كان يطلق عليهم، مثل بير أوليير وفيليبوس بافيليبو في بانيا لوكا السيارة وحدهم غير مسلحين إلى بريبودور ليطلبوا من العمدة هناك فعل شيء لوقف التطهير العرقي -وهي رحلة عرضتهم للقتل مرات كثيرة- فإن ذلك يعتبر جزءاً من عملهم. وقد أصر رئيس اللجنة العليا للإغاثة في الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة خوزيه ماريا مانديلوس ذات مرة في نبرة عاطفية: «اذا كانوا يريدون بيع الأحذية لكان عليهم في هذه الحالة أن يظلوا في ريو او نيويورك أو باريس». وكان هذا هو نفس إعتقاد مرءوس مانديلوس.

لم يكن في تاريخ اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة مايوحي بأنها ستتصرف بشكل خاص في يوغسلافيا السابقة بتلك الطريقة غير العادية التي عملت بها. لقد أنشئت اللجنة عام ١٩٥١ خلفا للجنة العليا للاجئين التابعة لعصبة الامم والمنظمة الدولية للاجئين الناشئة التابعة للأمم المتحدة IRO. وكان «التفويض» لها أن تقدم الحماية الدولية للاجئين وللأشخاص الذين شردوا داخل دولتهم أو الذين هربوا عبر حدود دولتهم. وبالإضافة إلى حماية اللاجئين أينما كانوا كرست اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة جهودها لإعادة توطينهم، وإذا أمكن، يعيدونهم إلى وطنهم بعد أن تخف الأزمة التي تسببت في هروبهم في المقام الأول. وكل عام كانت مهمة اللجنة العليا للإغاثة تزداد صعوبة مع تضخم أعداد اللاجئين وبعد تقلص رغبة دول أخرى في قبولهم. ففي عام ١٩٧٠ كان يقدر عددهم بحوالي مليونين ونصف لاجيء في العالم. وفي عام ١٩٨٠ أصبح أحد عشر مليوناً ثم صار تسعة عشر مليونا عام ١٩٩٣.

كانت تلك الأعداد تشمل فقط أولئك الذين عبروا حدوداً سياسية بسبب تهديد سياسي واضح، أما الرقم الخاص بمن يسمون «المشردين داخلياً»-أشخاص تعتقد اللجنة العليا للإغاثة بحاجتهم لنفس الحماية والمساعدة التي تقدم للاجئين، ولكن أملهم ضعيف في الوصول إلى دولة أخرى حيث يجدون مأوى- فيصل إلى اربعة وعشرين مليونا. ولا يتضمن ذلك ما يقدر بمائة مليون من الأشخاص الذين

يتحركون بإستمرار بحثاً عن مستقبل مريح لهم ولأسرهم والذين عادة ما يصنفون على أنهم «مهاجرون اقتصاديا». وكما قالت المفوضة العيا للاجئين، ساداكو أوجاتا، في تقريرها عام ١٩٩٣: «في عالم يظل فيه الاضطهاد وانتهاك حقوق الإنسان بالجملة والصراع المسلح هو الخبز اليومي فإن مأساة اللاجئين تتزايد عن أي وقت مضى»، ثم تضيف «إن الحجم الحالي وطبيعة مشكلة اللاجئين ومحدودية القدرة الأستيعابية للدول المضيفة يعني أن طرق الحماية التقليدية لم تعد كافية ويجب إستكمالها بأساليب مرنة تتناسب مع فترة الإنتقال الحالية والجيشان الحاصل في الشئون العالمية».

وبالرغم من أن اوجاتا لم توضح ذلك في تقريرها فقد كانت قبل كل شيء خبرة اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة هي التي جعلتها تدرك كيف أن الطرق القديمة التي ذكرت في كتيب عمليات اللجنة العليا للأغاثة والمسمى «الكتاب الأزرق» أصبحت غير صالحة. وقد سمعت أوجاتا تعلق مراراً أنها ليست في الواقع المفوضة العليا للاجئين بل موظفة على مكتب في يوغسلافيا السابقة. وقلقها مفهوم فحتى عام ١٩٩٣، كانت عمليات اللجنة العليا للأغاثة التابعة للأمم المتحدة في البلقان تستهلك ما يقرب من نصف ميزانيتها السنوية وتستخدم عدداً ضخماً من هيئة موظفيها الدولية المدربة. فكان يتم إحضار الأشخاص من معسكرات اللاجئين في شرق آسيا وجهود إعادة التوطين في مالاوي والعمل مع الباحثين عن ملاجيء لهم في أوروبا الغربية وذلك للعمل في البوسنة وكرواتيا وصربيا. كانت النكتة الشائعة في مقر رئاسة اللجنة العليا للإغاثة في جنيف أن الأشخاص العائدين من يوغسلافيا يكاد يهاجمهم زملاؤهم في الأماكن الأخرى مغتاظين من الطريقة التي تلتهم بها هذه العملية في يوغوسلافيا السابقة مصادر المنظمة في الوقت الذي يتعرضون فيه باستمرار لوابل النيران في البوسنة. لقد بدأت اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة تعاني مع اتساع نشاطها من ضيق مالي شديد قبل أن تبدأ أزمة يوغسلافيا. وكما أثبتت أزمة لاجئين أخرى على طول حدود رواندا مع تنزانيا وزائير في ربيع وصيف ١٩٩٤ - حيث تم وفي يوم واحد اجلاء ١٥٠ ألف شخص جوا وفي اسابيع قليلة عدة ملايين وهو اكبر عدد يهرب في مثل هذه المدة القصيرة- فقد بدا أن اللجنة العليا لا تستطيع أن تركز كل اهتمامها وأفضل رجالها على البلقان.

ومع ذلك كانت مهمة اللجنة العليا للإغاثة في يوغسلافيا السابقة ، بمعنى ما ، مكافأة كان قادة المنظمة ممتنين للإستغناء عنها ، وذلك لنجاحهم في عمليتها الحديثة الشهيرة والمتمثلة جهود الإغاثة في كردستان في أعقاب حرب الخليج . وكما لجأ مجلس الأمن لقوة حفظ السلام في كل من الصومال والبوسنة جزئيا على الأقل بسبب التقدير المغالى فيه بعد الحرب الباردة لما يمكن ان تقوم به فعليا تلك القوات فقد ختارت سكرتارية الأمم المتحدة اللجنة العليا للإغاثة لكي تكون الوكالة القائدة في يوغسلافيا السابقة بسبب ما استطاعت عمله في كردستان . وكانت التعليمات الموجهة للجنة العليا للإغاثة في البلقان عمومية وغير دقيقة . وإلى أن تم تعيين ياسوشي أكاشي ممثلاً خاصا للسكرتير العام ، كان الممثل الخاص لساداكو أوجاتا في زغرب هو أعلى مسئولي الأمم المتحدة في المنطقة -رغم أن رئاسة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في المدينة لم تر الأمر بنفس الطريقة . إن مجرد إتخاذ مثل هذا القرار -أي أن تكلف وكالة إنسانية محنكة في التعامل مع إحتياجات اللاجئين بمهمة الوكالة القائدة لرد فعل الأمم المتحدة إزاء أول حرب في أوروبا في نصف قرن- كان إشارة مبكرة إلى تقاعس الأمم المتحدة عن مواجهة ما كان يحدث حقيقة في البوسنة . إن ما كان يحدث هو في الأساس حرب ، عملية إبادة جماعية وليست كارثة إنسانية في أساسها . ومع ذلك فكما قال أحد مسئولي منظمة غير حكومية : «الفترة طويلة ظل العالم يثرثر ويثرثر ولكن الحقيقة هي انه رغم الدواعي العملية فإن اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة كانت المؤسسة الدولية الوحيدة التي تفعل شيئا على أرض الواقع لوضع جميع المشاعر الطيبة في حيز التنفيذ . فقد بذلوا أقصى الجهد وإنها لمأساة أن تكون جهودهم هي كل ما يستطيع أن يحشده العالم . فالطريق لوقف الإبادة الجماعية ليس بأن تقيم مستشفى ميدانياً لأولئك المحظوظين بالنجاة منها» .

وبالرغم من مهارتهم وتفانيهم في التعامل مع آثار الحرب ، فإن معظم مسئولي اللجنة العليا للإغاثة الذين أرسلوا إلى البوسنة كانوا يعرفون القليل عن الحرب نفسها . ولم يكن ذلك ببساطة لأن كثيرين منهم قضوا حياتهم المهنية يرتبون طلبات اللجوء للاجئين في أوروبا أو يديرون معسكرات للاجئين في أفريقيا وشرق آسيا . بل لأنه لم يكن لدى أي شخص في اللجنة العليا للإغاثة أي خبرة في توفير المساعدات أثناء الحرب . ومع ذلك فقد كان ذلك بالضبط ما تم حشدهم من اجل القيام به-

في كرواتيا أولاً، ثم في البوسنة. وكما ذكر فريد كاني، الذي أتى إلى البوسنة ولديه خبرة في توفير المساعدات الإنسانية وقت الحرب ربما فاقت خبرات ذوي المناصب في اللجنة العليا للإغاثة مجتمعين: «كانت جميع وكالات الأمم المتحدة تفتقر إلى كل من المبدأ العملياتي والخبرة العملياتية التي تسمح لهم بالخروج بخطة متكاملة في البوسنة. فلم تكن هناك مطلقاً خطة متكاملة في جنيف أو نيويورك كمفهوم لما كانوا يريدون تحقيقه. ونتيجة لذلك، فإن وكالة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة كانت تعمل كرد فعل للأحداث وليس لمحاولة تشكيلها».

بعد قليل من بدء العمل في يوغسلافيا السابقة ادرك كبار مسئولي اللجنة العليا للاغاثة المعنيين أنه رغم إمكان ضم كل من كردستان والبوسنة لتمثل «جيلاتانيا» للجهود الإنسانية، فلم يكن هناك عامل مشترك في الواقع بين العمليتين. فقد تم نشر اللجنة العليا للأغاثة في كردستان في نهاية حرب الخليج بعد أن هرب نصف مليون تقريباً من الأكراد من جيش صدام حسين. وأعلنت الأمم المتحدة منطقة عسكرية محظورة شمال خط ٣٨ وتعهدت بتطبيق ذلك عسكريا وأنيطت مهمة التعامل مع الأكراد داخل المنطقة بلجنة عليا للإغاثة متكاسلة من الأساس. وفي أول الأمر، ورغم حقيقة أن الاكراد كانوا يموتون بالمئات على طول التلال فإن مسئول اللجنة العليا للإغاثة في كردستان، وهو أسترالي يدعو نيكولاس موريس، كان يناضل للتأكيد على أن مساعدة المطرودين في منطقة حرب ليسوا مشمولين في تفويض اللجنة العليا للإغاثة. ولكن تحت ضغط شديد من الأمريكيين، تولت اللجنة العليا للإغاثة مهمة توفير الإغاثة الإنسانية، ولدهشة الكثيرين، وفي المنظمة نفسها، كانت المجهودات ناجحة إلى حد كبير.

إن تجربة إمكان توفير المساعدات وسط الحرب ربما أوحت بإمكان القيام بعملية مشابهة بها في البوسنة. وعلى أي حال، فإن جعل اللجنة العليا للاغاثة الوكالة القائدة كان تقريبا السبيل الوحيد المتاح أمام سكرتارية الأمم المتحدة والاعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن، عندما اصبح واضحا أن مجلس الأمن لن يسمح بتدخل عسكري كما حدث في العراق. كان الشعور، أو على الاقل الأمل، أن تمكن تجربة كردستان اللجنة العليا للإغاثة من القيام بالمجهود الانساني الرئيسي المطلوب في يوغسلافيا السابقة. وفوق كل ذلك، كان يجب أن يظهر وكأن القوى الكبرى تعمل

شيئا. فإذا كان كل المقصود، موضوعيا، هو محاولة تخفيف آثار المذبحة التي كانوا غير قادرين على حشد الإرادة السياسية لوقفها، فلم يكن ذلك مزعجا لقادة دول حلف الناتو. وفي داخل السكرتارية كانت النظرة أكثر إتزانا. وكان خيار اللجنة العليا للإغاثة أقل لأن مسئولي الأمم المتحدة إعتقدوا أن هناك فرصة كبيرة لنجاحها أكثر مما كان بسبب الشعور بأنها المنظمة الوحيدة التي تواجه حتى ولو فرصة ضئيلة للنجاح.

ووفي الحقيقة، كانت اللجنة العليا للإغاثة أقل استعدادا للمهمة مما تصور أحد. وعندما أدرك جوزيه ماريا منديلوس، الدبلوماسي الأسباني الذي خدم لسنوات في امريكا الوسطى ثم إصبح القيادي الثاني في اللجنة العليا للاغاثة التابعة للأمم المتحدة في كردستان قبل أن يأتي إلى يوغسلافيا السابقة، حقيقة ما يحدث في البوسنة عندما جاء ممثلا خاصا للمفوضة العليا أوجاتا، فقد فهم على الفور ان الدروس التي أخذتها اللجنة العليا للإغاثة في الشرق الأوسط لن تنفع في البلقان. وقال لرجاله في تلك «الخلطة» من الفرح والاكتئاب التي غالبا ما تحركه «مهما فعلنا فسنضطر إلى أن نلقي بالكتاب الأزرق جانبا». وكانت تلك عبارة قال معاونوه أنه يحب تكرارها لمعظم الضباط الميدانيين الجدد في اللجنة العليا للاغاثة بمجرد اللقاء معهم. وأصر منديلوس على تأكيد أنه لن يضطر الناس إلى تنحية جنيف من عقولهم فحسب بل إن عليهم أن ينحوا كردستان عنها كذلك. ففي يوغسلافيا السابقة عليهم أن يتكسروا أشياء خلال عملهم. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. وكان منديلوس يحب أن يقول «كانت كردستان صعبة ولكن كردستان مجرد حفلة شاي إذا ما قورنت بما نواجهه هنا».

جاء أول تعرض لمنديلوس لحقائق التطهير العرقي. بمحض الصدفة. ففي أوائل ربيع ١٩٩٢ كان عائدا بالسيارة من مكتبه في سراييفو (فمثلما كانت تفعل قوة الحماية، أدارت اللجنة العليا للاغاثة عملياتها أثناء الحرب الصرب كرواتية من العاصمة البوسنية المفترض حيادها) بعد اجتماع في بلجراد. وبالمصادفة وصل إلى مدينة زفورنيك على جانب البوسني لنهر درينا، في نفس اللحظة التي كانت تجتاحها وحدة صربية غير نظامية معروفة بالنسور البيضاء.

استعاد المنظر في رعدة: «رأيت أطفالا تحت جنازير الدبابات وضعهم تحتها رجال بالغون ثم تدوس عليهم بواسطة رجال آخرين. وفي كل مكان كان الناس يطلقون أسلحتهم وكان المحاربون يتحركون في أنحاء المدينة يقتلون بأسلوب مدروس كل المسلمين الذين تقع عليهم أيديهم. بالتأكيد كان وراء ذلك نوع من الشحن المسموم. فقد كان الإعلام الصربي يصدر التقارير عن المسلمين الذين يقومون بطرد الصرب من زفورنيك وعن الأعمال الوحشية التي ارتكبت هناك.

ورغم أن هذا قد يكون صحيحاً في بعض الأحيان، فعادة ما يكون هؤلاء الصرب مدفوعين إلى عمل ذلك من قادتهم المحليين.

وعلى أي حال فإن الصرب الذين قاموا بالتقتيل في ذلك اليوم لم يأتوا من زفورنيك. فهذه الأزمة لم تبدأ كحرب بين الصرب والمسلمين بل كانت حرباً بين قوميين متعصبين. كانت لهؤلاء الناس استراتيجية محكمة والهدف كله إيقاع أكبر قدر ممكن من الرعب بين السكان المدنيين وتدمير قدر ما يستطيعونه من الأملاك وتركيز أكبر قدر من العنف يمكن إيقاعه بالنساء والأطفال. وبعد أن قام أفراد الميليشيا بعملهم تصل السلطات القائمة ـ الجيش الوطني اليوغسلافي أو قوات كارادزيتش أو الشرطة المحلية، لإعادة النظام ظاهرياً. ولكن بالطبع كان ذلك يعني نجاح التطهير العرقي في ذلك المكان المحدد وبالتالي يمكن للنسور البيضاء أن تبتعد».

ويقول منديلوس إنه قام، في ذلك اليوم، بنقل أكبر عدد من المسلمين الأحياء من زفورنيك معلناً للقادة الصرب المحليين أنه يضع السكان تحت حماية اللجنة العليا للإغاثة. وباسترجاع الأحداث فإن ما بدا بطولة متهورة كان له ثمنه. فالبرغم من أن منديلوس فعل المعجزات وأنقذ مئات الأرواح بإجلاء المسلمين عن البلدة ورتب أمر نقلهم إلى توزلا، فقد كان وهو يتصرف بأنبل الدوافع يعطي الضمانات بأن زفورنيك صارت فصاعداً مدينة صربية ـ وهو الغرض السياسي لهجوم النسور البيضاء في المقام الأول ـ وقد اعترف منديلوس نفسه بذلك حين قال لي: «ليست لدينا الآلية للتعامل مع التطهير العرقي. إننا نستطيع أن نعالج أعراض المرض سواء بتحسين الأوضاع الأمنية في المناطق التي لم يحدث فيها التطهير العرقي بعد، أو ببذل أقصى جهدنا لتنبيه المجتمع الدولي لعمق الأزمة أو بمحاولة ترتيب توزيع الطعام من خلال قوافل

الإغاثة وإعادة الإمداد الجوي للمناطق المحاصرة. ولكن يبدو وكأننا لا نستطيع إجبار الأطراف على وقف الحرب أو أن نتدخل عسكرياً لمنع استمرار التطهير العرقي.

إنه موقف رهيب. ومنذ البداية أحب الناس تبسيط المشكلة بالكلام. فهم يتكلمون عن لبننة البلقان الآن تكلموا من سنوات قليلة عن بلقنة لبنان. لكن الحقيقة هي أنه في هذه اللحظة لم يهزم أي من الأطراف بمن فيهم البوسنيون، ولا توجد إرادة قوية ولم يتحقق أي نجاح ورغم كل جهود فانس وأوين فلا يوجد ضغط دولي حقيقي». قال منديلوس ذلك كله في خريف ١٩٩٢، عندما كان لايزال متفائلاً نسبياً. وعندما غادر، بعد أكثر من عام لاحقاً، وهو كسير الفؤاد حول ما حدث وبعدما انهارت صحته، كان الوضع أسوأ بكثير. ولكن التحليل الأساسي الذي توصل إليه في تلك اللحظة ينطبق على عام ١٩٩٤ مثلما انطبق على عام ١٩٩٢ فقط مع استبدال زفورنيك بغوراجده وإضافة حلف الناتو للمعادلة وما عدا ذلك فلم يتغير شيء كثير.

كان منديلوس قد قال: «أحياناً تذكرني الحياة في هذا البلد بماكوندو في كتاب جارسيا ماركيز «مائة عام من العزلة». لم يكن الوضع سهلاً في كردستان أو أمريكا الوسطى، ولم يكن بأي حال سائغاً. ولكن هناك أوقات يكون كل ما أحلم به أن يرسلوا بي إلى مكان استوائي حيث الأمور واضحة، مكان يكون فيه لاجئون وبلاد ترسل وتستقبل، دون تعقيدات أخرى. إن هذه الأزمات من الصعوبة بحيث لا يوجد حل لها. ولكن أن تحاول خلق مناطق آمنة ومناطق محمية وسط أتون الحرب، عندما تكون الجبهة في تغيير مستمر ولا يكون اللاجئون نتاج الحرب، كما كان في السلفادور، بل هم هدف شنها في المقام الأول. فكيف يمكن للجنة العليا للإغاثة أن تقوم بذلك؟ إنهم يقدمون لنا المزيد من الجنود. وأنا لم أطلب مطلقاً جندياً واحداً. وفي الوقت نفسه، لدي حسين شاحنة لإعادة إمداد مئات الآلاف من البشر. حتى لو تم تشغيل الشاحنات على مدار الساعة، فكيف يفترض أن أفعل ذلك؟ لقد قمنا بعمل المعجزات من قبل ولكننا بدأنا نفتقدها الآن والشتاء على الأبواب حيث تصبح كل مشكلة لدينا بدءاً من مشكلة إبقاء الشاحنات على الطريق إلى إطعام وكسوة اللاجئين أصعب على الحل بكثير».

أدت اللجنة العليا للإغاثة مهمتها بنجاح في الشتاء الأول للمذبحة البوسنية وكذلك في الشتاء الثاني. فلحسن الحظ كان الجو فيهما لطيفاً. وكان في جعبة منديلوس وخلفه، والطريف أنه كان نيكولاس موريس، الرئيس السابق للجنة العليا للإغاثة في كردستان، بعض المعجزات. تم إسكان اللاجئين وأمكن إعادة توطين أقلية محظوظة في الخارج. كما تم إرسال معدات أكثر وأفضل وبخاصة من الدول النورجية ومن إدارة التنمية البريطانية عبر البحار. وبدأ تشغيل الجسر الجوي إلى سراييفو، الذي أداره منديلوس ومساعده الذكي الشاب الأنجلوشيلي فابريز يوهوكتشايلد عندما كان مجرد تفريغ يدوي للأطعمة بالرافعات المعدنية، وغالباً تحت وابل النيران، بدأ يعمل بشكل أكثر كفاءة مما يحلم به أي شخص. وبحلول نهاية عام ١٩٩٣ كان من الواضح أنه في معظم الأماكن في البوسنة يمكن تفادي الكارثة الإنسانية. وما كان يقتل الناس ليس الجوع والمرض كما تنبأ الكثيرون، بل الرصاص والشظايا. وإذا ما كان الحكم عليها حسب المعايير الإنسانية الضيقة، فإن مجهودات الإغاثة التي قدمها المجتمع الدولي كانت ناجحة. وكانت المشكلة تكمن في أنه ليس البوسنيين وحدهم الذين اعتقدوا بفشلها بل أن كثيرين من أفضل الرجال داخل اللجنة العليا للإغاثة اعتقدوا بفشلها كذلك. وكانت مقدرتهم على تبيين ذلك هي التي وضعت رجال اللجنة العليا للإغاثة في خلاف، أخلاقياً، مع زملائهم في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة.

أصبح معظم من قابلوا خوزيه ماريا منديلوس معجبين به من اللقاء الأول غالباً وأنا منهم، ولكن كانت هناك أقلية سليطة اللسان شديدة الانتقاد لما فعله في البوسنة. فقد أصروا على أنه في حين كان منديلوس يتكلم عن أعمال جيدة فإنه مجرد منفذ لقواعد الأمم المتحدة مثل أي مسؤول رفيع آخر. وقد علق مراسل عرفته في سراييفو قائلاً: «نعم، هو رجل عظيم. ولكني كنت سأحترمه أكثر لو أنه، بدلاً من حواديت النميمة عن الجنرال مورييون أو متابعة ثأره من الشؤون المدنية للأمم المتحدة، واجه واقعياً قسم عمليات حفظ السلام وقوة الحماية التابعين للأمم المتحدة. كان منديلوس دائم الحديث عن وشوك ترك التحفظ. فهو دائماً يقول بصفة أساسية بعد آخر إغماضة عين الحماية التابعة للأمم المتحدة: «هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير». أنا أعرف أن اللجنة العليا للإغاثة في وضع رهيب ويعلم

الله أنهم ضمير الأمم المتحدة هنا في البوسنة . ولكن طالما أن أفضل رجال الأمم المتحدة يرفضون الاحتجاج على ما تفعله المنظمة وطالما أن فكرة الاستقالة فعلياً بسبب أمر في السياسة مستحيلة فعندئذ سيستمر ذلك الإخفاق طويلاً».

واستطرد قائلاً: «في الأمم المتحدة، ربما بسبب تعودهم على الانتصار السهل بواسطتنا فقد أصبحوا عباد النصر الصغير. يقول رجال قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة: حسناً، التطهير العرقي مازال مستمراً ولكن مطار سرايفو عادة يكون مفتوحاً. فماذا تفعل، تغادر؟ الناس أحياء بسبب جهودنا. ومنديلوس يعرف ما يكفي لأن يدرك أن هذه الإجابة غير سليمة. فهو يعرف أنه خلال نصف الوقت الذي كانت قوة الحماية تتباهى فيه أنه بفضل جهودها توقف الطرد الجماعي في بعض المناطق، فإن السبب أنه لم يكن هناك بعد أي مسلمين ليطردهم الصرب. وأكبر شيء يعرفه هو أي كارثة كانت تلك العملية على الأمم المتحدة، بقدر ما كانت على البوسنة. كان يعرفها وهو المثقف الأوروبي في ملابس الأمم المتحدة الزرقاء. لكنه وجد ملجأه في انتصاراته الضئيلة: في تمرير قافلة هنا أو عقد صفقة هناك لإجلاء عدد قليل من الأشخاص من منزل على خط المواجهة. إنه لا يريد حتى أن يفكر في العدد القليل من القوافل التي عبرت أو قلة ما استطاع أن يفعله لوقف التطهير العرقي ـ وربما كان على حق. فرجال اللجنة العليا للإغاثة الذين فهموا ذلك حقيقة خذلت أنفاسهم تماماً. ولست ألومهم أيضاً. تصور معرفة ما يعرفونه!».

ولقد كان يستطيع أن يضيف أنه حتى على مستوى العمليات فقد كلفت «الانتصارات الضئيلة» اللجنةالعليا للإغاثة الكثير. من بين النقد الذي وجه كثيرا لمنديلوس وكبار رجاله أنهم ما لم يذهبوا شخصياً للتأكد من مرور قافلة محددة فإنها لم تكن لتنجح في ذلك مطلقاً. وفي كل مرة تقريباً، كان التفاوض يستمر لعدة أيام. وفي تلك الأثناء، وعندما يكون منديلوس أو مانويل دي ألميدا رئيس وحدة العلاقات الخارجية في اللجنة العليا للإغاثة على جسر في مكان ما يحاول أن يحث صرب البوسنة على السماح بمرور قافلة، تكون هناك عشر قوافل أخرى ممنوعة حسب النظام ـ أو عدم النظام ـ الذي وضعه منديلوس. وعندما يكون بعيداً عن مقره الرئيسي في زغرب، فإن برنامج اللجنة العليا للإغاثة وموظفي التوطين الذين كان عملهم من الأهمية لجهود اللجنة مثل القوافل على الأقل، كانوا يعملون على

مسؤوليتهم الشخصية في الأســاس. وكما أوضح العاملون في الإغاثـة الأكثر حنكة، فإن كثيراً منهم وببساطة كانوا عديمي الخبرة لدرجة أنهم لا يستطيعون العمل في هذا الموقعالخالي من الإشراف.

وقد اعترف حتى أشد المعجبين بمنديلوس بأنـه كان إدارياً ضعيفاً ولكن المشكلة كانت أعمق من ذلـك. ففي النهاية كـان يُطلب من اللجنة العليـا للإغاثـة أن تقوم بأعمال فوق طاقتها وفي وقت واحد. فقد كـان يطلب من منديلوس ويشعر بالالتزام بأن يلعب كـلاً من دور الدبلـوماسي الـدولي ومسؤول اللجنة العليا لـلإغاثـة. كان شخص دونه كفاءة سيستسلـم حيث إن المهمة كانت في جوهـرها مستحيلة. ولكن يحسب منـديلوس أنـه لم يستطع أن يحشـد العزم البليـد لرفـاقـه في قوة الحمايـة وقسم عمليات حفظ السلام التابعين للأمم المتحدة لئـلا يتخطوا حدود مهمته. وبالتأكيد لم يكن يستحوذ عليه الاهتمام بالحفاظ على «حياديـة» اللجنة العليا للإغـاثة في وجه الإبادة الجماعية، فحتـى عندما تكون المهمة ميـؤساً منها، وكان التفـويض والذرائع نكتة سخيفـة، وحتى إذا كان كل ما قد يتحقق في أية خطة متـاحة هو إخـراج حملة حافلة من اللاجئين من بـوسانسكاكرايينا أو إدخـال قافلة إلى مـدينة في وسط البوسنة حيث الناس جياع، مع ذلك كله يستمر منديلوس في المحاولة.

ورغم ذلك فإنني أعتقد أنـه غادر يوغسلافيـا السابقة وهو مـدرك لفشله. فبعد بضعة شهـور، لمح كثيراً إلى الموقف في البوسنة في مقالـة كتبها لجريدة أسبـانية يـومية وكانت آخر جملة تقول: «نعم للتدخل». ولكن في ذلك الوقت بالطبع، كان الوقت قد فـات على ذلك وما كان يتم دراستـه هو شروط تقسيم البـوسنة، وليس كيف يتم إنقاذها.

وبالنسبة للجنة العليا للإغاثـة نفسها، ورغم أنها ظلت إسمياً الوكالة القائدة في يوغسلافيا السابقة ظل جدول أعمالها لبعض الوقت خاضعاً فعلياً لرغبات قوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة. ومن المحتمل أن منـديلوس لم يكـون مندهشـاً. فقبل ذلك بكثير كـان قد أخبرني أنـه يشعر أن أوروبـا «تغـرق مرة أخـرى في مستنقع قوميـاتها» وأضـاف قائلاً: «لقـد صعقنـا نحن الـذين اعتقدنـا في شيء أفضل. فهنـاك صراع الجات وهذا الصراع وذاك الصراع. أنهم يفضلون أكثر أن يفكروا في أي شيء ما عدا

البوسنة» وقبل مندليلوس بأنه ملام أيضاً. فقد قال لي: «كنا غير مستعدين للتفكير في البوسنيين كشعب لديهم شيء نتعلم منه. وفي المقابل أصررنا على معاملتهم كضحايا وسكان متلقين للإغاثات فقط».

وقد عارض منديلوس منذ البداية جعل الإغاثة الإنسانية ذات صبغة عسكرية. ومما أثار رعب مساعديه أنه أحب مقارنة بطولة سائقيه المدنيين بالعتاد والحذر المتزمت للجنود. ومع ذلك فقبل أن يغادر منديلوس يوغسلافيا السابقة أصبحت عسكرة جهود الإغاثة دستوراً للأمم المتحدة.

ولم أفهم مطلقاً ـ وطالما لم يكن يسمح لمسؤولي السلام باستخدام السلاح خلال المرور من نقاط التفتيش لتمرير المساعدات ـ لماذا أصبح مجالاً للنقاش أن يقوموا بمرافقة القوافل. فقد استطاع كثير من القوافل بدون مرافقة، بما فيها تلك التي أشرفت عليها المجموعة اليهودية في سراييفو وآدرا وهي منظمة إنسانية، أن تعبر حتى في أسوأ فترات القتال.

كان أقرب تفسير هو أن الأمم المتحدة أرادت أن تظل متحكمة، ولإنقاذ نفسها والدول الأعضاء الأخرى التي ظلت تؤكد باسمها أنها تعالج بذلك الارتباكات المرتبطة بذلك النوع من الجهر بما يدور على أرض الواقع في البوسنة والذي تولع به اللجنة العليا للإغاثة. فقد كانت عادة رجال الاستعلامات العامة في اللجنة العليا للإغاثة من الإفصاح عما في عقولهم غير مقبولة حيث لم تكن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة تريد أن ترى تصريحات مثل تلك التي أطلقها مرة لويس جنتايل، رئيس اللجنة العليا للإغاثة في مكتب بانيالوكا في أواخر ١٩٩٣ وأوائل ١٩٩٤، والتي قال فيها إن ما سمح العالم بحدوثه في البوسنة «لا يُغتفر مطلقاً» أو ما قاله لاري هولنجوورث في شكواه ضد قصف الصرب لسربرينتشا والذي يتضاءل معه «أشد الأماكن حرارة في جهنم». وباسم عملية التفاوض، أرادت قوة الحماية تقليل الخلافات بين الأمم المتحدة والصرب وليس رؤيتها تشتعل بسبب مسؤولي اللجنة العليا للإغاثة الذين لم يفهموا أنه يجب إخفاء بعض الحقيقة.

ولكن ومنذ البداية، شجع منديلوس رجاله على فضح الأحوال التي يشاهدونها أياً كانت النتائج السياسية، وسواء كانوا يذكرون تفاصيل حصار غوراجده أو

استمرار التطهير العرقي في بسانيالوكا، فيمكن الاعتماد على مسؤولي اللجنة العليا للإغاثة في ذكر الحقيقة. فربما كان ذلك كل ما يستطيعون عمله من أجل البوسنة. ولم يكن ذلك يعني أن لويس جنتايل كان يستطيع وقف التطهير العرقي في بوسانسكا كرايينا أوأن دكتورة ماكغلوهين من اللجنة العليا للإغاثة كان بإمكانها عمل الكثير من أجل الجرحى. ولكن ذكر الحقيقة ليس بالإنجاز الذي يصح إهماله. وسيسجل التاريخ لمسؤولي اللجنة العليا للإغاثة قولهم الحقيقة بدون تحريف. وبالطبع يقوم رجال الاستعلامات العامة وأحياناً كبار مسؤوليهم بالتدخل مؤكدين أن تقارير اللجنة العليا للإغاثة كانت مبالغة وأن الدمار في الحقيقة «أو عدد الضحايا أو عدد المشردين أو مدى الحاجة» كان أقل كثيراً من التقارير الأولى. فطالما أن الضحايا في تلك الحالات كانوا دائماً في غالبيتهم من البوسنيين فغالباً ما كان رجال قوة الحماية يلمحون بشكل عام كصدى للدعاية القادمة من بالي وبلجراد، بأن البوسنيين قد لفقوا تلك التقارير لكي يحملوا الغرب على التدخل.

وبعد أن زار جنرال مايكل روز غوراجده في أعقاب إقامة الناتو لمنطقة عازلة في مايو ١٩٩٤، عاد إلى سراييفو وأعلن أن تكرار قصف المستشفى عار من الصحة وأن معظم الجرحى كانوا من الشباب في سن الجندية «وهو تلميح لأن الصرب كانوا يقصفون أهدافاً عسكرية مسلحة ولا يرتكبون جرائم ضد المدنيين). وعندما سئل عن السبب في أن اللجنة العليا للإغاثة ومنظمة «أطباء بلا حدود» غير الحكومية الذين ذهبوا إلى غوراجده أثناء الهجوم الصربي قد وجهوا نفس الاتهامات وقدموا نفس التقديرات بالضحايا التي قدمها البوسنيون والتي رفضها روز، قال الجنرال أنه لا يعرف وأنه ربما لأنهم أمضوا كثيراً من وقتهم في الملاجيء فإنهم قد استقوا الكثير مما ظنوا أنهم يعرفونه من التقارير البوسنية. وقد كرر مسؤول الاستعلامات العامة في اللجنة العليا للإغاثة، في البوسنة، بيتر كيسلر، بصلابة، أنه متمسك بتقديراته وحتى عندما أكدت الدكتورة ماكغلوهين كلام البوسنيين عن الأحداث، بدأ مسؤولو قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة مرة أخرى يوضحون للصحفيين، كما فعل المراقب العسكري الكندي في الأمم المتحدة، أنه لابد أن خبرتها سيطرت عليها وأنها ليست شاهدة موثوقة.

كانت تلك مسؤوليات حفظ السلام للأمم المتحدة. وبالنسبة لمن كان يرى أن

قوة الحماية غالباً ما تستميح الأعذار للصرب في الماضي فلم يكن هناك شيء مستغرب في كلمات الجنرال روز. فقد اعترف على الأقل بأن بعض المدنيين قتلوا في غوراجده. ويعتبر ذلك خطوة في الاتجاه الصحيح بالنسبة لرجل بدا أنه صدق أن البوسنيين، وليس الصرب، هم المسؤولون عن المذبحة في السوق المركزي في سراييفو. وقد أمضى الجنرال ماكينزي، رغم كل شيء، عاماً كاملاً ينكر أن مذبحة طابور الخبز في أغسطس ١٩٩٢ منسوبة بأي تأكيد للصرب. كما عارض الجنرال بريمكونت جعل غوراجده منطقة آمنة لأن «المسلمين»، كما ادعى، سيستخدمونها قاعدة للإغارة على الصرب. بل إنه ادعى أن الصرب كانوا أكثر من يعتمد عليهم في التفاوض، أثناء جولة عمله في البوسنة، رغم أنه في خطاب وداعه لشعب سراييفو اعترف أنه سيفتقد المدينة لأنها متعددة الثقافات مثل مدينته المحبوبة بروكسل.

ولم يقل جوزيه ماريا منديلوس إنه سيفتقد سراييفو. بل ودع زملاءه في اللجنة العليا للإغاثة بحرارة وقال إنه سيفتقدهم. ولكن عند نهاية عمله كممثل خاص كان من الواضح أن منديلوس قد ضاق ذرعا بالوحشية والأكاذيب، ومثل كثيرين من الرجال الأكفاء الذين عملوا معه على مدى السنتين الماضيتين وانهاروا أخيرا تحت عبء الضغوط الجسمانية والنفسية، فقد خد حماسه كذلك. كان هذا شعورا مشتركا يشارك فيه المراسلون والعاملون في المنظمات غير الحكومية والمسؤولون في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، حتى قيل إن جنرال بريكمونت باح لمجموعة صغيرة بأنه يتوق للعودة إلى وطنه لأنه، في النهاية، ظل تحت وابل النيران ثلاثة شهور (يفترض أنه كان يقصد إقامته في سراييفو). إن الأمر يخلص في أن بعض الناس يخمدون قبل غيرهم مثلما ييأس بعض الناس قبل غيرهم.

وكان منديلوس ورجال اللجنة العليا للإغاثة الآخرين قد نال منهم اليأس. فكلما عملوا أكثر بدأوا يدركون أن ما ينتظرهم هو الإخفاق، مهما بلغ تفانيهم والسبب الأساسي لذلك يكمن في أنهم ببساطة لم يعرفوا ما يتوقع العالم منهم في البوسنة. وكما قال لي توني لاند وهو موظف محنك في اللجنة العليا للإغاثة والمسؤول عن مكتبها في سراييفو عام ١٩٩٣ و١٩٩٤: «أي نوع من الالتزام يريد الغرب والأمم المتحدة أن يقوموا به في الحقيقة؟ يمكن أن تنجح سياسة المناطق الآمنة في ظروف معينة ولكن ليس قبل أن نضمن للناس في تلك الأماكن نوعية معقولة من الحياة

فليس هناك مياه في سربرنتشا . وإذا لم يسمح لنا الصرب بإعادة المياه ، ألا يعني ذلك أن علينا نقلها إليهم؟ إننا نواجه نفس نوع المشكلات العملية في الأماكن الأخرى . إنني لا أتحدث حتى عن مشكلة الروح المعنوية للناس في تلك الأماكن وهي المتعدمة تماما» .

«كنا نعلم منذ البداية أن الثمن فادح حتى لو تم وقف عام لإطلاق النار غدا ، ولكن السؤال هو وفق أي مبادىء مطلوب منا أن نعمل هنا . وأسألك : هل المياه حق إنساني لهؤلاء الناس؟ أنتم الصحفيون تتحدثون بحق عن حقوق الإنسان وكأنها مجرد ضرب الشرطة المبرح ، أو تتحدثون ، بحق ، عن الاغتصاب والتطهير العرقي . ولكن ماذا عن التعليم؟ أو الكهرباء؟ وماذا عن محاولة إعادة تلك الأشياء في وضع يستمر فيه القتال والتطهير العرقي والاغتصاب في كل مكان حولك؟ ومرة ثانية يبرز السؤال كما كان منذ البداية ، ماذا نحاول أن نحققه هنا في الواقع . علينا أن نقرر ، فرغم مرور سنتين لم نفعل ذلك بعد» .

حتما لقد وصلت اللجنة العليا للإغاثة إلى حالة من الرضا عما فعلته في البوسنة . ورغم أنها المنظمة التي فعلت أكثر من الآخرين لفضح الحقائق عن التطهير العرقي ، فقد كانت هناك أوقات وجدت فيها نفسها تساعد عليه في الواقع . ففي إحدى المناسبات قال منديلوس «إنني أفضل إجلاء ثلاثين ألف شخص عن ثلاثين ألف جثة» . وفي عام ١٩٩٣ قامت اللجنة العليا للإغاثة في سربرنتشا بتنظيم عملية إجلاء ضخمة للسكان المدنيين عبر المناطق التي يسيطر عليها الصرب إلى توزلا ، ولم يكن ذلك يتم بالضغط على أي شخص . فكما قال موظف في اللجنة العليا للإغاثة وقتها : «كل شخص يريد أن يخرج من جحيم سربرنيتشا . إنهم يعلمون أنه لا مستقبل لهم فيها» . ومع ذلك فكما أبدى جندي بوسني في مرارة وهو يشاهد أول قافلة تعبر الأرض المشاع وتتحرك بعدها نحو مدينة توزلا : «هذا هو التطهير العرقي . إن اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة تقوم بالعمل نيابة عن الصرب» .

أصر مسؤول اللجنة العليا للإغاثة المكلف بالإجلاء أنه يقوم بإجلاء «إنساني محض» وحذر أنه رغم أن العملية في سربرنتشا كانت الأكبر بين عمليات اللجنة العليا للإغاثة في البوسنة حتى الآن ، فإنها لن تكون الأخيرة . وقد كان محقا ، شأن كل

من مالوا في البوسنة إلى تلك النظرة الكارثية . ففي ربيع ١٩٩٤ عندما صار واضحا للجنة العليا للإغاثة أن الصرب في بوسانسكا كرايينا وبخاصة في منطقة بريودور كانوا يبدأون مرة أخرى حملة منظمة من القتل والحرق المتعمد ضد نحو ستة آلاف من المسلمين الذين بقوا ، كانت هناك محاولة لإجلائهم بالجملة إلى كرواتيا ، وكأن المسلمين لا يستطيعون الفرار من تلقاء أنفسهم . ففي محطة حافلات بانيالوكا علقت لافتة في خريف ١٩٩٣ تعلن عن منع المسلمين من ركوب الحافلات ، وفي الخارج كررت الكتابة على الجدران تلك المزاوجة المميزة للافتات العنصرية في العالم أجمع : «ممنوع الكلاب أو المسلمين» .

كانت اللجنة العليا للإغاثة ولجنة الصليب الأحمر تحاولان على مضض القيام معا بعملية الإجلاء . وسرت الشائعات في زغرب أن الأموال المقدمة سرا إلى السلطات الصربية المحلية غير كافية وهذا هو السبب في فشل الإجلاء أخيرا . ولكن الأحداث السابقة في سربرنتشا ، والتي تكررت العام التالي على نطاق أضيق في أماكن كثيرة من البوسنة وتحركت دون أن تكتمل في بوسانسكا كرايينا ، كلها كانت تحدد بشكل متزايد مدى ما يصل إليه التفويض للجنة في «حماية» اللاجئين في الواقع . لقد تورطت في حقيقة الأمر ، في وضع مستحيل فإما أن تقف مكتوفة الأيدي وتشاهد التذبيح أو أن تقوم بنفسها بتسهيل الهدف الأكبر لحرب الصرب في نقل السكان غير الصرب خارج مناطق البوسنة التي يسيطر عليها جيش صرب البوسنة . وبالنسبة لمسؤولي اللجنة العليا للإغاثة الذين كرسوا حياتهم للعناية باللاجئين ، فقد كان الخيار غير محتمل مهما أدركوا حتميته .

وباسترجاع الأحداث ، فإن قتل البوسنة كان قد أصبح نتيجة محتومة سلفا بعد سربرنتشا ، وهو ما عبر عنه لاري هولنجوورث من اللجنة العليا للإغاثة حين قال : «كان يجب أن نكون أقوى من ذلك منذ البداية . ففي هذا اليوم والزمن ، يجب أن يكون إطعام الناس حقا مطلقا ، ولكننا بدلا من ذلك حاولنا أن نلحق بالترتيب الصحيح الذي يقنع الصرب بتركنا ندخل . ومنذ أغسطس ١٩٩٢ وحتى مارس ١٩٩٣ أدخلنا العدد القليل ، وفي تلك الأثناء كان الصرب يطبقون على سربرنتشا ويأخذون القرى ويجبرون الناس على الهرب جاعلين الموقف في تلك المناطق التي لم يأخذوها بعد أكثر يأسا» . وقبل أن تقرر اللجنة العليا للإغاثة أخيرا إجلاء المدنيين

من المنطقة أكد مندیلوس في غضب أن ما يقدمه الصرب للأمم المتحدة بموافقتهم على فتح ما يسمونه «الممر الإنساني» في الشمال الشرقي عبر خطوطهم كان مجرد فتح ممر للتطهير العرقي. «نعتقد أن للناس الحق في مساعدات إنسانية في الأماكن التي يعيشون فيها وليس بعد قصفهم وتجويعهم بعيدا عن بيوتهم».

إن عدم مقدرة اللجنة العليا للإغاثة في بادىء الأمر على استيعاب ما كانت تواجهه لم يكن مدهشا. وكما قال لي بيير أوليه، المسؤول الفرنسي الشاب في اللجنة العليا للإغاثة الذي قابلته لأول مرة في بانيالوكا عام ١٩٩٢ والذي تطوع في وقت ما لكل مهمة مرهقة في البوسنة وقبل أن يقتل في اصطدام طائرة وهو في طريقه إلى مقدونيا «لم تكن هناك حرب مطلقا تمثل الهدف العسكري الرئيسي فيها في خلق لاجئين بالجملة. من السهل أن تقول إن على اللجنة العليا للإغاثة ألا تتورط في السياسة - وأن شابا مثلي بلا خبرة خاصة في السياسة لا يصح أن يتفاوض مع صرب البوسنة أو HVO أو حكومة البوسنة. ولكن مع وجود لاجئين في قلب الأزمة السياسية والعسكرية ليس هناك سبيل آخر. لا يهم إذا كان منديلوس يريد ذلك أو حتى أن يكون مؤهلا للقيام باللعب في حقل السياسة العليا. فلقد تورطت اللجنة العليا للإغاثة في هذا الدور منذ البداية».

وكان أوليه على حق. كان منديلوس ورفاقه يلعبون السياسة منذ بداية العملية ولكن من دون الموارد التي تتطلبها السياسة. وقد قال هربرت أوكون مرة مازحا: «دبلوماسية دون التهديد بالقوة على الأقل تشبه لعب البيسبول دون عصا». وكما أعلن لاري هولنجوورث لمراسل من صنداي تايمز اللندنية وهو يغادر البوسنة للأبد في ربيع ١٩٩٤: «كان يجب أن نكون أكثر خشونة منذ البداية. لقد أضاعت الأمم المتحدة فرصة الإمساك بزمام المبادرة وأن تكون ذات بأس ورأينا سلطتها تتضاءل تدريجيا منذ ذلك الوقت. ولو أننا قلنا منذ البداية إما أن توقفوا هذا القتال أو نذهب ولن يحصل أحد على شيء، لكنا قد أثبتنا بعض القوة».

إن الطريقة التي بدا أن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة تفضل أن تتعامل بها مع قلة حيلتها هي التظاهر بأن الوضع سيتحسن قريبا وأنه بطريقة ما ستبدأ المفاوضات في نهاية المطاف في إعطاء النتائج. إن هذه الرغبة في الاعتقاد في قرب النهاية منعتهم

من ذكر الحقيقة حتى لأنفسهم. وعندما طالب المراسلون ديفيد أوين بأن يواجه الصرب بخصوص معسكرات الاغتصاب ابتسم قليلا وكأن ذلك أبعد المطالب منالا في العالم وقال لأحد المراسلين: «يصعب كثيرا أن تتكلم عن أشياء مثل تلك مع الصرب» ومع ذلك فعندما طلب الصرب من الأمم المتحدة أن يتوقفوا عن تسمية حصار سراييفو بكلمة حصار، استجابت الأمم المتحدة على الفور. لكن على أقل تقدير تمسكت اللجنة العليا للإغاثة بسخطها. فعند عودة لاري هولنجوورث من سراييفو إلى سربرنتشا أعلن: «إنها المذبحة هناك، ويجب وقفها، وإذا استلزم الأمر إطلاق النار، فليكن ذلك».

وعلى عكس منديلوس فقد رحب هولنجوورث أول الأمر بنشر جنود قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لكنه قال لاحقا: «لقد بدا كما لو أن مهمتي صارت أسهل وأن حياة آلاف من البوسنيين ستصبح أكثر احتمالا. وبدا غرض القوات واضحا: مرافقة المساعدات دون التدخل في الحرب ذاتها. ولكن من ناحية أخرى، إذا أرسلت جيشا ولم تسمح له بالاعتداء فلماذا الدبابات وقوة النيران إذن؟ لقد خرجت للأسف بنتيجة مفادها أن القوات أرسلت ليس لاتخاذ موقف صلب ولكن ببساطة لتظهر بموقف الصلابة». في الواقع، كان هذا بالضبط ما قاله قائد رفيع الرتبة في قوة الحماية لمجموعة من الصحفيين في زغرب في أوائل ١٩٩٤ قبل قليل من إعادته إلى وطنه: «إن مهمتنا هنا ليست لعمل شيء في الواقع. إن مهمتنا أن تعطي الانطباع بأننا نفعل شيئا» قال ذلك بنبرة تمزج بين ازدراء الأوامر التي نفذها بإخلاص وازدراء لأولئك الذين لم يفهموا ماهية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة، ثم ضحك وقال «إنها مهمة غاية في الصعوبة».

إن مكمن الشجاعة في موقف اللجنة العليا للإغاثة هو أنها، ورغم التزامها برأي الأمم المتحدة في كونهم محايدين، رفضت أن يؤخذ ذلك على أنهم معفين من التورط بالمفهوم الأخلاقي. وقد تكلم منديلوس بصراحة عن إحباطه «كعضو في المجتمع الدولي» بأنه لا يستطيع فعل ما هو أكثر. أو بعبارة أخرى، لم يقبل بفكرة أن دوره كمسؤول في اللجنة العليا للإغاثة يعفيه من التزاماته الأخلاقية كإنسان. ولا يعني هذا أن يضرب منديلوس واللجنة العليا للإغاثة عن العمل من تلقاء أنفسهم.

فمن الزاوية الموضوعية يمكن النظر إلى جهودهم الإنسانية على أنها ورقة التوت الساترة لتخاذل القوى الكبرى عن التدخل عسكريا في البوسنة. أو «الفخ الإنساني» كم يجب أن يسميه صحفي فرنسي في سراييفو. أما في ظروف العمليات، أي في أمور الحياة اليومية التي واجهوها، فقد كان مسؤولو اللجنة العليا للإغاثة يحاولون المساعدة. كانوا يعرفون أن ضباط الحماية يستطيعون عمل القليل للحماية وأن قوافلهم لن تمر ولكن ذلك لم يجعلهم ساخرين كما حدث كثيرا مع قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، بل إنها جعلتهم يتصلبون في قرارهم. ففي مقر الرئاسة في زغرب غضب المسؤولون الكبار من الالتصاق بالأعمال المكتبية واستخدموا كل ذريعة واضحة للعودة إلى البوسنة. كان خوزيه ماريا منديلوس مشهورا بتفضيله صحبة سائقي قافلته على صحبة الدبلوماسيين الذين كان يقضي معهم معظم وقته. ولكنه في نهاية المطاف فقد الأمل أيضا.

قال لي منديلوس قبل قليل من مغادرته البوسنة: «بصراحة نحن في اللجنة العليا للإغاثة نشعر أن المجتمع الدولي تخلى عنا وكذلك الأمم المتحدة في نيويورك. إننا نشعر كما لو كنا يتامى. وعندما تدهور الموقف تماما في شرق البوسنة، وجدنا أنفسنا في الوضع المستحيل أخلاقيا الذي يضاعف الهدف من التطهير العرقي من أجل إنقاذ أرواح الناس. ومع ذلك فلم تصدر أي تصريحات عن هذا من مجلس الأمن أو من مفاوضي فانس وأوين أو السكرتير العام. ويبدو أننا سنعتمد على أنفسنا في هذا الوضع المستحيل. لقد أصبحنا شركة نقليات وعلينا تجاهل جميع أمور الحقوق الإنسانية والتي هي صميم التفويض لنا. إننا ننقل الطعام ونتصرف مثل أي وكالة سفريات للزوار الأجانب.

«كانت هناك فترات طويلة، أيا ساءت الأمور، عندما كان لدي أمل! وأتذكر تفكيري أنه عند نقطة ما سيضطر المجتمع الدولي إلى عمل شيء ما ولا يكتفي فقط بالكلام، فعندما حضرت إلى هنا في الماضي وتحدثت معك عن المعجزات والقيود فقد كان ذلك بالطبع عن الصمود حتى يتم عمل شيء ما. وأنا أفتخر كثيرا بما حققناه في اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة. ويرجع الفضل بدرجة كبيرة إلى جهودنا في ألا يموت الناس جوعا في سراييفو. ولكن في كل مكان آخر..» وتهدج صوته واهتز: «في كل مكان آخر تقريبا، الأمور غاية في السوء» وبعد

شهر كان منديلوس قد رحل . وفي زغرب وسرايفو لم يخف كبار موظفي اللجنة العليا للإغاثة ارتياحهم لرحيله . فكما حدسوا عن حق فإن خلفه ، نيكولاس موريس ، لم يتبع مثل هذه السياسة المستقلة ولم يكن لديه حساسية منديلوس المكشوفة إزاء العسكريين في لحظة أصبحت فيها قوة الحماية وليست اللجنة العليا للإغاثة ، لأسباب عملية ، هي الوكالة القائدة لنشاط الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة . وفي ظل قيادة موريس عادت اللجنة العليا للإغاثة وكالة إغاثة صرف ولا شيء غير ذلك .

كان تبديل منديلوس بموريس إشارة إلى التغير في دور اللجنة العليا للإغاثة وربما في تفكيرها كذلك . ولا جدال في أن موريس كان أفضل كإداري وأفضل كبيروقراطي ، وربما في إطار الأمم المتحدة الأفضل كسياسي كذلك . كان ينظر إليه كرجل محترم ، كما كان ينظر إليه من قبل الكثيرين أيضا كرجل واقعي وصارم . ولكن كان هناك بعض التساؤل حول «التزامه التحفظات» . فبعد كل شيء كان الرجل الذي عارض توسيع دور اللجنة العليا للإغاثة في كردستان - وهو موقف أكسبه اسم موريس «ليس تفويضي» الذي أطلقه عليه المراسلون الذي كانوا موجودين في شمال العراق في ذلك الوقت . فعلى النقيض من منديلوس الذي قاوم بثبات مبدأ أن مهمته تنحصر في احتواء الكارثة أو أن يفعل ما يستطيعه فقط ، يسلك موريس طريقا أكثر تحفظا . وتحت قيادته ارتدت اللجنة العليا للإغاثة في يوغسلافيا السابقة بشكل كبير إلى كونها وكالة أرثوذكسية للأمم المتحدة . لقد اشتكى من خدموا في العملية منذ البداية من فقدان الروح ، وبحلول منتصف ١٩٩٤ كان معظمهم إما قد غادر أو يفكر في المغادرة . وعندما غادر آخر عضو في المجموعة القريبة من منديلوس ، وهو مانويل دي ألميدا ، إلى جنيف في يونيو ١٩٩٤ ، كان في هذا النهاية الرمزية للعملية أو كما أسماها أحيانا «الوحش» الذي خلقه منديلوس .

كان منديلوس ينظر دوما إلى مهمته لا على أنها مجرد إنقاذ أرواح أو توفير الإغاثة ، بل إحياء آمال الناس . وكما قال أحد زملائه بعد مغادرته للبوسنة : «قد يكون جوزيه ماريا حظي بانتصارات جوفاء ، ولكن وبينما يكسبها كان في استطاعة رجال اللجنة العليا للإغاثة أن يواصلوا الاعتقاد ويواصلوا الأمل . والآن هناك أزمة ولا أمل وهذا يثبط معنوياتنا جميعا» . وبمجرد مغادرة البلقان شعر منديلوس بحريته في كشف

مدى إحباطه شخصيا . فقد أعلن «لقد وصلت عملية مفاوضات السلام في يوغسلافيا السابقة إلى ذروة الفساد . كانت بادىء الأمر تحافظ على دولة البوسنة والهرسك التي اعترف بها المجتمع الدولي . ولاحقا جاء الاقتراح بتقسيم الدولة إلى عشرة أقاليم ، وفي النهاية أصبح لدينا فكرة خلق دويلات عرقية تجبر السكان على أن يحددوا هويتهم وفق منطق فاشستي» . وكان منديلوس يصر على أن ذلك غير مقبول . فقد قال «يجب وضع حد للبراجماتية وللحوار الذي فرضته الإبادة الجماعية . فإذا لم نكن مستعدين للتدخل فمن الأفضل أن نبقى في بلادنا ، ولكننا موجودون وتعهدنا بالفعل بالتدخل الإنساني وخلقنا توقعات كاذبة» .

إن الأمر الرائع عند مشاهدة رجال اللجنة العليا للإغاثة وهم يتقدمون في الميدان كان ، على الرغم من وصول الأمور إلى حالة اليأس ، هو رفضهم الدائم للانهزامية . أما الآن فقد كان منديلوس في الواقع يقبل الهزيمة . وفي وقت لاحق ، ترك اللجنة العليا للإغاثة وانغمس ثانية في السياسة الإسبانية وفاز في انتخابات البرلمان الأوروبي على قائمة الاشتراكيين . لقد فشلت ما أسماها «أضخم وأعقد وأخطر عملية تعهدت بها المنظمات الإنسانية» على الأقل ، إذا كان مقياس النجاح هو وقف ما كان يجري في الواقع . وحتى نيكولاس موريس أصر عام ١٩٩٣ على أن «فشل المجتمع الدولي في أن يقلب منطق الحرب يعني فشل العمليات الإنسانية القائمة أساسا على قلب ذلك المنطق» . كذلك قالها لاري هولنجسوورث بكل صراحة ، فقبل أن يغادر البلقان قال في غضب إنه «يجب على الغرب أن يعقد العزم فيما إذا كان يريد أن ينقذ مسلمي البوسنة أم لا» . وبحلول ربيع ١٩٩٤ ، كان من الواضح أنه عقد عزمه وكانت الإجابة أنه لا يريد .

الفصل العاشر

سألني عجوز في مقبرة «لايون» في سراييفو في إبريل ١٩٩٣ : «لم لا يلقي الأمريكان القنبلة الذرية على الصرب؟ وبعد لحظة انفجرت قنبلة مورتار على بعد ثلاثمائة متر. وقام المشيعون ـ وكانوا قد حضروا لدفن طفل عمره أربع سنوات قتله قناص قبل يومين ـ بالزحف أو بالأحرى بدأوا في حركات زحف صامتة بحثاً عن ساتر حيث لم يكن هناك، باستثناء تمثال الأسد الذي شوهه القصف والحافة التي يقف عليهما وسط المقبرة، أي ساتر على الإطلاق. فحتى الشواهد في سراييفو أصبحت تصنع من الخشب بعد عام من الحصار. ويقول الحفارون إن الشواهد أصبحت بنصف سماكتها قبل ستة شهور. وحملقت في انفعال في قبرين تم حفرهما حديثاً في نهاية أحد صفوف الدفن. ومن خبرتي السابقة عرفت أنها أكثر الأماكن أمناً للقرفصة إذا بدأ القصف جدياً، وهو احتمال واضح حيث تخصصت القوات الصربية الرابضة على التلال المحيطة بالمدينة في إطلاق النار على المشيعين وهم يدفنون موتاهم.

وبمعايير سراييفو، كانت مقبرة «لايون» أكثر أماناً من المقابر الرئيسية المحلية الأخرى، فلم تكن مكشوفة تماماً مثل ملعب الكرة القريب، الذي حولته السلطات المحلية إلى مقبرة في خريف ١٩٩٢ ، لاستيعاب فيض الجثث من مشرحة مستشفى كوسيفو، والذي امتلأ هو الآخر بعد عام لثلثه بالقبور. وحتى وقف إطلاق النار في فبراير، كانت كل منطقة في سراييفو مصدر خطورة، ولا يوجد مكان بعيد عن مرمى نيران المورتار أو المدفعية أو القناصة المنتشرين في كل جهة. وعلى أقل تقدير كان القصف غير شخصي نسبياً. لأن رجال المدفعية يصوبون على منطقة أو غالباً على مبنى محدد. ولكن المرعب والمهين بشكل خاص في كونك تحت نيران القناص هو أن القناص يلتقط ويختار من بين الناس المارين أمام شعرات التعامد لمنظار مدفعه.

ويقول لنفسه «أعتقد أنني سأقتل الفتاة ذات السترة الحمراء»، أو يقول «أعتقد أنني سأدع الرجل الطويل يعبر الطريق وأحاول إسقاط صديقه، الشاب القصير غير الحليق في المعطف الصوفي، عندما يحاول أن يتبعه».

في ذلك الصباح، وقبل أن نذهب إلى مقبرة لايون قال لي صديق فرنسي، وهو مصور حربي ذو خبرة طويلة: «هناك طريقتان لتصوير الجنائز: على قدميك مع الأحياء أو على ركبتيك بين الأموات». كان يمكن له أيضاً أن يتكلم أيضاً عن أساليب التفكير في سراييفو أو بشكل عام عن المذبحة في البوسنة. فعندما يكون المرء في المدينة وقت الحصار فإن المسيطر (بصرف النظر عن خوف المرء الذي يفقده نصف عقله)هو أن الوضع يبدو بسيطاً وهو أن مدينة أوروبية تتلاشى: قرطاجة بالتصوير البطيء»، ولكن هذه المرة في وجود جمهور ومع تصوير بالفيديو. وليس هناك شيء»، لا التاريخ المعقد للمنطقة ولا أخطاء وجرائم البوسنيين أنفسهم ولا المخاوف المبررة أحياناً لصرب البوسنة، يستطيع أن يخفف من الجريمة التي وقعت. لا شيء لا شيء. لا شيء.

ولقد كان نوعاً من أوهام الصحفيين -الناشيء بلا شك عن التقدير المشترك للذات من ناحية، وعن الإيمان غير المدروس في التقدم والآثار المهدئة للرخاء، ومن الإيمان الذي نهنيء أنفسنا عليه بأن أوروبا أصبحت مكاناً متحضراً- أن نتصور أنه إذا تم إخبار الأهل في الوطن وإطلاعهم على ما يحث حقيقة في سراييفو، وإذا ما شاهدوا منظر طفل أصيب لتوه برصاصة مدببة أو بشظية مشرشرة على شاشة التلفزيون أو جثث المواطنين الذين يحصدون وهم في الطوابير للحصول على الخبز أو الماء، فإنهم سيطلبون من حكوماتهم فعل شيء. كان أمل الصحافة الغربية هو أن العارفين بالأوضاع في الوطن سيطلبون من حكوماتهم ألا تسمح بأن يقتل ويغتصب ويشرد مسلمو البوسنة. وبدلاً من ذلك فإن اللدغات الصوتية و «اللدغات المرئية» التي تم اختيارها من ميدان القتال نمت روح السفطة واللامبالاة بشكل منظم أكثر مما نجحت في تعبئة الناس للتصرف أو حتى لازدراء الوضع.

وباسترجاع الأحداث، يدرك المرء أن الذين اعتقدوا منا أن النتيجة كـــــــــان

يمكن أن تكون غير ذلك كانوا سـاذجين. كان هناك نوع من «تأثير CNN» بالمعنى الواسع والمتمثل في أنـه لولا إظهار CNN و BBC وغيرهما للمأساة البوسنية طول الـوقت لخمدت في أذهـان الناس بعـد الشهور القليلـة الأولى من القتال برغم أنها كـانت تحدث على مسافة ستمائة ميل من إيطـاليـا. وبمفهـوم أضيـق، كـانت كـاميرات التلفزيون وليس حلف الناتو في الواقع، ناهيك عن الأمم المتحدة، هي التي أنقذت سراييفو بعد المذبحة في السوق المركزي في أوائل فبرايـر ١٩٩٤. لقد قاوم البريطانيون والفرنسيون وكذلك قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وقسم عمليـات حفظ السلام بكل قواهم أي تهديد حقيقي من جانب الغرب باستخدام القوة للدفاع عن سراييفو على مـدى ما يقرب من عامين. فقـد أصروا على أن التفويض لا يسمح بـذلك وأن المخاطرة بالجهود الإنسانية كبيرة وأنه في النهـاية ستكون للتهديدات العسكرية نتائج عكسية.

ولكن في أعقاب مذبحة السوق، أدركوا أن هناك غضباً حقيقياً في أوطانهم، وهو غضب ولـو لمرة لن يتبدد بنفس السهـولـة مثلما حدث في أعقـاب الأعمال الوحشية السـابقة. وليس من المستغرب أنه قد اتضح لهم إمكان تطبيق عدد من الخطوات التي حكموا باستحالتها. وكما أخبرني دبلـوماسي مما يسمـى بالدول الخمس الدائمة في مجلس الأمن وهـو يسخـر: «ليس التفـويض هـو الـذي تغير بل عـواطف الجماهير وبخاصة في أوروبا الغربية».

وعلى طول الخط، أخـذ كثير من الصحفيين على عاتقهم، بـوعي أو بغير وعي، أن يغيروا من مشاعر قرائهم ومشاهديهم تجاه المذبحة. وهـذا هو السبب في أنه ربما كان المراسلـون وأطقم شبكات التلفـزيون، طـوال معظم فترة الحصار، هـم حلفاء البوسنيين الموثـوقين. وفهمت حكومة البوسنـة، التي راهنت على التدخل الأجنبي، تأثير رجال الصحافة مبكراً، كما فهمت أنه مع حرمانها نتيجة لاستمرار حظر السلاح من وسائل الدفاع عن نفسها بفاعلية فإن استدرار العطف الأجنبي وجمع الأموال من العالم الإسلامي هي الدعامات القوية المتاحة.

ولكن لم يكن صحيحاً، كما كان يجب أن يقول رجـال الأمم المتحدة، أن مشاعر

العطف جعلت الصحفيين يشوهون القصص ليظهروا الطرف البوسني في صورة إيجابية لا يستحقها . وفي الواقع ، كانت أصابع الاتهام تشير أكثر إلى الأخلاقيات المشبوهة التي خلقها بين كبار مسؤولي الأمم المتحدة هذا الالتزام بالحيادية حيال ما أسموه غالباً «ادعاءات الأطراف المتحاربة» ، وبرغم جو الدهشة المجروحة فقد كان على هؤلاء المسؤولين أن يعرفوا أنه لو كانت هناك أية عدالة في جانب صرب البوسنة فإنها بنفس نسبة العدالة في جانب النازيين أو الخمير الحمر. ومرة أخرى ، فإن ما كان يقوم به الصرب هو الإبادة الجماعية .

أما ما كان صحيحاً ، ولأن ما كان يحدث في البوسنة كان إبادة جماعية ، فهو أن معظم الصحفيين تعاطفوا مع القضية البوسنية بنفس الأسلوب الذي تمنى به المرء لو أن ممثلو الصحافة الأجنبية تواجدوا في حي اليهود بوارسو عام ١٩٤٣ وتعاطفوا مع اليهود .

إن المنطق في موقف الأمم المتحدة في البوسنة يوحي بأنه لو تواجدت الأمم المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية وأعتقدت أنها منحت «تفويضاً» بمعاملة جميع الأطراف بحيادية ، لكانت قد شكت من عدم فهم الصحفيين أن معاداة السامية كانت مشكلة أوروبا عبر القرون وأن مخاوف الألمان من نفوذ اليهود لابد أن تفهم من خلال سياقها التاريخي . ومن ناحية تاريخية بحتة ، يتصادف أن تكون تلك الأمور صحيحة مثلما كانت تأويلات القومية الصربية صحيحة عام ١٩٩٤ . لكن الصحافة ، وهو ما يحسب لها ، لم تقبل بتفسير الأمم المتحدة القائم على المثل الفرنسي القديم القائل إنه لكي تفهم كل شيء عليك أن تغفر كل شيء . فقد رأى الصحفيون في البوسنة أموراً لا يمكنهم أن يغتفروها ، أمور كانت الأمم المتحدة مصممة على أن تذهب إلى أبعد الحدود لتغطيتها .

والواقع أن الأمم المتحدة كانت محقة بمعنى ضيق معين في رفضها للتفاعل بين الحكومة البوسنية ورجال الصحافة الأجنبية ، فعلى مدى القتال ، حاولت حكومة البوسنة تعبئة هذا التعاطف كما تعبيء شبابها وعاملت الصحفيين الأجانب وكأنهم ذخيرة حربية . وبمرور الوقت ، أصبح البوسنيون متمرسين في القيام بذلك . لكنها لم

تعرض المأساة البوسنية بما يتفق مع أهـدافها الاستراتيجية . ومهما اختارت قوة الحماية التابعة لـلأمم المتحـدة، من جنـرال ماكينـزي عـام ١٩٩٢ حتى الجنرال روز عـام ١٩٩٤ ، من التلميح سراً، بأن البوسنيين هـم المسـؤولون عن مذبحة طـابور الخبز في سرايـفو أو عن قصف السـوق المركزي في المدينة فلـم يكن ذلك من الصواب بحيث يمكن للأمم المتحـدة أن تقوله علنـاً وتسمح للصحافة بتحري الأمـر. وحقيقة أنهم رفضوا إظهار الأدلـة الحاسمة التي ادعوا أنها تدعم تأكيـداتهم التي ذكروها سراً ومع ذلك صدقوها بإخـلاص، أوحت لكثير منا لا أنهم كانوا يعرفون أكثر عـما يبوحون به بل أن قوة الحمايـة ومسؤولـو الأمم المتحدة يـريدون أن يـؤمنوا بأن البـوسنيين وكذلك الصرب مذنبون، لدرجة أنهم لم يتخلـوا عن فكرة عدم وجود أبطال بل أشرار فقط في الصراع .

وقد خـدمهم هـذا الاعتقـاد كثيراً في البوسنة . فـاعتقاد الأمم المتحـدة بخسة حكـومة البوسنة زودها بـوسيلة رخيصة لتحرير نفسها من الالتـزام الأخلاقي بإعادة النظر في حيادها المشهور. وفي الـواقع لقد فضل المسؤولون في قوة الحماية وفي سكـرتارية الأمم المتحدة أن يتجنبوا السؤال الأخـلاقي . وكانـوا يميلون إلى تـذكيرك بسرعة بـأن هناك تفويضاً يؤخذ في الاعتبار حتى قبل أن توجه السؤال. لم يطرح مسؤولو الأمم المتحدة المسألة على هـذا النحو ولكن منطقهم في تبريـر أسلوب عملهم لم يكن يختلف كثيراً عن اتجاه آخـر ذائع الصيت من التبريـر المؤسسي تلخصه عبـارة: «كنت فقط أنفـذ الأوامر» . وكل ما كانوا يفعلونه ، رغم أنهم لم يستطيعوا إثبات تهمة حكومة البوسنة، هو تعكير المياه بإطـلاع قليل من الصحفيين الذين تأثروا بتلك النظـرة مسبقاً على ما ادعوا أنـه سر. ففي أعقاب مـذبحة السوق، اطلع عضو رفيع في هيئة الجنرال روز اثنين من الصحفيين على الصفحـة الأولى من تقـريـر مبـدئي مؤذي قـدمه الفـريق المكلف بتحليل الفجوات الناتجة عن انفجـار القنابل يشير إلى ضلـوع البوسنيين في الموضـوع . وأصر على أن داخل التقـريـر يـوجـد كل مـا يلـزمك للـوصـول إلى تلك النتيجة .

ولكن إذا وجد مثل هـذا الدليل، فلم يكن من القـوة بحيث يقنع مسؤولي الأمم

المتحدة ـ الذين لا يمكن القول بأنهم راضون عن عزت بيجوفيتش أو سيلازيتش. فقد أمروا بتحقيق شأن موسع والذي لم يكن قاطعاً. ولو كان هناك تستر لكان ذلك يعني بين أمور أخرى أن المسؤولين الروس العاملين في المجموعة كانوا ضالعين في الأمر، وهذا غير محتمل. كما أنه من غير المحتمل، بافتراض أن الأمم المتحدة أخفت القصة لمصلحتها، أنه في مؤسسة لا يبقى فيها شيء مهم سراً لفترة طويلة، ألا يسرب بعض المتعاطفين مع الصرب داخل الأمم المتحدة القصة.

ولكن رجال الجنرال روز كانوا مشغولين برواية قصة مختلفة. فقد كشف في وقت لاحق المساعد نفسه للجنرال روز، الذي سرب قصة من الذي قصف السوق المركزي في سراييفو، أن روز ظل هـادئاً حتى يستطيع أن يبقى على «بعض التأثير على سلطات سراييفو. وادعى أن روز أجبر نائب قائد الجيش البوسني، الجنرال جوفان ديفياك على حضور جولة من المفاوضات العسكرية بإشراف الأمم المتحدة في مطار سراييفو وذلك بتهديد الرئيس عزت بيجوفيتش بأنه بغير ذلك سيفضح «الحقيقة» حول مذبحة السوق. وكان تعليق مساعد روز هو أن عزت بيجوفيتش أذعن فوراً لأنه علم بالمأزق الذي هو فيه. أما مسؤولو الحكومة البوسنية فقد قدموا صورة مخالفة حيث قالوا إنه لم يكن لدى روز في الحقيقة أي دليل، ولكن كان من الواضح أنه صدق ما يقوله. قال مسؤول بوسني: «كان يريد أن يصدق أننا قتلة، كان يريد ذلك بشدة».

كان هذا بالضبط ما التزمت به الأمم المتحدة. وكما قال لي أحد المسؤولين: «إن الصرب قتلة بالجملة والكروات سفاحون والمسلمون قتلة». وكم كان تصديق هذا مريحاً لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة. كانت تستطيع أن تظل في وضع سعيد بالتعاطف مع ضحايا الحرب البوسنية دون أن تضطر إلى اتخاذ موقف مما هو صواب وما هو خطأ. وعلى أي حال فهي لم تفكر في البديل. لقد احتاجت اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلى عشرات السنين لتستعيد مكانتها الأخلاقية بعد أن تواطأت فعلياً مع النازيين بإرسال وفود لزيارة عرض معسكرات الاعتقال مثل ثيريزينستاد ـ وذلك في عام ١٩٤٣ ـ وعودتهم إلى جنيف ليعلنوا أنهم وجدوا الأحوال صعبة ولكنها مقبولة

بحسب الظروف المتاحة . وإذا كان ما تقف الأمم المتحدة أمامه مكتوفة في البوسنة هو الإبادة الجماعية فعندئذ تكون مصداقيتها الأخلاقية قد اهتزت بصورة مماثلة من خلال الأفعال «أو اللاأفعال» التي قامت بها هناك .

إن الازدراء الذي بدأ يشعر به الناس تجاه عصبة الأمم كان نتيجة مباشرة لعدم جدواها كأداة لمحاربة الفاشية في الثلاثينيات، وكان ما حاول كثير من عمال الإغاثة والصحفيون الذين جاءوا إلى البوسنة كمساندين للأمم المتحدة أن ينقلوه إلى مسؤولي الأمم المتحدة هو أن رفضها مجابهة التطهير الفاشستي في التسعينات سيثبت أنه لا يقل تدميراً للمصداقية الأخلاقية التي تعتمد عليها فاعليتها، من الوجهة العملية على الأقل .

وقد أدرك مسؤولو الأمم المتحدة كأفراد، وبخاصة داخل اللجنة العليا للإغاثة، مدى التدهور الذي لحق بمكانة المنظمة نتيجة لتورطها في البوسنة . ولكن ككيان رفضت الأمم المتحدة ببساطة أن تقبل أن ذلك هو ما حدث بالفعل . فالخطأ يكمن في التفويض أو تراخي القوى الكبرى أو ببساطة وحشية وتهور المحاربين أنفسهم . وكان من المحتم ـ مع تزايد إحباط جهود الإغاثة وقد صار واضحاً أن الإغاثة الإنسانية لن تأتي بأكثر مما أسماه أحد مسؤولي اللجنة العليا للصليب الأحمر، تيري جرمونند، ذات مرة «حد أدنى ـ دائماً غير سليم ـ من الإنسانية في مواقف كان يجب ألا تحدث»، أن يكون هناك اتجاه لإلقاء اللوم على الضحايا فيما آلوا إليه . وقد يتساءل كثيرون من مسؤولي الأمم المتحدة لماذا يصر البوسنيون على استمرار القتال بعدما صار واضحاً أنهم خاسرون؟ ففي عقول كثير من مسؤولي الأمم المتحدة أصبحت المقاومة البوسنية ذاتها نوعاً من الجريمة ضد الإنسانية، فلو أن الضحايا قبلوا بكونهم ضحايا لكان في استطاعة المجتمع الدولي أن يفعل الكثير من أجلهم .

ومع تزايد إدراكها للطرف البوسني من هذا المنطلق كان من المنطقي أن تتمسك الأمم المتحدة بكل اتهام يجعل الطرف البوسني مسؤولاً عن قتل شعبه أو اقتراف جرائم الحرب ضد صرب البوسنة . ففي ٦ أكتوبر ١٩٩٤ شنت قوات حكومة البوسنة غارة على مواقع الصرب في سراييفو . وفي اليوم التالي، تم اكتشاف عشرين جثة لجنود من صرب البوسنة، وقد فصل عنها الرأس .

وسرعان ما أصدر صرب البوسنة بياناً يدعون فيه أن الهجوم «عمل إجرامي» ويبدو أن ياسوشي أكاشي أيد ذلك فقد طار إلى سرايفو للاحتجاج شخصياً على «بتر» رؤوس الجنود الصرب. ولم يكن هناك أي أعمال بتر فكما اعترف المتحدث باسم قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة العقيد تيم سبايسر، في اليوم التالي فإنها كانت «عملية بأسلوب الكوماندوز» غير مسبوقة في وقت الحرب. وأعلن سبايسر أن الأمم المتحدة تسحب ادعاءها.

والحقيقة هي أنه يبدو أن حكومة البوسنة بما وصلت إليه من يأس كانت ترحب في مناسبات عديدة ليس بالفظائع التي التزم الصرب بارتكابها بل بمناسبات التصوير الفوتوغرافي التي توفرها تلك الفظائع.

فقد ظن بعض المسؤولين، وهو أمر مفهوم، أن منظر المدنيين وقد قطعت أجسادهم قد يشد من أزر القوى الكبرى أخيراً للقيام بحماية البوسنة بما هو أكثر من مجرد إصدار قرارات هزيلة في مجلس الأمن تطالب بنهاية للمذبحة. وكان البوسنيون على خطأ في هذا، كما كانوا في كثير من الآمال الأخرى التي علقوها على الغرب. وكان الغضب الذي أثارته مذبحة السوق استثناء لذلك. وقد اتضح ذلك بجلاء عندما بدأ الصرب قصف غوراجده بعد شهرين، واكتشف البوسنيون أن المنطقة المحظورة حول سرايفو لم تشكل سابقة لوقف إطلاق النار في باقي البوسنة والذي ادعاه السياسيون الغربيون في الأساس.

ولوا أن الصرب كانوا على استعداد للإذعان لإنذار الناتو الثاني لأبدت الأمم المتحدة استعداداً كافياً لتنفيذه. ولكن الصرب لم يكونوا ضعفاء ولم يكونوا بلهاء، لقد انحنوا قليلاً في غوراجده ولكنهم لم ينثنوا. وبعد ثلاثة أسابيع من إنذار الناتو اعترفت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن قوات الصرب دخلت المنطقة ثانية متخفين هذه المرة في زي الشرطة وقد تمركز بعضهم على بعد ٩ , ١ ميلاً من «المنطقة المحظورة على جنود المشاة» من مركز مدينة غوراجده. واعتبرت تلك المسافة طويلة حتى بالنسبة للقائد المحلي لقوة الحماية وهو عقيد بريطاني يدعى ديفيد سانتا أولا لا. أما سيرجيودي ميللو، والذي فعل أكثر مما فعل من أي مسؤول آخر للأمم المتحدة

لمنع الضربات الجوية بدخوله جورازدي قبل انتهاء فترة إنذار الناتو. فقد تخطى هذه المرة مهمة قوة الحماية وأخبر صرب البوسنة أنهم يستطيعون الإبقاء على شرطتهم هناك ويضربون عرض الحائط بالإنذار النهائي.

كان دي ميللو في ذلك يتصرف تماماً مثلما تصرف كبار مسؤولي الأمم المتحدة منذ بدء القتال. والآن وبعد أن عرف البوسنيون باتجاه الأمم المتحدة، لماذا لا يلجأون إلى الصحافة ويشنون في الإعلام الحرب التي كان يجب أن يسمح لهم بشنها في ميدان القتال فقد كان السلاح الوحيد المتاح لهم وبقدر وافر هو معاناتهم. وإذا كانوا في بعض الأحيان يؤخرون إزاحة جثة حتى يصل الصحفيون الأجانب وأحياناً يبدون مازوخيين (يتلذذون بالاضطهاد) في رفضهم التفاوض على اتفاقات قد توفر كهرباء أو غاز أكثر لسراييفو فإن هذا، كما يحب رجال الأمم المتحدة في زغرب وسراييفو ونيويورك أن يباروا به أحياناً، لا يعني أنهم المسببون لمعاناتهم. لقد كانوا الضحية. ولكن كونهم الضحايا كان يضايق بل ويقزز مسؤولي الأمم المتحدة بصورة متزايدة في كل من الميدان وفي نيويورك وجنيف. وأصبح ضباط قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة بشكل خاص أقل كتماناً للكراهية التي يحملونها للبوسنيين.

ومن ناحيتهم، فإن خطأ البوسنيين لم يكن فهمهم الخاطيء لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة ـ ارتكبوا هذا الخطأ باديء الأمر ولكن سرعان ما فهموا أن بعثات قوة الأمم المتحدة في البوسنة لم تكن تتضمن الدفاع عن البوسنيين ـ بل تصورهم أنه طالما أمكن جعل الناس في العالم الخارجي ساخطين بما فيه الكفاية على ما كان يجري، فإن مستقبل البوسنة سيخرج من أيدي قوة الحماية. وهذا هو سبب اتجاه البوسنيين نحو الصحافة. لقد حاولوا ـ وكذلك نحن، لقد فشلوا ـ وكذلك نحن. وعندما نكون جالسين في غرفة في فندق هوليداي إن في سراييفو آخر الليل نشرب أحدث زجاجة شعير أحضرها وافد جديد من سبليت أو أنكونا، بعد يوم قضيناه على خط النار أو في جناح الحوادث في المستشفى الفرنسي أو بين الباحثين عن الخشب على طول سفوح التلال الجرداء (كانت سراييفو مشهورة بحدائقها) كان يبدو لنا أنه يستحيل أن يظل العالم غير مبال بما يجري في البوسنة أو الأسوأ من ذلك أن يتصور أن ما يجري

كـان مجرد نوع من الصراع العرقي القـديـم ـ مجرد حرب أخــرى في البلقـان حيث لا يفضل جانب عن الآخر.

من المؤكد أن صورة واحــدة أخرى أو قصة واحدة أخرى أو وقفـة مراسل منتصباً مسجلة على الفيـديو أمـام مبنى يتصاعد منه الـدخان بعد قصفه ستجمـع الناس وتجبرهم على التـوقف عن هز أكتافهم أو لـوم الضحـايا، كما تفعل الأمم المتحـدة، وهكـذا كانت ترسل القصص بالفـاكس عن طريق الأقمار الصناعيـة إلى نيويورك وباريس ولندن وواشنطن وتنقل الصور إلى وكالات العـالم وتبث اللقطات التلفزيونية حية عندما توافق عليهـا مكاتب التحرير في شبكة CNN و TN أو القناة الثـانية. ويسجل لمحرري الأخبار هناك أنهم أعطوا تلك التقارير والصور مساحة ضخمة من المشاهدة في السنتين الأوليتين من الحرب على الأقل. ولن يستطيع أحـد في المستقبل أن يقـول، كما قال كثير من الألمان بشكل شرعي بعـد الحرب العـالمية الثـانية، أنـه لم يعرف شيئاً عما كان يحدث في البوسنة. وقـد تعزى الأمم المتحدة نفسها بأن الصحافة كانت منحازة. أما في الواقع فلم تغط الصحافة مذبحة بدقة ومقدرة أكثر من هذه.

ما فهمتـه الصحافـة وعجزت الأمم المتحدة عن فهمـه هو: أن تكـون عادلاً وأن تكون محايداليسـا الشيء نفسه. وكشخص لم يكن مطلقاً عضواً في الصحافـة العاملة في الميدان ـ فلم اضطر مطلقاً لعمل ملفات أو مناقشة مسائل التحرير أو كتابة مقال حول موضوع غير ذي مغزى إنسانياً ـ ولكن قضـى قرابة عامين قريباً منهم، فقد كان مؤثـراً بالنسبة لي على الدوام، أن هـذه المجموعة من الشكاكين المهنيين والـذين كان يمكن أن يكون كثير منهم جنوداً لو لم يكونوا يساريين فـوضـويين كانوا يؤمنون «بالقيم الغربية» أكثر مما تفعل حكومـاتهم، وقد كلف هذا الالتزام كثيراً منهم حياته. وحتى بالنسبـة لمن لم يعاني مطلقاً أي جـروح جسدية فـإن مشاق العودة ثـانية، رغم أنها لا تساوي شيئـاً إلى جانب مـا كـان البوسنيون أنفسهم يعـانـوه، كلفتهم حتماً الكثير شخصياً ومهنياً. ولكنهم ظلوا يعودون.

ولأطول وقت كانت سـاحات سرايفو مكتظة بالأحـلام كما كانت مكتظة بنيران القنابل. وبحلـول صيف ١٩٩٣ أصاب النـاس في البوسنـة الضجر من الصحـافة

وأصبحوا متشائمين من مقدرتها على تغيير أي شيء وهو ما أصبح أخيراً المعيار الوحيد الذي يحمل معنى، أما الصحفيون الذين كان يحتفى بهم سابقاً كأصدقاء موثوقين وعلق الناس في البوسنة عموماً وفي سراييفو بشكل خاص عليهم الآمال فقد أصبحوا يقابلون ببرود أشد. ولم يكن ذلك لأن البوسنيين اعتقدوا بأنهم لم يحكوا القصة بل لأن ذلك لم يأت بخير. ولقد كان من المحتم في تصوري أن يصبح وجود الغرباء مثيراً للغضب بعد أن كان تفضلاً. سألني صديق في سراييفو عندما رجعت إلى المدينة في أوائل شتاء ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ : «سفرة أخرى؟ ماذا تأمل أن ترى هذه المرة؟ زيادة في الجثث، زيادة في الدمار؟ علينا أن نتقاضى رسوماً على بقائك».

قال كل ذلك برباطة جأش معقولة ولكنها لا تعرف طريقاً للصفح، فقد اعتقد صديقي أن اهتمام الإعلام لم يفعل شيئاً. وبعد شهور قليلة، عندما نجح وقف إطلاق النار في سراييفو وبدأت المدينة حركة عرجاء وهي محاصرة كسابق عهدها ولكن بغير قصف، فإن المرارة نحو الغرباء أصبحت أشد حدة. والآن وقد أصبح الحضور إلى سراييفو آمناً نسبياً، كانت الشخصيات الرفيعة تتدفق على المكان، يزورون الأنقاض ويواسون الأهالي. كانت دوافعهم رقيقة في العادة ولكن أهل سراييفو لم يستطيعوا كتمان امتعاضهم لهذا الاهتمام، وبالطبع لقدرتهم، بعد ما أخذوا كفايتهم من المشاهدات، على الذهاب إلى المطار في الناقلة المدرعة لقوة الحماية وركوب الطائرة والعودة إلى بلادهم. كانت التقارير الصحفية تتقلص بشكل ثابت حيث يخمد ثانية التهديد بتدخل الناتو. فعندما كان القتال في ذروته، فعلت الشهادة الجماعية للصحافة القليل لسراييفو. أما وقد خفت حدة القتال فقد استطاع الزوار فعل القليل ليضمدوا جراحها وحتى ولو ساهموا في النهاية هم وقرناؤهم الغربيون في إعادة البناء المادي للبوسنة. وبالطبع نال الملل أخيراً من رؤساء التحرير في الوطن، الذين أصبحوا متقاعسين بشكل متزايد عن السماح لأفضل مراسليهم باستمرار العودة إلى البوسنة. وعلى مدى عام ١٩٩٤ سحبت مجموعات الأعلام الكبرى رجالها الدائمين خارج سراييفو.

وفيما عدا عمال الإغاثة ومهربي الأسلحة ظل السؤال حول ما إذا كان يستطيع أي

غريب أن يفعل شيئاً مفيداً جداً في البوسنة في المستقبل المنظور. ذلك أن القتال والموت لم يتوقف ولن يتوقف لزمن طويل مهما وقعت اتفاقات وسواء رفع حظر السلاح أم لا وسواء ظلت قوة الحماية أو انسحبت. فمستقبل البوسنة، بل ربما مستقبل الكثير من بلدان أوروبا الشرقية كذلك، يحمل السيف وليس غصن الزيتون. وبعد ما فعله الغرب والأمم المتحدة وما لم يفعلوه، كان كل ذلك متوقعاً. وربماكان أي شيء آخر مجرد حلم. وأياً كان ما كانوا سيفعلونه كان حلماً. إن سقوط الأمبراطوريات العظمى غالباً ما تتبعه سلسلة من الحروب الوحشية. ومن المؤكد أن كثيراً من الأحلام قد تلاشت في البوسنة خلال السنتين والنصف السنة الماضية: الحلم بأن للعالم ضميراً، والحلم بأن أوروبا مكان متحضر، والحلم بأن هناك عدل للضعيف كما للقوي. ولن يكون غريباً أن يموت هناك الحلم القديم بأن الحقيقة سوف ترفع الأغلال عنا. وتتضح معالم هذه الحقيقة في أجلى صورة في حطام وسط وسط المدينة بغوراجده وفي قرى بوسانسكا كرايينا التي طهروها عرقياً وفي مقبرة لايون في سراييفو، أكثر مما تتضح في قصر الأمم المتحدة في جنيف أو في مبنى سكرتارية الأمم المتحدة في نيويورك، برغم أننا ما كنا نتمنى أن تكون كذلك. إن الهزيمة ساحقة والخزي شامل.



هذا الكتاب

على امتداد صفحات هذا الكتاب، يدين دافيد ريف -من واقع رؤيته المباشرة كشاهد عيان- ومن قلب الأحداث في ميادين الحرب، الغرب والأمم المتحدة لوقوفهما موقف المتفرج بينما يجري إفناء البوسنة. وخلال تنقلاته كمراسل لمجلة أمريكية في منطقة البلقان لأكثر من عامين، من سراييفو إلى المدن والقرى الأخرى المحاصرة، لم يكن ريف يتصور في البداية -شأنه في ذلك شأن البوسنيين أنفسهم- أن ما يشاهده إنما هو حرب للإبادة. ويحلل ريف، في هذا الكتاب/ الشهادة، بدقة وصرامة بالغتين، ومن خلال حواراته مع المسؤولين والناس العاديين في قلب هذه القصة المأساوية، أبعاد السقوط الأخلاقي للغرب. إنها رحلة صادمة ومذهلة، وشهادة لا تقل قوة وعمقا عن رواية جورج أورويل الكلاسيكية لوقائع الحرب الأهلية الإسبانية في «المجد لكتالونيا».

